لعبة السادة

محمد سرور

الكتـــــــاب: لعبة السادة
المـــؤلـــــف: محمد سرور
تصميم الغـــلاف: أحمد الصباغ
المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع
رقـــم الإيـــداع: 2015 / 21149
الترقيـم الدولـي: 4 - 044 - 779 - 977 - 978
الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة.
هاتف: 0223952354 - **موبايل:** 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

لعبة السادة

محمد سرور

Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

الإهداء

إلى روح جدتي الغالية، افتقدك كثيرًا، ما زلت أذكر أول كتاب أهديتني إيـاه، تعلمت منك كثيرًا، شكرًا لأيمانك بى وتشجيعك الدائم لي، حقًّا كنت أتمنى أن تريِّ أول عمل لحفيدك، لكن عزائي الوحيد، أنك بالتأكيد في مكان أفضل، في الجنة بإذن اللّٰه

إلى أبى وأمي، تعجز الكلمات أحيانًا عن وصف ما يختلج في صدورنا، ولكني أدري أني دونكم ما كنت سأصبح ما أنا عليه الآن، شكرا لوقوفكم الدائم بجانبي، شكرا لأنكم بحياتي، أحمد اللّٰه على هذه النعمة.

إلـى حبيبتي وزوجتي نـور، ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور دونك، شكرًا لتحملك كل مراحل هذا العمل، كلماتك كانت بلسمًا لأوقات كثيرة مررت بها، محطات اليأس كانت تغادرني سريعًا بابتسامتك، شكرا حبيبتي لأنك بحياتي.

إلى أخوتي باسم وسمر، لستُما مجرد أشقاء نعمت بهما الحياة عليّ، أنتما كنزي الحقيقي بهذه الدنيا، إيمانكما الدائم بى وتشجيعكما المستمر كانا سببًا لكتابة هذا العمل، حقًّا من دونكما أنا لا شيء، شكرا لكما

الفصل الأول

مدافن المَنَارة ــــ الإسكندرية

٦ مايو ١٩٩٢

الهدوءُ والصمتُ؛ كانا حال شارع المنارة في ذلك الوقت، لم يعكِّرهما سِوى بعضِ الضجيجِ الناتج عن دبيب الأقدام مِن رجالٍ -معظمُهم يرتدون بزاتٍ سوداءَ- يَسيرون في سكون، ونحيب بعضِ النساء في سياراتٍ خلفَهم ليشيِّعونَ فقيدَهم لِمثواه الأخير.

تقدَّمتِ الجّنازةُ ببُطءٍ في ذلك الشارع الواسع مترامي الأشجار على الطرفيّن، إلا أنّه -وعلى الرغم من جمالِه- كانت هناك دائمًا تلك الكآبةُ التي يتَّسِمُ بها، اكتَسَبَها مِن كثرةِ أحزانٍ ودموع الناس التي يحتضنها يوميًا. تستطيع أن ترى طائِرَ الموتِ يحلِّق فيه دائمًا، ينظر بأعين ثاقبة ونظرات قاسية لكلّ من يراه، ينتظر بشغفٍ ضحيتَه التالية، ليرسل

لها سهامَه النافذة، يظلّل بجناحيه المقابر ليزيدها رهبةً، تخشى أن تسيرَ فيه بمفردِك ليلاً أو مع أحدٍ، وبالرغم من اتّساعِه فقدْ تَطوَّعَ أحدُ الرجالِ بالقيامِ بالإشارةِ للسيارات كي تلتفّ مِن أي شارعٍ آخرَ، لسير الجّنازة وفق مهابتها.

يتكرر ذلك المشهد دائمًا بالجّنازات، هناك مَن يَفقِدُ أعصابَه وينهار؛ وذلك يكون دائمًا في المقدمة، وهناك مَن أتَى بدافعِ الواجب ويتمنّى أن تنتهي هذه المراسمُ سريعًا، وهناك مَن يبكي حقًّا مِن داخلِه، ويجاهِد إخفاءِ دموعٍ تأبى أن تسكن، وهذا الأخير هو حال ذلك الرجل القصير ذي النظارةِ السوداءِ، الذي يعتري الحزنُ كلَّ خلَجَةٍ من خلجاتِ وجهه، يشاركه حزنَه تلك السيدة في السيارةِ الأولى مِن السيارات التي خلْفَ الجنازة، تركتْ دموعَها تنسابُ على وجنتيها متجاهلةً كلَّ الأيادي التي امتدت لها بالمناديل لتجفّفَ دموعَها تلك، تحمِلُ رضيعًا أبت أن تتركَه مع أحدٍ مِن العائلة كما أوصاها البعض، أصرتْ أن يحضُرَ رضيعُها جنازةَ والدِه، وكأنها تقول له: انظرْ كيف أرادَكَ الزمنُ أن تكونَ يتيمًا في هذه السن! ضمّته إلى صدرها بقوّة وهي تربّت على رأسه، تركت دموعها تنساب لتبلّل وجهه، استجاب الطفل لدموع ولمسات أمّه، لم يبكِ كعادتِه، لم يَضحك، لم يدنُ مِن أي شيء سِوى نظراتٍ أَخذَ يُمرِّرها بين الناس، وكأنّه يريد أن يطبَعَ ذلك المشهدَ في ذاكرتِه لحين استرجاعِه عند الحاجة إليه.

وصلتِ الجنازةُ حتى بابِ المقابر، فأسرع الرجالُ يحملون الجثمانَ للداخل، وترجَّلتْ ناهد مِن السيارةِ تحمِلُ رضيعَها، أسرعت إحدى السيدات تحاول أن تلتقط منها الطفلَ، أشاحت ناهد بيدِها رافضةً، فتراجعت في استسلامٍ أمامَ عنادِها، انتهت المراسم، ووقفت ناهد تتلقى عزاءَها مِن سيداتِ العائلة، والأصدقاءُ يواسونها ويمطرونها بكلماتٍ ظنّوا أنّها سوف تجعلها تصمُد، كلمات محفوظة مسبقًا تُلقى بكلّ عـزاءٍ، لا تُغن ولا تسمن من جوع، يلقونها قبل أن يجتمعوا فيما بينهم لتحديد مصيرها ومصير ولدها. يراهن نصفُهم على موعد زواجها القادم، كم هي مؤسفة تلك اللحظات المزيفة! لم يقترب منها صاحبُ النظارةِ السوداء حتى تأكد مِن رحيل كل المودعين. اقترَبَ منها في خطوات بطيئة، حتى صار في مواجهتِها، وقال في حزن واضح:

- البقية في حياتك يا مدام ناهد، شدي حيلك.

- حياتك الباقيه يا د. وحيد.

- اسمحيلي أوصلك انتي وثائر.

لم ينتظر الإجابةَ، وأسرع بفتح الباب الخلفي للسيارة، دلفتْ ناهد -والطفل- إلى المقعد الخلفي، ووضعتْ طفلَها على رِجليها، أراحت رأسها للخلف، وأخذت تراقب الأشجارَ وهي تجري مِن جانبها في سكون، تودّعها بنظرات حزينة. ما زالت لا تستوعِب ما حدث؛ فمنذُ

عامٍ فقط كانت تشعر أن الدنيا اختارتها هي دون البشرِ لتمنحها كل السعادة التي تتمناها، فها هي تتزوج من فارسِ أحلامِها مراد بعدَ قصة حُبٍ طويلةٍ، لَطَالما كان مراد محلَّ إعجابِها وكان أول ما جذبها فيه قَلَمه وجرأة كتابتِه، كانت مقالات مراد في جريدتِه الخاصة بمثابةِ ثورةٍ، هو قائدُها ومُوقدها، حتى تعرَّفتْ عليه صدفة.

كان ابنَ صديقٍ لوالدها، كثيرًا ما سمعت عن الحب من أول نظرة، لكن أبدًا لم تؤمن به، كانت تراه أمرًا عارضًا، حتى جاء هو حطّم كل ما آمنت به طوال حياتها في غفلة قدرية، وهو أيضًا لم يجد صعوبةً في أن يقع بين براثن هذا الحب، فهي كانت كالزهرة التي تتفتح على استحياء ببداية الربيع، رقيقة كحبّة مطر تنساب في هدوء وخجل على الجبين، بريئة.. عفوّية.. مثل طفلةٍ لم تتخط السابعة! تحطّم عناده وكبرياؤه عند تلقّي أولى سهام عينيها العسليتين، تخلى عن قراره بالعزوف عن الحب، ذلك عند انسدال أول خصلة سوداء على جبينها، تلك الغمازتان بوجنتيها أضافتا إلى ضحكتها جاذبية مُفرطة، أجل.. هي فاتنة.. ببساطة.

لم يمض الكثير حتى كان الأهل والأصدقاء يحتفلون بخطبتهم، تناست ناهد بقصد -أو بدون- ما جذبها إليه من البداية: جرأته! شرفه! فضحه للفاسدين في وسائل الإعلام! ربما، لم تعُد تدري، ثمّة شيء -عدا هذا الإشعاع المطل من عينيه- يمنحها دفئًا معه. لا تنسى يوم

أصرّ –لإيمانه بالوقوف ضدّ الطغيان والثورة على الفساد– أن يطلق على ابنهما اسم "ثائر".

ثمّة لحظات تمر علينا نشعر معها أنّ الحياة برمّتها قد أصابها الفتور، إن تُرد اللّهو، قد تكون أكبر خاسر إن نافست الحياة! تلك الحياة التي ستهوي بك أرضًا إذ تسنح الفرصة.

وتأبى الدنيا أن تديم تلك السعادة، أو لعلّها رأت أنّها أخذتْ زيادةً عمّا تستحق، لتحقّق الدنيا كل مخاوف ناهد وتأخذ حبيبَها و صديقها.

- مدام ناهد... !

قاطَعَ أفكارَها د. وحيد، لترجع مرةً أخرى للواقع، فوجدت أنها ما تزال في السيارة، نظرتْ خارجًا، وجدتْ أنها لم تصِل بعدُ، استجمعتْ قواها ولملمت أفكارَها وبلعت ريقَها بصعوبةٍ وقالت في وهنٍ متقطّع:

- نعم يا د. وحيد..

نظرَ لها عبْرَ مِرآة السيارة وهو يحاول أن يختار كلماتِه جيدًا لعلّها تخفّف حدّة الموقف:

- انتي عارفه طبعًا إن المرحوم كان صديق عمري.. فأرجوكي ميكونش فيه أي حرج بالنسبة ليكي لو كنتي بحاجة للمساعدة في أي وقت..

-عارفه يا دكتور طبعًا، ولو احتجت أي حاجه أكيد أول واحد هقولك.

مضت لحظاتٌ قبلَ أن ينطقَ مرةً أخرى:

- خللي بالك مِن ثائر.

لم يتلقَّ إجابة، وإنما كل ما شاهده في مِرآة السيارة كان نهرًا من الدموع تتساقط من أعين ناهد ليبلّل شَعر ابنِها ووجهَه.

توقفت السيارةُ أمام تلك البناية التي تتوسط منطقة ميامي، التي تتميز عن سائر البنايات حولها بارتفاعها، وتمايلت أغصان تلك الأشجار المتلاصقة أمام البناية حتى لكادت تحجب المدخل، وما إن رأى البوابُ السيدةَ التي بداخل السيارة، حتى أسرع يفتح البابَ الخلفي، ويقول في تأثُّرٍ مصطَنع ولهجة تشير إلى مسقط رأسه بجنوب مصر:

- البقية في حياتك يا هانم.

ردّت في اقتضاب:

- وحياتك الباقية.

نزَل وحيد من السيارة وسار معها حتى مدخل العمارة وودَّعها قائلاً:

- مع السلامة يا ناهد، هبقى أكلمك أطمن عليكوا.

تاهت كلماته في الفضاء، ضلّت طريقها إلى أذنيها، أو لم تضل، لا فرق، لم تولِ أهمية للرد، فما بها من حزن لا يكفي لأن تجامِل كل امرئ

على حِدة، كلّ ما تريده الآن أن تصعد إلى منزلها..

الذهاب إلى غرفته.. احتضان صورته.. والبكاء.

كلّ ما تريده البكاء، فقط، وليحترق أي شيء آخر.

في اليوم التالي نُشِرَ خبرٌ صغير في جريدة، من الجرائد التي ليس لها اسمٌ يُذكَر، ينوِّه عن مقتلِ الصحفي الشاب مراد صبحي في ظروفٍ غامضة.

قبل ذلك بعامين

١٢-١٠-١٩٩٠

كوبري قصر النيل –القاهرة ١٠:٤٠ صباحًا

لم يكن يدري ذلك العجوزُ؛ القابع في سيارتِه المُتهالكة، بأنّ القدر قد منحه اليوم تذكرة مجّانية، لحضور أكبر عروضه الدرامية لهذا العام، لم يكن يدري بأنّ نفس الطريق التي تجأر فيها سيّارته الآن، وتنفث دخانًا يكاد يحجب أشعة الشمس، سيمُر بها شخصٌ آخر مِن أهم رجال الدولة، كذلك الفتى فوق الدراجة البخارية، المتّجه إلى عمله بشركة الإعلانات، ويطلق سبابًا لنفسه لأنّه لم يأخذ قسطًا وفيرًا من النوم أمس، إذ هو بالكاد يرى أمامه. لم يكن الاثنان يدريان أنّهما على موعد مع مشهدٍ سينمائي لا يتكرر كثيرًا في التاريخ.

رغم الهدوء الذي ساد الكوبري –في ذلك الوقت– إلا أنّه كانت هناك عاصفةٌ أخرى تعرك أفكار ذلك الرجل صاحبِ الموكب المار بالكوبري، هيئتُه ووقارُه يدلانِ على أهميته في الدولة، تَقدَّمَ الموكبَ شرطيٌّ –على دراجة بخارية– سيارتَه وسيارة أخرى خلفَه، أفكارٌ كثيرةٌ كانت تدور في رأسه، وأسئلة أبتّ أن تسكن وأخذت تلِحُّ عليه حتى يوافيها بإجابة، فهو ما يزال لا يدري لماذا أَصَر الرئيسُ على أن يقطع إجازتَه رغم اعتذاره

له ليقابل ذلك الوفدَ من البرلمان السوري في فندق الميرديان! هو قانونًا لم يعد رئيسَ مجلسِ الشعب. هناك استفتاءٌ يجري وسيتحدّد الموقف حسب النتيجة، ولماذا إلحاحه هذه المرة بعد فترة قَطَع فيها هو أيّة اتصالات؟ بدت علاماتُ القلق على وجهه، هناك شيء خاطئ، هذا ما أكده لنفسه، حتمًا هناك شيء خاطئ.عدل مِن نظارته الطبية قليلاً ونظر للخارج، تَصاعَدَ في نفسه ترمومترُ الخطرِ عندما رأى السائق يسلك طريقًا أخرى، صاح به في قلق:

- انت ليه مشيت من هنا وممشتش من كوبري الجامعة على طول؟

- تعليمات أَمنية يا أفندم.

رد باقتضاب.

- وهو فين محمود السواق؟ أنا أول مرّة أشوفك!

- اعتذر في آخر لحظة يا أفندم.

قالها وانحرفَ يمينًا، كان الموكب وقتَها يمرّ من أمام فندق سميراميس.

تصاعدت الشكوكُ لديه حتى بلغت ذِروتَها، هل صحيح ما يفكّر به؟ بدايةً تَم تغيير طاقم الحرس الخاص، والآن السائق والطريق و..

قطَعَ أفكاره ذلك المشهد الذي قفز إلى الشاشة فجأة، أربعةُ شبابِ على دراجتين بخاريتيّن يحملون بنادقَ آلية ظهروا فجأةً من العدم

واعترضوا طريق الموكب، كلٌّ منهم يعرف مهمتَه، أولُهم ركَّزَ رصاصتَه على الشرطي في المقدِّمة، وزميله على نفس الدراجة ركَّز على السيارة التي في المؤخرة، والاثنانِ الآخرانِ أسرعا بفتح باب سيارة د. نشأت معروف؛ رئيسِ مجلس الشعب، وأمطرَاه بالرصاص في صدره هو وسائقه وتناثرت الدماء والأشلاء في كل مكان.

كل ذلك حدث في أقل من ثوانٍ، بعض الناس أَقسَم أنه بالرغم من وجودهم في نفس التوقيت إلا أنهم لم يستوعبوا ما حدثَ إلا بعدَها بدقائق.

ركبَ المسلَّحون دراجاتِهم مسرعين متجهين عكس السير، نجحَ ثلاثةٌ منهم في الهرب ولم يستطع الرابع اللحاقَ بهم، أوقفَ سيارة أجرة تحت تهديد السلاح وركب معه حتى وصل عند إشارة فندق هيلتون رمسيس، نزل من السيارة الأجرة شاهِرًا سلاحَه في وجوه المارة وأطلقَ النارَ عشوائيًا فقتلَ عميدًا بمباحث القاهرة ولاذ بالفرار تجاه المنطقة العشوائية التي تقع خلف الهيلتون.

طوالَ اليومِ كانت الإذاعةُ المصرية والتلفزيون يعرضان أغاني ومسلسلات، وكأنه لا يهمهما أنّ رئيس مجلس شعبه قد تم قتلُه صباحَ اليوم في جريمةٍ بشعة، حتى جاء أخيرًا صاحب الوجه البشوش وزير الداخلية عبد القادر عيسى ليُطِل على الشاشة يلقي بيانًا كان جزءٌ منه كالتالي:

"هو أنا اللي سمعته دلوقتي بيقولوا إن د. نشأت معروف انضرب بالرصاص قدّام سميراميس، على طول نزلت جري وخدت العربية ورحت على هناك لقيت القاتل لسّه بيحاول يهرب، ضربت عليه نار بس للأسف كان هرب."

٧ يونيو ١٩٩٢

ميامي- الإسكندرية

كانت حرارةُ الجوِّ المرتفعةُ في ذلك اليوم تعلن؛ أن تلك الموجةَ الحارة الممتدة منذ ثلاثةِ أيامٍ لم تنتهِ بعدُ، مما دفع الكثيرين إلى الهروب إلى الشواطئ استنجادًا بنسمةٍ تخفف وطأةَ هذا الحَر، أو لفحة هواءٍ تجفف ذلك العَرَق، كان ذلك عندما وقف د. وحيد أسفلَ تلك البنايةِ في توترٍ، يحاول جاهدًا أن يجمعَ أفكارَه، يزيل كل ما علق بذهنه من أفكار مشتتة، نظم كل ما يريد قوله في عدة نقط، عدة دقائق أخرى مرت قبل أن يدلف إلى مدخل البناية ملقيًا تحية سريعة على الحارس الذي قفز فجأة من جلسته المتراخية معتدلاً وهو يرد التحية بابتسامة كشفت عن نصف أسنانه المفقودة -كان الحارس أو "أبو أحمد" كما يطلقون عليه مثله مثل سائر أقرانه، يمتاز بتلك البشرة السمراء التي حفرت الشمس ملامحها كلها، طويل ونحيف جدًا، جاء من أطراف الصعيد منذ زمن، حتى لا يكاد يذكر متى جاء تحديدًا. استقبل د. وحيد تحيته سائلاً إيّاه:

- مدام ناهد فوق؟

- أيوه يا بيه فوق، دي بيتهيألي مبتنزلش خالص.

قالها بلهجته الصعيدية، وهو يهرش في رأسه محاولاً التذكر.

أومأ وحيد برأسه متفهمًا قبل أن ينظرَ إلى ساعتِه، حسَنًا لم يتأخر بعد. كانت عقارب ساعته تشير إلى الثامنة مساءً، صعَدَ درجاتِ السلم في بطء، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى. سينهِي مهمتَه سريعًا ويرحل، هكذا حدَّثَ نفسَه، يكفي ما حدث حتى الآن، لولا أمانتُه و صداقته للمرحوم لمَا كان جاء يحمل هذا المظروفَ الأبيض الذي أخفاه بعنايةٍ بين طيّات ملابسه، هذا آخر صلةٍ له بالموضوع وسيترك كل شيء خلفه، ابنته على وشك أن تلد، بالتأكيد لا يريدها أن تلدَ دون أن ترى والدَها أو تعيش يتيمةً مثل ثائر، دارت كل تلك الأفكار في رأسه قبل أن يشعر بغصةُ ألمِ لحقتْ به عند تذكُّرِه ثائر، كم يُشفِق عليه!

انتزَعَ نفسَه من أفكاره عندما وجد شقة صديقِه أمامه، زفرةٌ حارة أطلَقَها وهو يقترب ببطءٍ من الباب، عدل من رابطة عنقه ومنظاره الطبي قليلاً. كان وحيد قصير القامة إلى حد ما، ذا شعر أسود تتخلله من الأمام بعض الشعيرات البيضاء التي لازمته منذ الصغر، ممتلئًا قليلاً، لكن خطواته رشيقة.

تَحسَّسَ المظروفَ في جيبِه حتى يَطمئِن أنه ما زال هناك، قرَعَ الجرسَ وانتظر، مضت لحظاتٌ، مرت كدهرٍ كامل عليه، قبل أن ينفتِح البابُ وتُطِل سيدةٌ في أوائل الخمسينات من عمرها، ترتدي الأسودَ وتنظر له متسائلةً، أربَكَه ظهور تلك السيدة، فقدْ توقَّعَ شخصًا آخرَ، خشي أن

يكون قد نسي الشقةَ أو اختلط عليه الأمر في عدد الأدوار، إنّما قرر ألاّ يطيل التساؤلَ في عينَي مضيفتِه وسألها في هدوء:

- هي دي شقة المرحوم مراد؟

- أيوة هيّا.. حضرتك زميله؟

- أيوة يا فندم أنا كنت زميلُه في الجريدة.. هيّا مدام ناهد موجودة؟

- أيوة اتفضل.. آسفة إني سبتك واقف كل ده.

دلفَ وحيد إلى الداخل تاركًا مضيفتَه تقوده إلى حجرة الصالون، كان كل ما حوله يعلن -بوضوح- الحداد على صديقه، الصور المعلقة.. الجدران.. الأثاث والتحف، كل شيء اتّشح بالسواد. أجلسته على أريكة بمنتصف الصالون تاركةً إيّاه كي تُعدّ القهوةَ، رجَّحَ وحيد أنها قد تكون أُمَّ ناهد لأنه يعرف جيدًا أُم مراد، فقدْ زارها في منزلها عدة مرات مع مراد.

تَحسّس مرة أخرى المظروفَ في جيبه، وكأنه يخشى أن يفر منه، يريد تسليمَه ويرحل ليحل مِن على عاتقه ذلك الحِمل، لم يَطل انتظارُه حتى جاءت السيدة حاملةً صينية فضية يتوسطها فنجانٌ أبيض مزخرف قائلةً له في ودٍ غلب عليه الحزن

- أنا عملتلك القهوة مظبوط لإني نسيت أسالك قهوتك إيه!

- ولا يهمك يا فندم، شكرًا تعبتك معايا.

- لا مفيش تعب ولا حاجة.

- حضرتك والدة مدام ناهد، صح؟

- آه أنا قفلت شقتي وجيت أعيش معاها من ساعة المرحوم.

- آه.. أحسن طبعًا.

سكتت قليلاً، ثم أكملت بعد أن أربد وجهها:

-انت عارف كلام الناس طبعًا، مينفعش أسبيها قاعده لوحدها في السن ده، مش هتسلم من كلام الناس.

رد وحيد متفهمًا، وهو يرشف قليلاً من القهوة، محاولاً تدارك الحديث:

- آه فعلاً، الناس مش بتسيب حد في حاله.

ساد الصمتُ لحظاتٍ قبل أن ينظر وحيد في ساعته، أسرعت أُم ناهد قائلة:

- ثواني بس، ناهد بتلبس وجاية.

- لا براحتها يا فندم أنا مش مستعجل.

لم يتم جملتَه حتى وجد ناهد على باب الصالون، وقد اتّشحت كلها بالسواد، وشحب لونُها وارتسم تحت عينيها سوادٌ وانتفاخ ينمان عن

كثرة البكاء، وواضح من فقدانها لوزنها أنها في خصومة مع الطعام، ذبلت تلك الزهرة قبل أن تتم تفتحها، وما إن رآها وحيد حتى أسرع بالوقوف وصافحها في حزن وقال:

- البقاء للّه يا مدام ناهد.

ردت:

- ونِعمَ باللّه، اتفضل اقعد يا د. وحيد.

همَّت أُم ناهد بالوقوف تاركة المكان:

- طب أنا هاقعد في الصاله برّه.. لو عزتوا حاجه قولولي..

وخرجت دون أن تنتظر ردًا.

صمتٌ ثقيل ولحظات تمر ببطء دون أن ينطق أحد بكلمة، بادر وحيد بالحديث قائلاً:

- في الحقيقة أنا كنت مستني الأمور تهدا شوية وأعصابك انتي كمان تهدا عشان آجي النهارده، انتي عارفة طبعًا أنا ومراد اللّه يرحمه كنا إيه مع بعض، سرنا كان مع بعض، مراد جالي قبل الحادثة بكام يوم وساب عندي أمانة وقاللى لو حصل لى أي حاجه آجى أديكى الأمانة دي.

- أمانة إيه؟

ردت ناهد باستغراب، أَخـرَج وحيد مظروفًا أبيضَ من جيبِه وسلَّمه لناهد التي تناولته برفقٍ وبدت على وجهها علامات الاستغراب، وقالت دون أن تفتحه:

- إيه ده؟

رد وحيد:

- معرفش واللّهِ، أنا مفتحتوش ولا حاولت اشوف إيه اللى جوّاه، دى أمانة وكان لازم أسلمها زى ما هيّه.

همَّت ناهد بفض المظروف حين اعترضها وحيد قائلاً:

- لا مِن فضلك، افتحيه بعد ما امشي، أظن إن لو مراد كان عاوزني أعرف إيه اللى جوّاه كان قاللي.

- بس أنا مش فاهمه ليه مراد يعمل كدا؟ كان ممكن يسبهولى أنا أو يحطُه في خزنة البيت.

رد وحيد ببطء مفكرًا:

- أكيد اللى في الظرف من الأهمية إنه يحاول يخفيه، لو حد حَب يدور عليه عشان كدا اديهولى أنا كأمانه أردها وقت اللزوم.

أومأت ناهد برأسها متفهمةً قبل أن تقول:

- فعلاً المكتب بتاعه فيه ناس دخلته وقلبت كل اللي فيه، والشرطة

لحد دلوقتي لسّه بتحقق وانتا عارف إنهم مش هيوصلوا لحاجة، وانت عارف طبعًا ليه كويس، مراد اتقتل عشان الناس اللي كان بيهاجمهم، وانتا عارف الناس دي في البلد عاملة إزاي، ولا قانون ولا شرطة ولا أي حاجة من دي هتعملهم حاجة، حسبيَ اللّه ونِعمَ الوكيل.

رد وحيد:

- أنا فاهم وعارف، مراد كان مناضل ورغم صغر سِنّه إلا إنه كشف ناس كتير في البلد، والناس دي كان من مصلحتها إن مراد يسكت وللأبد.

أردفت ناهد:

- وإيه أخبار الجريدة؟

كان وحيد متوقعًا هذا السؤال، وهو كان لا يعرف من أين يبدأ هذا الموضوع، تنحنَحَ قليلا قبل أن يقول:

- في الحقيقة صدَر قرار بوقف النشر على إثر بلاغ متقدم ضدنا بتحريض الرأي العام ضد النظام، فالنشر متوقف لحد ما يخلصوا تحقيق في البلاغ المقدم وإن كنت أعرف النتيجة مسبقًا، حتى لو صدر قرار بعوده النشر انتي عارفه كويس إن ده مش مجالي، أنا مجالي الطب وكنت داخل موضوع الجريدة ده مع مراد كشريك لمّا شوفت حماسه، وكان هو متولي كل حاجة بخصوصها، فما أظنش إني هاعرف أديرها

بعد كدا.

- خلاص هأديرها أنا.

ردت ناهد بحزم.

- يبقى كدا انتي مش عاوزه تربِّي ثائر؟ ابنك لسه صغير ومش كفاية إنه خسر أبوه في السن ده؟ عاوزاه كمان يخسرك؟

ردت ناهد في حزن:

- معاك حق.

- هو فين ثائر؟ أنا مش سامع لُه صوت.

- هو نايم دلوقتي.

شَعر وحيد بأنه أكمل مهمتَه ولم يعد لوجوده أهمية، فقام مسرعًا مودِّعًا إياها وراجيًا منها ألا تشعر بحرج إن كانت بحاجةٍ إلى مساعدته في أي وقت. خرَجَ تاركًا خلفَه ناهد تنظر للمظروف بتعجبٍ وتفُضُّه لتستكشف ما بداخله، أخرجت ورقةً مطوية بعناية مكتوب على طرف الورقة مِن الخارج (إلى ثائر). نظرت مرةً أخرى لعلها تجد شيئًا لها، فوجدت وردةً قد ذبلتْ أوراقها وجفت، ويبدو أنها خارجة من بين أوراق كتاب، تذكَّرَتها على الفور إنها الوردةُ التي أهداها إياها مراد في صباح أول يوم زواجٍ لهما. ابتسمتْ رغم حزنِها وطبعت قُبلةً على الوردة؛ فكأن

زوجَها يهديها رسالةً مِن العالَم الآخر ليقول لها أنا هنا بجانبك ما زلتُ أُحِبك. قلَّبتْ في المظروف لتجد في قاعِه يستقر شيء معدني، قلبت المظروفَ في يدِها فوجدت مفتاحًا ذهبيًا طويلاً غريبَ الشكل، أولَ مرةٍ تراه، أخذت تقلِّبه بين يديها تحاول تذكَّرَ إن رأته يستخدم قبل ذلك، لكن هذا المفتاح أول مره تراه. هذا ما أكدته لنفسها، تذكَّرت الرسالةَ التي في يدها المخصصةَ لابنِها ثائر، فتحتِ الرسالةَ وقرأت سريعًا وانعقَدَ حاجباها مع كل سطرٍ تقرؤه، وازداد انعقادهما مع آخر سطرٍ قرأته، أخذتْ تقلِّب في الرسالة على وجهها وخلفَها لعلَّها تجد ما يفسر ما قرأته، لكن لم تجد شيئًا آخر، أعادت قراءةَ الرسالةِ مرةً تلو المرة ولكن هذه المرة بصوتٍ عالٍ كأنها تتوقع أن تجد ردًا:

" ها أنا أنتظرك لتحررني مِن قيدي..

ستجدني في قبري آملاً أن تحييني..

لأضيء نورَ العقول وأزيل ما عَلِقَ بهم من غبار..

المجد لسبارتكوس، ستجدني بين كلماتِه الأخيرة..

Xi "

طوت الورقةَ في بطءٍ، تزاحمت الأفكار في رأسها، إن كانت أدركت شيئًا من هذه الورقة فكل ما أدركته أن مستقبل ابنِها سيحمل له الكثير، وأن الغدَ لن يختلف كثيرًا عن البارحة!

١٧-١-١٩٩٣

تم صدورُ قرارٍ بغلق جريدة" الأحرار" لِما كانت تنشره من تحريضات ضد النظام، ولسعيها إلى زعزعة الاستقرار العام للدولة.

٥-٢-١٩٩٣

قُيِّدتْ قضية مقتل الصحفي مراد صبحي ضد مجهول.

١٤-٨-١٩٩٣

تم الحكمُ ببراءة المتهمين في قضية اغتيال د. نشأت معروف رئيس مجلس الشعب الأسبق.

٢٥-٢-١٩٩٤

استلمت ناهد شيكًا بمبلغ ٥ ملايين وذلك نصيبها بعد حل الجريدة وبيعِ أصولِها وبيعِ المطبعة، أودعته المبلغَ كوديعةٍ باسم ثائر في البنك.

١٤-٩-٢٠٠٩

التحَقَ ثائر بكلية التجارة جامعة الإسكندرية رغم حصولِه على مجموعٍ عالٍ يؤهله لإحدى كُليّات القمة، معارِضًا بذلك رغبةَ والدتِه في أنْ يلتحق بكلية الإعلام.

١٢-٨-٢٠١٢

قدَّم ثائر ورقَه لكلية الإعلام بجامعة القاهرة؛ ليلتحق بها تحقيقًا لحُلم والدتِه.

الفصل الثاني

١٨-٧-٢٠١٦

طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي

لم يكن الطريق من القاهرة للإسكندرية بمثل هذا الطول من قبل، إن الطريق لا ينتهي، تمامًا مثل الأفكار التي تجول في رأسِه و تجعله مشوَّشًا، مشاعر كثيرة تنتابه، انتشلَته مِن أفكاره رنةُ هاتفِه الذي التقَطَه دون أن ينظر؛ فهو يعلم جيدًا صاحبةَ الرنّة وأجاب:

- آلو، أيوه يا أمي.

- إيه يا ثائر، انتا لسّه في السكة؟

- أيوه يا حبيبتي متقلقيش، أول ما هوصل هكلمك.

- طيِّب سوق بالراحة ومتجريش وخللي بالك من نفسك.

- حاضر، حاضر يلا مع السلامة دلوقتي عشان السكة.

وسارَعَ بإغلاقه قبل أن يسمع بقية الأسطوانة فهو يحفظها جيدًا، بل معظم الشباب يحفظونها.

غريبة هي أمي تلك، أخذَ يحدِّث نفسَه.

لقد تخطيتُ الخامسةَ والعشرين وما تزال تعاملني كطفل، ولكن كم أعشقُها! لقد كرَّستْ حياتَها كلها من أجلي، واليوم أنا أحقق حُلمَها، في البداية كان حُلمُها هي أن أتخرَّجَ في الإعلام أُسوَةً بوالدي، وكنتُ رافضًا أنا أن أعيشَ في جلباب أبي، حتى رضختُ لطلبِها والتحقتُ بالإعلام، والآنَ أصبَحَ حُلمي أنا، عشقتُ هذا المجالَ، لديَّ أفكارٌ كثيرةٌ لا أطيق صبرًا حتى أسعى لتحقيقها، أرى اسمي الآنَ يُكتَب بحروفٍ من ذهبٍ بين الإعلاميين الكبار، قدوتي والدي، كم كان نفسي أن أراك يا أبي، كم كنتَ عظيمًا حقًا، قتلوك لأنك كنتَ تقول لا، لا لكل فاسدٍ استباح خير هذا البلد، لا لكل واحد أغرته السلطةُ وعاثَ في الأرض فسادًا، ولكن حلمك حلمي يا أبى، ودربك هو ما سأسير عليه طوال حياتي.

كان ما يعرفه عن والدِه ليس بالكثير، فأُمُّه كانت دائمًا تقول ستعرف كل شيء في حينِه، وراوَدَه شعورٌ قوي بأن الآنَ هو حينُه المراد، فقدْ حقَّقَ حُلمَ والدتِه وحلمِه هو، وبالتأكيد هذا كان حُلمَ والدِه أيضا، ولكن ما

يزال أمامه الكثير، فالحُلم ليس فقط بالدراسة، الحُلم هو بتحقيق ما تصبو إليه بالعمل، ما فائدة المهندسِ دون موقع العمل؟ والدكتور دون العيادة والمَرضَى؟ بالتأكيد لا شيء، فيجِب عليه الآن العمل و..... .

قاطَعَه رنينُ هاتفِه بصوت عمرو دياب يتساءل في تعجبٍ عما حدث له، ويصيح بأعلى صوته جرالي إيه؟؟ أنا جراااالي إيه؟ الدنيا مالها احلوت ليييييييييه؟ وكأنه مِن الغريب أن تكون الدنيا حلوةً، التقط الهاتفَ وابتسم عندما وجد صاحبَ الاسمِ وأجاب مسرعًا:

– إيه يا بني؟ كنت لسّه هكلمك أول ما أقرب من البوابة.

– انتا فيييينك يا عم؟ كل ده في السكة؟ انتا جاي من لندن ولا إيه؟

اتسعت ابتسامتُه حتى بلغت أقصاها:

– يا عم خلاص أهو قربت، هكلمك أنا لما أوصل متقلقش.

– طيب أنا هستناك على القهوة، أول ما تيجي تعالى عليّا.

– لا يا عم، هطلع أسلم على أُمّي الأول، ست الحبايب الأول وبعدين أنزلك.

– ماشي وأنا هوصّي عم محمود على حجَرين خوخ وشاي بالنعناع لحد ما تيجي.

– إشطه يا سلوم.. يلا سلام.

- سلام.

لم يكن ذلك المتصِل سوى إسلام صديقِ عمره منذ الإعدادية، يعرف عنه أكثر ما تعرفه والدتُه نفسُها، أسراره كله في جيبه، تَخرَّج هو في تجارة بعد أن فشل في أن يقنِع صديقَه بألا يتركها ويلتحق بالإعلام، وحاله كحال معظم الخريجين أَخَذَ وقتًا قبل أن يفهم أنه لكي يحصل على وظيفةٍ محترمةٍ بشهادته يجب أن يكون لديه أحد الكارتين الوساطة أو المال، ولمّا كان يفتقر للاثنيْن معا فقدِ استقرت به الحال في شركة أبحاث تسويقية، شركة يقوم نشاطُها على أبحاثٍ ميدانية تكلفها بها كبرى الشركات التي تريد أن تعرف مدى فعاليةِ المنتَج بين المستهلِكين، طوالَ اليومِ يجوب البيوتَ في المنطقة المحددة له على الخريطة حاملا استماراتِ أسئلةٍ ليست معظمها عن المنتَج، بعضُهم يغلِق البابَ في وجهه، والبعض الآخر يحسبه مندوبَ مبيعات، والبعض يقف يتجاوب معه بدافع الفضول أو منتظرًا هديةً في آخر الاستمارة، ليعود في آخر اليوم إلى الشركة ويتم حساب عمولتِه على كل استمارة، يسأل نفسَه كل يوم ما علاقة دراسته بعمله؟ ويكون الرد دائمًا: بأنه لستَ وحدَك على هذه الحال. ينتظر رجوع صديقه على جمر حتى يشاركه حكاياتِه وأخباره، وكذلك كان ثائر.. فمهما تعددت صداقات أيّ فرد ووسعتَ دائرة معارفه هناك دائمًا شخصٌ واحد مميز بينهم هو الذي يكون الأقربَ، شخص تستطيع أن تبوح له بما بداخلك دون

حرجٍ أو خوف.

تَخطَّى ثائر بوابةَ الإسكندرية وسرعان ما وجد نفسَه أمام منزله، ركن سيارتَه قبل أن ينظر في المِرآة ويهذِّبَ شَعرَه بيده، يتسم شَعرُه بلون البني المحروق الناعم، مما زاد مِن وسامته، يشبِه كثيرًا والدَه في طولِه وبياضِ بشرتِه وشَعرِه وانفه الحاد، ولكنه اكتسب عينيه العسليتَيْن من والدِته، لم يرِثْ مِن جيناتها الكثير، كانت دائما تردد عليه بأنه نسخةٌ مِن والدِه. مَظهرًا فقط يا أُمّي.. ردَّدَها في نفسِه، تمنى أن يكون قد ورِثَ أيضًا شجاعةَ ومبادئ والدِه، ثورةٌ تشتعل في نفسه كلما تذكر كيف مات والدُه مِن أجل المبادئ والحق، نفضَ عن ذهنِه كل هذا عندما وقف على باب شقته يضرب الجرسَ مبتسمًا رغمًا عنه، لم ينتظر طويلاً حتى وجد نفسه يتلقى والدتَه بحضن دافئ وعدة قُبُلاتٍ تنم عن الشوق لها، قبْلَ أن تتفحص وجهَه بأصابعها وتقول:

- مالك خسيت ليه كدا؟ انتا مش بتاكل؟

- لا باكل، بس طبعًا ميجيش حاجة جنب أكلك يا أُمّي، وحشتني صينية البطاطس بالفراخ بتاعتك.

رد ثائر ضاحكًا.

ربتت أُمَه على كتفه وقالت:

- هعملك كل اللي بتحبه متقلقش.. ادخل غيَّر هدومك لحد مجهزلك

الأكل.

- لا لا، أنا هغيَّر هدومي وهنزل.. إسلام مستنيني.

قالها دون أن ينتظر الرد ودلفَ إلى غرفته مسرعًا، تي شيرت أسود مع بنطلون جينز أزرق لَبِسهما ثائر في لمح البصر، وسرعان ما كان يعبر الشارعَ مسرعًا لملاقاة صديقِه، محلات جديدة معظمها للملابس التركي افُتُتِحت في ذلك الشارع بإسكندر إبراهيم، أخذ يتفحصها ثائر بنظره سريعًا وهو يذكِّر نفسَه بأنه يجب أن يمر مرةً عليها لاحقًا ليرى إن كان هناك ما يستحق أن يُشتَرى، اقتربَ مِن المقهى، مِن بعيدٍ لاح له شخصٌ نحيل جالس يحتضن ليًا طويلاً ينتهي بشيشةٍ صغيرة. انهمك في إخراج دخان شيشته مِن فمِه تارةً ومِن أنفِه تارةً ببطء.. بدا وكأنه يرسل رسائلَ استغاثةٍ بالدخان لترتسم في السماء وليس فقط يدخن.. ابتسم وهو يلوِّح له بيدِه وهو يقترب، وما إن دنا منه حتى قفَزَ ذلك النحيلُ مِن مقعده تاركًا الليّ يسقط جانبَه، وصاح بصوتِه الجهوري:

- يا أهلاااا.. حمد الله على السلامة يا معلم، وحشني واللهِ.

حضن مدته خمس ثوانٍ مع قُبلتيْن على الخد مع عدة كلمات عن الترحيب والشوق كانوا استقبالَ إسلام لثائر، جلسَ بعدَها الصديقانِ يدخنان معا أحجار الشيشة ويقص كل منهما للآخَر عما فاته، قبل أن يسأل ثائر:

ـــــ وناوي على إيه دلوقتي؟

ـــــ أنا عايز اتجوز..

رد إسلام ضاحكًا.

- تتجوز إيه يا مجنون؟ إوعى تعمل كدا.. اهدا كدا وخليك عاقل.. قال تتجوز قال.. !

- لا خلاص أنا قررت، كفايه كدا الواحد تعبااااااااااان..

قالها وهو ينظر للأسفل بين رِجّليه.

- هتستريح مِن حاجه وهتتعب من حاجات تانيه أكتر.. يا بني اسمع الكلام متبقاش مغفل.. هتندم.

- لا لا، هوا خلاص كدا أنا نويت.

- طيب ومين اللي أُمّها داعية عليها دي؟

سأله ثائر ضاحكًا.

- خالتي جايبالي واحدة جارتهم.

- كمان صالونات؟؟

صاح به ثائر.

- يا بني انتا مجنون؟ يعني لما تتنيل تتجوز.. تتجوز صالونات كمان؟

- مالو بس الصالونات؟

- الصالونات دا بيفكرني بواحد عنده قُطة أو كلب يقوم يدور على واحد عنده قُطة أو كلب نوع تاني عشان يجوزوهم لبعض.. يعني الجنس هو السبب الرئيسي لجوازهم مش حاجة تانية.

- طيب وأنا مغلطتش كده! منا بقُولك تعبااااااااااااااااان.

ضحك ثائر طويلاً قبل أن يرد:

- معاك حق، اتكل على الله.

×××

(أنت الآنَ في بلدة بيدفورد فالز)

سطعتْ شاشةُ الكمبيوتر بهذه الكلمات وهي تنقلُ صورةَ رَجُلٍ يجري كالمجنون من السعادة وهو ينادي باسم زوجتِه: ماري. بعد أن خاض تجربةً اعتقَدَ خلالها أنه قد فارق الحياةَ حتى وصل لبيتِه، وأخذ يقبِّل أولادَه وهو سعيد أنه لم يمُت بعدُ.. هذا عندما كانت كارمن تحاول حبْسَ دموعِها مِن أن تسقط مجددًا كلما شاهدتْ هذا الفيلم وخاصةً في مشهد النهاية.. جيمس ستيوارت يقوم بأفضل أدواره في هذا الفيلم، فيلم "إنها حقًا حياةٌ رائعة. it's a wonderful life "

تمسح دموعَها سريعًا قبل أن تتجول بمؤشر الماوس بين الأفلام لتحدد

فيلمًا آخر تقضي به على ما تبقَّى من اليوم، كم تعشق السينما! السينما بالنسبة لها حياةٌ وليست مجرد أفلام تشاهدها للتسلية، تعيش داخل شخصياتِ أفلامِها، يفرحانِ معًا، يحبانِ معًا، بداخلها شخصياتٌ كثيرةٌ يصعب معها تحديد أيهم شخصيتُها الأصلية، فهي خليطٌ من جاذبية جوليا روبرتس، وجنون أودري تاتو، وقوة شخصية كاترين زيتا، متمردةٌ على كل التقاليد البالية، حُلمُها الإخراج وأن تغيِّر مَجرى السينما المصرية. كل هذا تَجمَّعَ في شخصيةٍ اسمُها كارمن، دارت بين الأفلام بالماوس، عدلت عن رأيها وقررت أن ترقص، أدارت مؤشرَ السماعات إلى أقصاه وسرعان ما حمل برنامج مشغل الأغاني في الجهاز موسيقى تحت اسم Requiem for a Dream Soundtrack-. أزاحت الكرسي بعيدًا عن المكتب "هيا يا صديقي ستكون رفيقي في الرقص "قالتها وهي تسحب دبدوبًا أبيضَ من على الرف المجاور للمكتب وتدور به حول الغرفة، لم تكن الموسيقى راقصةً بأية حال، أغمضت عينيها وتركت جسدَها ينساب مع الإيقاع، رِتم هادئ في البداية، أخذت تتمايل ببطءٍ وتصاعدت حركتُها مع تصاعد وتيرة الموسيقى فبدت وكأنها تؤدي طقسًا من طقوس إحدى القبائل الهندية، كان ينقصها النار، كانت ترقص بانسيابيةٍ ونعومة تجعلك تقسِمُ أنها وبلا شك مِن أفضل راقصات الباليه، تطاير شَعرها الأسود الناعم معها محاولا عبثًا اللحاقَ بها وانفتَحَ بابُ الغرفةِ فجأةً

لتُطِل سيدةٌ جميلة في أواخر الأربعينات تحاول عبثًا جعل ملامحها جادةً لكنَّ قسماتِ وجهِها تأبى.

- ها! خلَّصتي الطقوس بتاعتك؟

- آه خلاص آهو.

قالتها كارمن بعد أن توقفت عن الرقص وهي تضحك.

- طيب يلا عشان الغدا جاهز.

- ماشي يلا بينا، أنا جُعت فعلاً.

قالتها أثناء غلْقِها للجهاز ونورِ حجرتها وقبْلَ أن تصل والدتُها لطاولة الغذاء كانت كارمن أول الجالسين بعد أن طبعتْ قُبلةً على خد والدِها. جلسوا ثلاثتُهم يتناولون الغذاء.

نظراتٌ متبادَلةٌ بين الأبِ والأُم على جانبَي طاولة الطعام، كلٌّ منهما يرسِل للآخر إشارةً لبدءِ الحوار، والآخر يمتنع حتى استسلمت الأم وقررت أن تبدأ هي:

- إيه يا كارمن.. إيه أخبار السينما؟

- تمااااام، تمااااام.. داخلة مع مجموعة أصحابي كدا في ورشة عمل للأفلام القصيرة، وإن شاء الله هنعمل حاجة حلوة ندخل بيها مسابقة.

- مممممم.

تمتمت الأم وأرسلت نظرةً لوالدها قبل أن تأخذ ملعقةً من طبق الأرز أمامها وتستطرد:

- فيه عريس متقدملك وبصراحة أنا وباباكي شايفينه عريس مناسب جدًا.

- طيب هو أنا اللي هتجوزه ولا انتي وبابا؟ ريحي نفسك يا حاجة أنا مش هتجوز.

- ليه يا بنتي هو انتي مش زي بقية البنات؟ مش بتحلمي تكوِّني أُسرة وتستقري؟

قالتها الأم في لهجة أقرب إلى البكاء.

ردت كارمن في هدوء:

- وبعد ما أستقر وأخلِّف وبعدين؟ هيّه دي الحياة بس بالنسبه ليكو؟ أنا أهم حاجة عندي مستقبلي وحلمي، وبعد كدا أبقى أفكر في الحاجات دي.

هنا فقدت الأم أعصابها وقالت في حِدة:

- يخرب بيت السينما اللى لحست دماغك، انتي عندك ٢٤سنة، هتستني لحد إمتى؟

ثم انتقلت بنظرها إلى والدِها الذي كان يتابع كل ذلك دون أن يتكلم،

وقالت له في حِدة:

- وانتا مش المفروض تعقلها وتنصحها؟ مش بتتكلم ليه؟

رد والدها:

- سيبي كارمن براحتها، هيّا أدرى بمصلحتها، بنتك مش صغيرة.

تهللت أسارير كارمن من الفرح وجرت إلى والدها لتحتضنه من الخلف وتطبع قبلةً على خده وتهلل:

- أيوة كدا يا بابا، انتا دايمًا اللي واقف في صفي ومدلعني.

نظرت لهما الأم بغيظٍ وتركتهما وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، جلست كارمن بجانب والدِها قبلَ أن ينظر لها بحنانٍ ويقول:

- مامتك خايفه عليكي مش أكتر، ونفسها تفرح بيكي، ده انتي بِنتها الوحيدة.

تلقت جملتَه بابتسامة عريضة وقالت:

- حظها بقى إني بنتها الوحيدة دي دماغها متركِّبة شمال.. أنا مش عارفة طالعة لمين كده، انتا كنت كدا وانت صغير يا حاج؟

- لا، وأنا صغير كنت أجن من كدا كمان.

رد والدها ضاحكًا.

- طيب بَصره.. مش طالعة لحد غريب أهو..

قالتها وهي تقوم من مكانها قبل أن تستطرد:

- يلا أنا هدخل أكمل حاجات على الكمبيوتر.

- ماشي يا حبيبتي..

رد والدُها باسمًا وهو يراقبها تبتعد متعجبًا من تركيبة ابنتِه.

هو أيضًا يتمنى أن يراها عروسًا ويطمئِن عليها، ولكنه يعرف ابنته جيدًا وهي ليست من النوع الذي يمكن إجباره على شيء، هو بنفسه حرص على تربيتِها هكذا، أن يكون رأيها هو وليد فِكرِها هي وليس مجموعة آراءٍ خارجية كوَّنتْ لديها قناعةً بشيء ما.. فليس هناك أبشع مِن أن يكون عقلك عبدًا لمن لديه القدرة على التحكم به؛ لذلك كان يساندها في كل آرائها، يوجهها من بعيد.. يتركها تختار حياتَها دون تدخُّل، فليس مِن حقه أن يرسم لها حياتَها كما يريد هو أو كما تريد والدتها، حياتُها مِلكٌ لها وليست ملكيةً عامة للأهل كما يعتقد الكثيرون في مصر، فالبنتُ في مصرَ يعتقد الأهل أنه مِن حقهم تحديد زوجها وعملِها ودراستها وأصحابها، ومتى عليها أن تلبس الحجابَ ومتى عليها أن تخلعه، إذا كانت هناك مناسبة وسيكون مِن اللائق خلعه، متى ومَن عليها أن تتزوج، أين يجب أن تعمل، حتى بعد الزواج لا تنتهي هذه التحكُّمات، ينتقل إرثُ البنتِ من الأهل إلى الزوج ليعيد نفس الأحداث

إلا مَن رَحِمَ ربِّي، كان والدها يعلم ذلك جيدًا، ومع عقلية ابنتِه سيكون من العسير أن تعيش مع رجُلٍ آخرَ تربَّى على نفس التقاليد البالية؛ لذلك تركها تختار شريكَها بنفسها، حتمًا هناك مجنون آخر في هذا العالَم يناسب ابنتَه.

نفضَ عنه أفكارَه قبل أن يَدخل حجرةَ مكتبِ، يُخرِج مِن بين أدراجها كتابًا تناوَبَ على قراءتِه مِن فترة، يقلِّب بين صفحاته محاولًا التذكُّرَ أين توقَّفَ آخِر مرة، حتى وصل لصفحةٍ طويتْ مِن طرفِها.. وأَخذَ يقرأ.

×××

هل استيقظتَ مِن النوم يا عزيزي؟

نغمةٌ قصيرةٌ صدرت من ذلك الهاتف المحمول الملقَى على الأرض بإهمالٍ، كانت تعلن عن استقبال رسالةٍ جديدة لصاحبه النائم على سرير صغير بجانب الهاتف في حجرةٍ كبيرةٍ نسبيًا بالنسبة لِما تحمله من أثاث، سرير صغير لا يتناسب مع حجم الغرفة يربض في الركن، وبجانبه منضدةٌ على سطحها شاشة كمبيوتر وكاميرا صغيرة وكيبورد وماوس، وبعض علب السجائر الفارغة، وصفيحة مياهٍ غازية، وبعض الأوراق المبعثرة وفي أسفلِها يربض صندوقٌ قديم يبدو أنه في يومٍ ما كان صندوقَ كمبيوتر قبل أن يتحول إلى ما يشبه المَجزَمة، وعلى الجانب الآخر من الحجرة أريكةٌ متهالكة سيأبى حتى بائع الروبابيكيا

أن يقتنيها ولو مجانًا، ودولاب صغير للملابس يتوسط الحائط الآخر مفتوح على مصراعيه كمَنْ يستقبل عشيقًا عائدًا من غربته، لوحة سريالية كانت تمثلها جدران الغرفة فيبدو أن اللونَ الأصلي لها كان اللونَ الفستقي العتيق قبل أن يحاول أحدُهم تغييرَه إلى لون سِن الفيل دون احترافيةٍ؛ فظهرت وكأن "دالي" كان يحاول رسْمَ لوحةٍ هنا ولم تكتمل، وكانت أرضيةُ الغرفة لا يوجد بها مكان لتوضَع فيه قَدَمٌ، بقايا علبِ طعامٍ جاهزٍ فارغة، ملابس ملقاةٌ بإهمال، جوارب وأحذية، وفي منتصفٍ هذا أخذ يرقص الهاتف المحمول من أثر الاهتزاز محاولًا الاقترابَ مِن صاحبِه النائم على بطنِه وتاركًا ذراعَه يتدلَّى من السرير لينام على الأرض، وأمام إصرار المتصل وغيبوبةِ النائم نجحَ أخيرا صوتُ الاهتزاز أن يوقِظ خليةً واحدة من خلايا مخِّه كانت كافيةً لأن يفتح نصفَ عينٍ ويمد يدَه المُدلاةَ ليلتقط الهاتفَ ويفتحه، رسالتان و١٦ مكالمة فائتة مِن نفس الشخص، ونقص علامة من علامات شحن الهاتف كل ذلك كان توسلات الهاتف له ليستيقظ.

قرأ الرسالةَ الأولى: "هل استيقظتَ من النوم يا عزيزي"؟ إنجليزية ركيكة تدل على أن صاحبها يفتقر لكل قواعد اللغة والكلمات أيضًا. الرسالة الثانية بنفس الإنجليزية "أنا أنتظرك، لماذا لم تستيقظ بعد"؟

ألقى الهاتفَ جانبَه وتثاءَبَ في كسل، نهضَ ببطءٍ وأخذ يعبر بين الأكوام

المتكدسة على الأرض باحترافيةٍ وكأنه يحفظ أماكنها عن ظهر قلب، عبَرَ بابَ غرفتِه ليصطدم بطُرْقةٍ صغيرة تنتهي بصالة تتوسطها طاولة سُفره قديمة، لم يكن باقي أثاث الشقة يختلف كثيرًا عن أثاث حجرته، بل كان ينافسها في القِدَم، عبرَ الصالة بعينين نصفَي مفتوحتين وببطء، بدا كأنه أحد الموميات العائدات من الموت في فيلم أجنبي.

انتهى بطُرقةٍ صغيرةٍ أخرى تحمل المطبخَ والحمَّام وغرفةً أخرى، دلفَ إلى الحمَّام محاولا إجبارَ نفسِه على الاستيقاظ كليا، فتحَ صنبورَ المياهِ وانتظره أن يبكي ولو عدة قطرات. استجاب الصنبورُ بعد فترة، غسل وجهَه سريعًا وأسنانَه، وتأمل وجهًا لاحت عليه ملامح الكِبَر رغم سِنّه التي تجاوزت الثلاثين بعدة أشهر، تَحسَّسَ ذقنَه وأمسك شَعرةً بأصابعه ليختبر طولَها، لا يذكر متى آخر مرةٍ قام بحلاقتها، ولكن يبدو أن ذلك كان منذ زمن، أخذ يتحسس وجهَه وشَعرَه في مِرآةٍ ربعها مكسور مِن فوق، وعمرها يفوق عمره. "كبرت يا يوسف"! قالها لنفسه وهو يحاول عبثًا أن يجد ما محاه الزمن، أين وسامتُه؟ أين ملامح شبابِه؟ هو ما يزال في الثلاثين لم يهرمْ بعدُ، كان يمتاز بطولِه وشَعرِه الأسود الناعم نسبيًا، عينانِ سوداوانِ كالليل، حاجبان يمتزجان ببعضهما، وأنف دقيق، كثير الضحك، لماذا يشعر بأنه يرى شخصا آخر الآن لا يعرفه؟ لم يكن هكذا من قبل، طيفُ ذكرياتٍ قديمة تهاجمه، يقترب أكثر من المِرآة بحثًا بين ذكرياته عن سبب ما آلَ إليه حاله، ما يزال يذكر

صباه، حبه الأول، تحقيق حلمه في دخول الجامعة التي يحلم بها، تفوقه في الدراسة، تخرجه وموت أُمّه، نعم تخرجه ثم موت أُمّه هنا كانت البداية أو بمعنى أدق النهاية، فهو لم يرَ والده، توفِّي وهو ما يزال يحبو، تولت أُمُّه رعايتَه وتربيتَه فكانت بمثابة كل شيء له حتى خطفها القدر في اليوم التالي من تخرجه، رحلة بحثٍ عن عمل بشهادته استمرت ثلاث سنوات حتى اقتنعَ في النهاية بمهنة كاشير في محل للوجبات السريعة بمرتَّبٍ بالكاد يكفيه بعد دفع الفواتير، عدة محاولات فاشلة للزواج تنتهي دائمًا برفضه بعد فشله في توفير المتطلبات الرئيسية للزواج، عمل ونوم وإنترنت، وسجائر لا بأس إنْ كان بعضها" ملفوفًا"، تلك حياته.. ناقم على البلد بكل ما فيها، يتمنى أن يأتي يومٌ ويخرج منها. انتزعَه من شروده صوتُ جرس الباب، أغلقَ المياهَ في طريقه إلى الباب، نظر من العين السحرية قبل أن يفتح، حسنًا إنه محصِّل الكهرباء، لن يحصل على نقوده اليوم أيضًا! تجاهَلَه وعاد إلى غرفته، ارتمى على كرسي الكمبيوتر وفتحه والتقط الهاتف، خمس مكالمات فائتة أخرى، إنها لا تمل حقًا، فتَحَ برنامج السكايب لتظهر قائمةٌ من الأصدقاء أغلبها فتيات ونساء من أوروبا، ظهَرَ اللونُ الأخضر ليميز مَن هُم متصلون الآن، اختار أيقونةً تحمل اسم "لارا جويفري"، فتَحَها وكتَبَ بإنجليزية سليمة:

- صباح الخير يا حلوتي..

لم تمر ثوانٍ حتى جاء الرد سريعًا:

- صباح الخير يا عزيزي، إنني أنتظرك منذ مدة.

- آسف حبيبتي لقد سهرت في العمل بالأمس.

- انتظرْ حتى أفتح لك الكاميرا..

قالتها ولم تنتظر الرد، سرعان ما ظهر على الشاشة سيدةٌ روسية شقراء في أوائل الخمسينات، مستلقية على السرير على بطنِها وأمامها اللاب توب، ترتدي قميصًا أزرقَ قصيرًا تركتْ أولَ زرٍ به مفتوحًا ليكشف عن صدرٍ ممتلئ، تاركةً شَعرَها ينسدل جانبها.

- هل تراني جيدًا الآن يا عزيزي؟

- نعم يا لولو، جميلة كالعادة، لقد افتقدتكِ كثيرًا.

- ليس أكثر مِني.

كتبَتها مصاحبةً لها قُبلةً عبْرَ الشاشة ثم استطردت:

- ألم تُصلِح كاميرتك بعد؟

- لا يا عزيزتي، ليس بعد..

قالها وهو يتفحص كابل الكاميرا المنزوع، بإمكانه تشغيلها ولكنه لا يريد أن ترى تعبيراتِ وجهِه أثناء حديثِه معها.

- ألا تريد بعض المتعة والمرح؟

قالتها وهي تحرِّك إصبعَها بين صدرها وتنظر له مبتسمة.

- آه بالطبع.. أنا أنتظر هذا.

قالها وفردَ رِجْليه على طرف السرير، وسَحَب علبةَ سجائره، دسَّ سيجارةً بين شفتيه قبل أن يشعلها ببطء وهو يراقب الشاشةَ بمللٍ وفتور تاركًا الروسيةَ تقدم له عرضًا، أخذت لارا تفتح أزرارَ قميصِها ببطء لتكشف عن باقي جسدها؛ صدر ممتلئ يحمله كرش ضخم متدل، خطوط وانبعاجات تملأ الجسدَ لتجعله أشبهَ بخريطة مجسمة ثلاثية الأبعاد. لامست يدُها ببطء ثنايا جسدِها وهي تنظر له برغبةٍ عبْر الشاشة، في حين أخذ يلعب هو في هاتفه دون اكتراث لذلك العرض المبتذل على الشاشة كاتبًا لها من حين لآخر بعض الكلمات المثيرة التي تدل على استمتاعه.. منتظرًا أن ينتهي ذلك العرض، لا يستطيع أن يرفضه فهي يجب أن تظل تفهم أنه يراها جميلةً ومثيرة، ذلك سر تمسكها وعشقِها له، لا أحد ينظر لها في بلدها من تلك الزاوية في تلك السن وسط كل المثيرات صغيرات السن، هو وحدَه أثار تلك النقطةَ بها، لذلك تعشقه وتعتبره فارسَها وفي المقابل يحصل هو على أموالٍ منها كما يريد.. هو بالنسبة لها مغامرةٌ جنسية تفتخر بها بين صديقاتها ومحاوَلةٌ يائسة منها لإثبات أنها ما تزال جميلة ومرغوبة، هي بالنسبة له بنك يقترض منه وقت اللزوم، وتَذكرة سفرٍ للخارج يحلم أن تنتشله

من تلك البلد التي يعيش بها.

- لقد انتهيتُ يا عزيزتي، سأذهب لأخذ حمَّام سريع.. لن أتأخر.

قالها والتقط هاتفه ونظر في الساعة، تشير إلى العاشرة والنصف، حسنًا عشرُ دقائقَ تكفي لحمَّام سريع.. قالها لنفسه وهو يفتح لعبة في الهاتف وأخذ يلعب لحين انتهاء الوقت، في حين انشغلت هي بغلق أزرار قميصها وعلت وجهَها ابتسامةُ رضا، فتحت قائمة الأغاني المفضلة لديها وانتظرت عاشقَها، مرت دقائق قبل أن تفقد صبرَها وتكتب:

- حبيبي يوسف أين أنت؟

انتبَه يوسف للوقت وترك الهاتف ورجع للكتابة.

- نعم يا حبيبتي، آسف للتأخير.. حبيبتي أريد أن أذكِّرك بموضوع سفري لروسيا، ما الجديد فيه؟

- نعم يا عزيزي الموضوع يحتاج بعض الوقت لتدبير عملٍ جيد لك، بالإضافة لتحسين لغتك.

- أنا في المستوى الثاني من أصل خمسة مستويات في اللغة الروسية في المركز الثقافي الروسي.

- جيد جدًا حبيبي، حقيقي أتمنى أن أجلبك إلى هنا ونتزوج ونعيش معا للأبد.

كتبتها وهى تتنهد وتنظر للشاشة بحُبٍ وشوق، في حين كانت اللامبالاة ردَّ فعلِ يوسف وهو يرد:

- نعم يا عزيزتي.. كم أعشقك! لا أطيق صبرًا حتى تكونين بين أحضاني للأبد.

لم يمهلها فرصةً لتواصل تلك الحلقة التركية الرومانسية حتى أكمل كتابته:

- والآن سوف أذهب إلى عملي يا حلوتي.. سأكتب لك على الفايبر كلما سنحت لي الفرصة بذلك.

-حسنًا حبيبي، ألا تريد قول شيء قبل أن تذهب؟

- نعم بالطبع...

أطلق نفيخًا من بين شفتيه يدل على الملل قبل أن يكتب:

- Ya lablue teba

واخذ ينتظر منها الرد المعتاد:

- Ana bahbek anta

- يا رب ارحمني من الشلل ده..

قالها لنفسه وهو يغلِق الكمبيوتر قبل أن ينهض ويستلقي على السرير تاركًا الخيوط والانشقاقات الرفيعة في سقف حجرته تمثِّل له أشكالًا..

تـارةً تمثل له حيوانًا بقرون، وتـارةً يراها عدة وجوه متداخلة، وتارة يراها مجرد خطوط وانشقاقات، اختار خطًا عشوائيًا مِن بينها وقال ليكن هذا خطَّ حياتي لنرى كيف سينتهي، تابَعَ الخط من بدايته فوجده يقطعه عدة مرات خطوط بالعرض لينتهي الخط عند قشرةٍ كبيرة يظهر من أسفلها المحارة، تساءَل عن ماهية تلك القشرة الكبيرة في حياته، وماذا يخبئ له القدر؟ قبل أن ينفض كل ذلك عن رأسه ويقول لنفسه:

- إيه الفراغ اللي أنا وصلتله ده؟

صفَّى ذهنَه من أية أفكار تَعلَقُ به، أغمَض عينيه.. ونام.

×××

(أهلًا ومرحبًا بِكم مشاهدينا الأعزاء في جولتنا الإخبارية المتنوعة للسادسة مساء، قرر الدكتور ياسر شوشة وزير التموين زيادة حصة الفرد من التموين الشهري وزيادة حصته من الخبز وذلك بدايةً من الأسبوع المقبل، كما أعلن مسئولين بمحافِظتَي الإسكندرية والقاهرة عن توافر أكثر من ٢٥٠٠٠ وحدة سكنية للشباب بمقدم خمسة آلاف جنيه والباقي بالتقسيط، كما أعلن.....)

- أيوا كدا.. خللي البلد تنعنش.

قالتها أُم سارة وهي منهمكة في تنظيف المنزل تاركةً تلك المذيعةَ

السمجة على شاشة التلفزيون تلقي عليها وابلًا من الأخبار التي لا تنقطع، لا تسكن شفتاها إلا بعد أن تفرغ كل ما بمعدتها من أخبارٍ، وعليك أنت أن تتقبل كل ذلك القيء بابتسامة، تبتلعه وتهضمه حتى وإن كان من العسير هضمُه.

تابعت أم سارة تنظيفَها حتى وصلت لغرفة سارة، وجدتها جالسةً على مكتبها وظهْرُ كُرسيِّها للباب، أمامها بعض الكتب المفتوحة ومنهمكة في الكتابة..

- سمعتي يا ساره آخر الأخبار؟

سألتْ أُم سارة وهي تفتح البابَ على مصراعيه وتسحب تلك المشّايةَ الصغيرة من أسفلِه استعدادا للتنظيف..

- آه يا ماما سمعت، وانتي بتصدقي الكلام ده برضه؟ يا حاجّه مش كل حاجة تسمعيها تصدقيها..

ردت أمها بسرعة:

- لا أصدقها، كفاية بقى خللي البلد تفوق، هو انتي مش عايزه البلد دي تقوم تاني؟

- لا عايزه أكيد، بس في ظل الحكومة دي والإعلام ده والأفكار اللى في دماغكوا عمرنا ما هنتقدم خطوة.

قالتها ساره وهي تنسحب بكرسيها للخلف وتنهض لتواجه والدتها بهذه الكلمات.

- أهو النت والكُتب اللى انتي قاعدة تقريها على طول دي هما اللى بوظوا دماغك كدا، ربنا يهديكي..

قالتها وهي تنسحب من الغرفة قبل أن تكمل تنظيفها كعقاب لابنتها، وهي تتمتم لنفسها:

- جيل بايظ كله، مفيش حد عِدل فيه.

لم تؤثر كلمات أمها في عزيمتها.. فتابعت الكتابةَ بحماس ولم ترفع يدَها عن القلم إلا لترد على هاتفها المحمول:

- آلو أيوه يا نور عامله إيه؟

- إيه يا بنتي مش باينه ليه بقالك يومين؟

- معلش يا نور أصلي مشغولة في بحث مكتبة الإسكندرية.. واخد معظم الوقت.

- ده عن إيه البحث ده؟

- ده عن تاريخ الثورات الشعبية اللى قامت في بعض الدول وأسباب فشل بعضها ونجاح الأخرى.

- يا دماغك يا شيخة، فُكِّك يا بنتي من الكلام ده، ثورات إيه بس؟

- فُكِّك انتي مِني وروحي شوفي كنتي بتعملي إيه.. يلاّ سلام.

قالتها وأغلقت الخط دون أن تنتظر الرد، وتابعت القراءة والكتابة، تلك طبيعتها وشخصيتها، ثورية حتى النخاع، معارضة لكل ما تقدمه إليها الحكومة، لا تثق بها ولا بأبواقها الإعلامية، تُعتَبَر القائدةَ في شلَّتِها في الكلية؛ كلية الآداب قِسم لغات شرقية.. الكل يستمع لها ولآرائها، لها شعبية كبيرة، مَحط إعجاب الكثير من الشباب وإنْ كانت نجحت في التأثير على أفكار الكثيرين من زملائها إلا أنها لم تستطع التأثير على والدتِها أو والدها.. هذا الجيل المتمسك بآرائه البالية، جيل عاش وتربَّى على الخضوع والخنوع، لم يتعلم كيف يقول لا، معذورون ربما لأنهم رأوا ما يحدث لمن يقول لا أو يفكر حتى في قولها، لكن العار كل العار أن نحيا بذلك الجبن.. كيف سنربى الأبناء على الشجاعة إذا كنا أول مَن يفر إذا شممنا رائحة خطر؟ ومع ذلك ووسط كل هذا الاستسلام والخضوع خرج جيلٌ لا يخاف، لا يعرف سوى كلمة لا، الثورةُ دينُه والحرية وطنه والكرامة مبتغاه، وكانت سارة كذلك، معظم الوقفات الاحتجاجية كانت أول مَن يشارك بها، غير الوقفات الأخرى التي كانت مِن المنظمين لها، وقفات ضد القضاء عند صدور بعض الأحكام التعسفية، وقفات للمطالبة بالإفراج عن بعض زملائها المعتقلين، وقفات ضد زيادة الأسعار.. إلخ.

وما يزال الجيل القديم يصدونك ويمنعوك ويقيدونك بدافع الخوف

عليك تارة، وأن أفكارك خاطئة تارة أخرى، ولن يرضون عنك حتى تتبعهم أو تصبح مثلهم.

الفصل الثالث

٢٥ يوليو ٢٠١٦

أشارت الساعةُ إلى السابعة مساء، عندما كان ثائر يقلب بين العشرات من الصحفِ بين يديه ويدوِّن ملاحظاتِه، كان يدرِكُ تمامًا أنه لا توجد صحيفةٌ حرة مستقلة مئة بالمائة، هناك صحف تعمل تحت الإشراف الكامل للحكومة، وصحف تخدم سياساتِ بعضِ رجال الأعمال، وصحف أُنشئت من الأساس لإسقاط فئات معينة فيكون كل همِّها التشويه والتجريح والأخبار الملفَّقَة.

أخذ يدوِّن كل الملاحظات عمن يكتبون بها، كُتَّاب باعوا أقلامهم لمن يدفع أكثر، كُتَّاب يقدمون القرابين يوميًا لآلهتِهم بين أعمدة الصحف، كُتَّاب تخصصوا في تلفيق أخبارٍ لإثارة الرأي العام ضد شيء معين، أخذت الدهشةُ ثائرَ نتيجةَ بحثِه.. كل هذا الكم من عبيد المال والسلطة يطلِقون على أنفسهم صحفيين، وكل تلك الأخبار التي قد لا يوجد أي أساس لها، وإن كان بعضها صحيحًا فهي تتم إعادة كتابتِها بشكل يخدم مصالح البعض.

أَعد ثائر قائمةً طويلة من الصحف والكُتّاب اللذين برأيه مجرد أداة

لتضليل الرأي العام. يا الله.. غمغَمَ ثائر لنفسه. ستكون حربُه صعبةً، فهو من جهةٍ يريد خلْقَ إعلام حُر لا يخضع لأي جهة، ومن جهة أخرى محاربة الصحف والكُتّاب المنافقين وإظهار حقيقتهم للناس، حُلم والدِه الذي أصبح حُلمَه هو أيضًا.. سيكرِّس حياتَه كلها لتحقيقه ولكن كيف يبدأ؟ أيعيد صحيفةَ المرحوم والده مرة أخرى؟ هو لديه من المال ما يؤهله لذلك ولكن وإن فشل؟ فهو ليس لديه الخبرة ولا الاسم ولا فريق عملٍ بعدُ يشجعه على البدء بذلك، تاهت الأفكار في رأسه، أسند رأسه على طرف الأريكة، وكان يجلس في الأرض وحوله الكثير من الصحف المتناثرة بأرجاء الغرفة، ممسِكًا بقلم ودفتر للملاحظات، أغمَض عينيه وترك القلمَ ينزلق من بين أصابعه، انتشَلَه من أفكاره صوتُ والدتِه تناديه ليأتي يتناول معها الشاي، ذهبَ إليها وكأنه مسحور يمشي ببطء، فعقله يأبى أن يسكن، لاحظته والدته وفهِمت ما به ورأت أنه أنسب وقتٍ لتطرق على الحديد وهو ساخن، ستفرغ كل ما بجعبتها له اليوم، فليشاركها حِملها، جلستْ بجانبه وهى تفكر كيف تبدأ الحوار، تاهت الكلمات من شفتيها، دائمًا ما نكون في أَمَسِّ الحاجة للكلمات، تهرب وتأبى المساعدة، شَعرَ هو بها:

- مالك يا أمي؟ عاوزة تقولي إيه؟

ابتسمت لأنه فهمها وقطع عليها نصف الطريق، فاكر لما كنت بقولك هقولك كل حاجه في وقتها؟ آه يا أمي، رد ثائر وقد أثار الموضوع

اهتمامَه فاعتدل في جلسته وأطلق الإشارةَ الخضراء لكل حواسه وترك أُمّه تقص ما لديها:

- ثواني بس أجيب حاجه وجاية..

قالتها أمه وهي تَخرج من الغرفة مسرعةً متجهة إلى غرفتها، لحظات وظهرت حاملةً صندوقًا كرتونيًا قديمًا وضعته أمامه مشيرةً إليه بألا يفتحه الآن، وبدأت تقص:

- الموضوع ابتدا في الثمانينات، بالظبط سنة ١٩٨٥، مكنتش لسه عرفت مراد الله يرحمه، بس هو حكالي بعد كدا وكمان قريت في مذكراته، عمران جابر شاب مصري بسيط، فلاح شرقاوي معجون بطين الأرض، النيل حافر ملامح مصر كلها في وجهه بنحافته وسمرة بشرته، مرتبط بشدة بوطنه، بيصلي بانتظام، نشأ في أسرة بسيطة يتراوح حدود دخلها بين خط الفقر وخط الستر، اتجند عمران بالخدمة العسكرية، وفى أكتوبر ١٩٨٥ أثناء خدمة عمران على الحدود في سيناء فوجئ بمجموعة من السائحين الإسرائيليين يستعدون لصعود الهضبة في مكان خدمته.. صرخ بهم أن يقفوا وإن هذا ممنوع لكن لا حياة لمن تنادي. ملقاش قدامه غير أنه يفتح عليهم النار ليحمي حدوده ووطنه، دي كانت قضية الرأي العام في الوقت ده، والدك كان لسه صحفي صغير ولكنه شال على كتفه حَملَة مع زملائه تضامنًا مع عمران جابر وحملة أخرى يدين بها موقف الصحف الرسمية في البلاد فالصحف

الرسمية كلها كانت بتشين اللي عمله عمران وتحاول تصور للناس إنه مجنون، تم تقديمه للمحاكمة العسكرية، وحاول والدك بكل جهده عن طريق حملته لتحويله إلى محاكمة مدنية، وقامت المؤتمرات وقدمت الالتماسات ولكن من غير فايدة، عمران برضو اتحاكم عسكريًا بالأشغال الشاقة المؤبدة، وانتقل للسجن الحربي بدلاً من مكافأته وإعطائه وسام لحماية حدود أرضه، والدك راح يجري معه حديث في السجن وينقل صوته للناس، أنا مش فاكره تفاصيل الحديث بالظبط، ثواني أوريهولك..

مدت يدها وفتحت الصندوق الكرتوني لتُخرج منها دفترًا جلديًا أسودَ قديمًا، وفتحته وقلبت بين صفحاته حتى وصلت لصفحة معينةٍ وناولتها لثائر ليقرأها. كان ثائر منصِتًا باهتمامٍ شديد لا يقاطعها؛ فهو انتظرَ عُمرًا ليسمع منها هذا الكلام، أخذ منها الدفترَ بلهفةٍ شديدة قفزت من عينيه وأخذ يقرأ كلمات والده:

" ذهبتُ اليومَ لأقابل البطل عمران في سجنه وأُجري معه حديثًا، كلماته ما تزال ترن في أُذُني عندما سألته: ماذا بك يا عمران؟ رد وقال: أفكّر في أمي. يسكت برهةً ثم يضيف: "يمكن بيتصوروا إني مش بقول الصدق مع إني مش بقول غير الصدق، كل الصدق، لأني طول الوقت بفكر في أمي مصر.. وده مبعث الراحة الوحيد بالنسبة لي". أتصور إنها امرأة طيبة مثل أمي، تعمل وتتعب مثلها وأنا أقول لها:

يا أمي أنا واحد من أبنائك المخلصين، فجسمي من ترابك ودمّي من نيلك. أنا دافعت عن أرضك زي أي جندي مخلص يا أمي العظيمة. ولما سألته تحب تقول إيه لزملائك؟ رد: أنا خايف الحُكم اللي صدر ضدي يكون ليه آثار سلبية على زملائي، يقتل فيهم وطنيتهم لأنه حُكم ضد جنود مصر كلها".

انتهت الصفحةُ على هذا الحوار، فاستعدَّ لقلب الصفحة، أوقفته إشارةُ أُمِّه كأنها تقول له دعني أكمل لك، فأغلَقَ ثائر الدفترَ ورجع ينصت لأمّه التي أكملت بحماس:

- في اليوم التاسع في السجن صحت مصر كلها على خبر انتحار عمران في سجنه، طبعًا محدش صدق الخبر ده، عمران اتقتل، اتقتل عشان رضا إسرائيل، والدك شن حملة ضد الحكومة وخرجت مظاهرات الطلبة في كل حتة تندد بقتل عمران..

ما أثار غضب والدك أكثر هو إني الصحف الثلاث الموالية للنظام تؤكد أنه انتحار وأحضرت أطباء نفسيين ليؤكدوا أن هذا نتيجة طبيعيه للحالة النفسية التي كان فيها، قالوا أنه انتحر، وقال والدك ومَن معه أنه قتل، من بعد تلك الحادثة تم وضع اسم والدك تحت المرصاد، وذاع صيته أيضًا بين المعارضة، فقد كان لا يترك مجالاً إلا وينتقد فيه الحكومة وأعلامها وأبواقها، وذلك ما أعجبني فيه، جرأته اللامحدودة وشجاعته وقوة قلمه. استمر على هذا حتى عام ١٩٩٠ بعد

حادث اغتيال د. نشأت معروف، وقعت تحت يده مستندات تثبت تورط سياسيين كبار في البلد بسبب آراء د. نشأت مثل وقوفه ضد بيع القطاع العام والكثير من المواقف الأخرى. كان وقتها والدك له اسمه وجريدته الخاصة فتولى حملَة ضد بعض الأسماء الكبيرة والتي أدت في النهاية إلى قتله...

كنت وقتها حاسه ان في حاجه هتحصل، حاولت اخليه يهدِّي شويه الكتابه، بس مرضاش، كان عنيد اللّه يرحمه وانت طالع زيه، مين اللى قتله بالظبط؟ معرفش! ابوك الوقت ده فتح النار على اسماء كتير والكل كان ليه مصلحه في دمه، راحت فين المستندات اللى كانت معاه؟ معرفش! ابوك كان كتوم جدًا، ممكن يكونوا اتاخدوا من مكتبه بعد الحادثة، وكان فيه كتاب بيكتب فيه، قال انه هيقلب مصر كلها بيه، دورت عليه ياما معرفش برضه راح فين، كل اللى فاضل المذكرات دى وان كنت مش بعتبرها مذكرات بالمعنى، لان والدك مش كاتب فيها كتير، كاتب فيها ملاحظات من هنا ومن هنا مش مذكرات يومية، والظرف ده...

قالتها وهي تُخرِج ظرفًا من الصندوق وتُناوِله لثائر، تَناوَلَه باهتمامٍ وفتحه مسرعًا وترك أُمّه تكمل:

- الظرف ده والدك كان شايله امانه عند د. وحيد وهو اللى سلَّمه لى بعد وفاة المرحوم بس حاولت افهم ايه اللى مكتوب مفهمتش، كمان

الرسالة دى موجهه ليك انت، انت بس يا ثائر اللى هتفهم ايه اللى فيها وتحل اللغز ده.

فتحَ ثائر الظرفَ مسرعًا ليلتقط ورقةً مطوية كُتِبَ على ظهرها بخط عريض" إلى ثائر". مشاعرُ كثيرةٌ اجتاحته بمجرد أن قرأ اسمَه، فها هو الذي حُرِم مِن رؤية والدِه يجد رسالةً منه موجهةً له خصيصًا. فتَحَها سريعًا وقرأ:

" ها أنا أنتظرك لتحررني مِن قيدي..

ستجدني في قبري آملاً أن تحييني..

لأضيء نورَ العقول وأزيل ما عَلِقَ بهم من غبار..

المجد لسبارتكوس، ستجدني بين كلماتِ الأخيرة..

Xi ".

أخذَ يردد العباراتِ ببطءٍ محاولاً استشفافَ ما خلفَها، ماذا كان يقصد والده من هذه الكلمات؟ عصَرَ ذهنَه، ضاقت حدقتا عينيه، لا يجد سوى غبار، لا يفهم!

التفتَ لوالدته فجأةً وسألها:

- مفيش أي حاجه كانت مع الرساله دي؟

أومأت أمه برأسها لتشير له لنفس الظرف قبل أن تقول:

– انت مشفتش الظرف كويس شكلك!

رجع ثائر للظرف وقلبه فسقط المفتاح الذهبي.. حمله وأخذ يقلبه بين أصابعه فلم يرَ مفتاحًا بهذا الشكل من قبل، التفتَ لوالدته مرةً أخرى وسألها:

– ده مفتاح ايه؟

– معرفش!

ردت والدته قبل أن تكمل:

– أنا جربت بيه كل الدواليب والمكاتب اللى في البيت.. مش بتاع حاجه فيهم.

– طيب ود. وحيد اللى جابهم.. أكيد عارف إيه دول.. صح؟

سأل ثائر وهو يقلب المفتاحَ لعلَّه يجد أي علامة!

– لا، د. وحيد ميعرفش ايه اللى كان في الظرف، حتى بعد كدا مفكرتش اسأله، والدك اختصك انت بالموضوع ده، فمردتش اسال.

– اطمنى يا امي، أنا هكون قد الثقه اللى منحها لى والدى اللّه يرحمه وهعرف ايه المقصود بالرسالة.

سكتَ فجأةً قبل أن يسأل:

– إنتي لسه عندك عنوان د. وحيد؟

- آه لسه عندى، ثوانى اجيبه من النوته القديمة.

قالتها ناهد قبل أن تقوم لتأتي بنوتة متهالكة الأوراق، أخذت تفر بين أوراقها ببطء قبل أن تلتقط منها ورقة صغيرة وتُناوِلها لابنها الذي التقط الورقةَ وقرأ سطورَها قبل أن يدسها بين الرسالة والمفتاح ويضعهم جميعًا في الظرف ويغلقه بإحكام ويدسه في جيبه.

- متقلقيش يا أمى، ان شاء الله هعرف والدى الله يرحمه عاوز يقولى ايه!

قالها وهو ينهض من مكانِه متجهًا إلى غرفته حاملاً وجهًا من الصعب معه أن تعرف إذا كان صاحبه حزينًا أم فرِحًا، تائهًا أم منتبِهًا، حيًا أم ميتًا! ولكن انتظر، هناك قطرات تنساب ببطءٍ على هذا الوجه! هل يبكي؟ ولكن ملامحه لا تقول هذا.

ما إن دخل غرفتَه حتى أَخرَج الظرف ووضعه أمامه على المكتب، وأخذ يبكي، كلمات أمه عن والده، تاريخه، والغدر به بالنهاية، رسالته من العالم الآخر التي بعثها له هو خصيصًا. قرر أنه سيكون الشعلةَ التي تركها والده لتحرق كل مَن سوَّلت له نفسُه بالفساد.

فتَحَ الرسالة وأخذ يقرأ مرةً أخرى، ولكن؛ بفكرٍ مختلف.

× × ×

- لا. . المشهد ده مش المفروض إنه يكون كده.

صاحت كارمن في زملائها وهي تتحرك مِن مكانها لتصل للممثلين لتشرح لهم وجهةَ نظرِها، كان موقع التصوير عبارة عن كافيه كارلوس على الكورنيش بسيدي جابر، تم تأجيره ساعاتٍ قليلةً في الصباح، أصرت إدارة الكافيه على أن يكون التصوير في الصباح الباكر حتى لا يزعجوا روَّاد الكافيه، عبثًا حاولت كارمن أن تقنعهم أنها بحاجة إلى الشمس لخدمة المشهد في الفيلم القصير، لكن دون جدوى، أخذت تعدل من وضع الممثلين وتشرح لهم كيف يجب أن يتكلموا أو يتصرفوا حتى صاح بها أحدُهم:

- ايه يا كارمن.. إنتي صدقتى ان إنتي مخرِجه بجد؟ احنا بنساعدك عشان صاحبتنا وواقفين معاكى.

- يبنى مَنتوا كدا هتوقعونى مش هتقفوا معايا.. بليز استحملونى.. سوري بجد بس كل حاجه لازم تكون مظبوطه عشان الفيلم ده هيدخل مسابقه، بُصي يا يارا...

قالتها وهى تتجه إلى زميلتها وتشرح لها:

- المفروض ان الشخص اللى هيدخل الكافيه وهيقعد لوحده هناك ده واحد بتشوفيه في احلامك على طول، واول مره تشوفيه في الحقيقه قدامك.. لازم يبقى فيه دهشه اكتر من كدا يا يارا. . ده أنا لو قولتلك ان صحبتنا مايا كانت تخينه جدا قبل ما جسمها يبقى كدا هتندهشى

اكتر من كدا.. بصى أنا عاوزاكى تبقى اوفر، اشمعنى دى مش عارفه تبقى اوفر فيها؟

ضحكوا جميعًا بما فيهم يارا قبل أن ترد:

- حاضر. . حاضر هحاول ابقى اوفر شويه. . بس بجد مايا كانت تخينه؟

وبدت على وجهها ملامحُ دهشةٍ حقيقية.

- ستوووب.. هو ده الايموشن اللى أنا عاوزاه.. اثبتى على كدا بقا.

صاحت بها كارمن. . فابتسمتّ يارا وأومأت برأسها ورجعت لمكانها لتكملة المشهد.. انهمكا في التصوير لِما يزيد عن الساعة ووسط كل هذا عيون لا تفارق كارمن، تتابع تطاير شَعرِها مع الحركة بشغف، تُحصي أنفاسَها وتشتاق لتلتقي عيناهما ولو في جزءٍ من الثانية، تسجل وترصد كلماتِها وما تحبه وما تكرهه، إنه العشق هو ما يحركه.. كم يعشقها ولا يرى سواها! إنه متيم بكل ما يتعلق بها، إنه يعلم عنها أكثر من عائلتها ومن أي أقرب صديق لها، يعلم أن أفضل أغنيةٍ لها هي أغنية ممكن لمحمد منير، وأفضل يومٍ في حياتها هو حفلة منير في سموحة في شم النسيم منذ سَنوات قليلةً.. لونها المفضل البينك. من الممكن ألا يعرف ما هو لونه هو المفضل أو أفضل يوم بالنسبة له ولكنه يعرف كل ما يخصها هي بالتأكيد.. تخلى قليلاً عن مجال

التصوير الفوتوغرافي الذي درسه وعشقه ودخل مجال كتابة السيناريو خصيصًا من أجلها.. كان يعلم أن لديه الموهبةَ لكن لم يكن يكترث.. هو فقط اهتم حتى يجد شيئًا مشتركًا يجمعهما دائمًا.. كل ما أراده أن يكون بجانبها القدْرَ الأكبر من الزمن.. وإن كانت كل ساعات الدنيا لا تكفيه ولا تشبعه ولا تروي ظمأه من بحر حبها.. اللعنة على الحب يحركنا كالدُّمَى تجاه مَن نحب.. يمنحنا القوةَ أحيانًا ولكن يسلب الإرادةَ دائمًا.. نعم قد يمنح الحبُ قوةً في العمل أو الدراسة أو أي مجال ولكن أمام هذا سيسلب الإرادة.. كل الإرادة أمام مَن نحب.. فلا صوت يعلو على صوته. . فالأذن لا تسمع إلا إياه، والعين لا ترى إلا هو.. صدَقَ مَن قال إن مِرآةَ الحبِ عمياء.. من يحب لن يرى أي عيوبٍ في من يحب. . ولن يصدق أي شيء سيءٍ عنه.. صمٌّ بُكمٌّ عُميٌّ هُم العاشقون.

يجب أن يصارحها اليوم.. هكذا حدَّث نفسَه أحمد صديق كارمن وعاشقُها سرًا. . سيبوح بكل ما لديه.. سيضع كل الأوراق أمامها ويدعها تختار.. لن يعذب نفسه أكثر من ذلك. . فمِن الصعوبة أن تظل صديقًا فقط لمن تحب. . فما إنْ يدق الحب في قلب الصديق فإما أن تتحول لحبيب أو الفراق، فمِن المستحيل أن تظل صديقًا.. الكل يعلم ذلك ولكن البعض يحب أن يوهِم نفسه..

اقتربَ أحمد من كارمن في بطءٍ حتى أصبح خلفَها مباشرة. . كانت

هي انتهت من التصوير ووقفت تشرح ملاحظتها للممثلين والمصوّر حين جاءها صوت أحمد يناديها من الخلف:

- كارمن.

التفتتْ وراءها فوجدت أحمد يقف متوترًا والقلقُ يعتصر ملامحه..

ردت في سرعةٍ مبتسمةً:

- ايه يا ابو حميد؟ ايه رأيك بقى في شغلى؟ ولا تقولى وودى آلن ولا بتاع. . صح؟

أجابها في ابتسامةٍ حاول أن يدفن فيها توترَه:

- اللّه ينوّر بجد.. إنتي موهوبه يا كارمن فعلا.

- ميرسي، ده من ذوقك.. أنا موهوبة بيكو، انتوا فريق فعلاً هايل.. أنا مِن غيركو ولا حاجة، مجرد فكرة.

ردت في ابتسامةٍ ورقةٍ قضت بهما على ما تبقى منه من قوةٍ وتماسُكٍ فردَّ في سرعة:

- كارمن.. كنت.. كنت.. كنت عاوز اتكلم معاكى في موضوع مهم.. لو فاضيه بعد الشغل!

- ايه يا بنى متلجلج كدا ليه؟ ده شكله موضوع كبير.. لا استنّانى بقى.. الناس تمشى ونقعد هنا في الكافيه شوية.

لم تمضِ دقائق حتى خلت الكافيه من طاقم العمل فأخذ أحمد يبحث بعينيه عن منضدةٍ مناسبة حتى اختار واحدةً في آخر الصف بجانب زجاج الكافيه، حتى يستطيع رؤية البحر حين يحدثها لربما يحتاج أن يشكو له أو يشاركه حزنَه أو فرحَه.. اقتربت كارمن مبتسمةً من الطاولة وجلست أمامه قائلة:

- خلاص خلصت أهو وفضيتلك، ايه بقى الموضوع المهم؟ قلقتنى.

- أنا بحبك.

قالها في سرعةٍ وقوة.. هو نفسُه لا يعلم كيف قالها.. خرجت كبركانٍ كامنٍ مئات السنين وانفجر فجأة.. ذلك حين اعتلت الصدمةُ والدهشة وجهَ كارمن قبل أن تستجمع أفكارها وترد:

- بتحبني! ده من امتى؟ اقصد إزاي !!بتحبنى إزاي.. معلش المفاجأه مخليانى مش عارفة اتكلم!

- أنا بحبك من زمان.. اصلا أنا عايش عشان بحبك.. كل حاجه بعملها عشان ليها علاقة بيكى.. اصلا أنا مكنش في دماغى حوار التأليف ده.. دخلت فيه مخصوص عشان لما لقيتك بتحبى السينما وهتشتغلى فيها.. اتفرجت على افلام كتير نصها ممل والنص التانى مش مفهوم وحبيتها عشان بس إنتي بتحبيها واقدر اتكلم معاكى فيها. . أنا حبيت كل حاجة إنتي بتحبيها عشان بس بحبك.. إنتي مش ممكن ابدا تتوقعى أنا ممكن

اعمل ايه عشانك وعشان اكون جنبك. . أنا عارف إني فاجئتك بالكلام ده ومش عارفه تجمعى افكارك.. ولو محتاجه وقت تفكرى فيه عادى أنا ممكن استنى.. مش هيكون اكتر من اللى استنيته قبل كدا.

أخذت كارمن وقتًا قبل أن ترد في بطء:

– مش عارفه اقولك ايه يا احمد.. احنا طول عمرنا اصحاب.. عمرى ما فكرت فيك من الموضوع ده بصراحه.. أنا مقدرش استغنى عنك. . أنا باخد نصيحتك في كل حاجه حتى لو حاجة تافهة بحب اخد رأيك فيها.. انت بجد من اقرب الاصحاب ليا.. كنت جنبى في كل الاوقات لما كنت محتاجه أي حد جنبى وانت اللى كنت بتشجعنى في كل خطوه بخدها.. أنا من غيرك مكنتش بقيت حاجه اصلا.. لو فعلا عاوز نفضل مع بعض على طول يبقى خلينا اصحاب.. الصداقة عمرها اطول بكتير من الحب.. الصداقة ممكن تدوم للأبد.. لكن الحب عمره قصير حتى وإن كان قوي عمره قصير برضه.. ودايما نهايته يا الفراق يا الجواز والاتنين واحد في نظرى.. الجواز هو اقرار رسمى من الطرفين بإعدام الحب. . صدقنى يا أحمد الحب كدبه بنخلقها احنا عشان نوهم نفسنا بأن في الدنيا دى حاجه حلوه نعيش عشانها.. بنفضل ندور عليه طول حياتنا.. ولما نلاقيه ونفتكر إن احنا خلاص دى بداية سعادتنا بنلاقي بدلها معاناه وألم.. هو ده الحب اللى انت عاوزه؟ عاوزنا يكون مصيرنا الفراق؟

كان أحمد ينصِت في اهتمامٍ لكل كلمة تتفوه بها، ولكن قلبه كان يتحطم مع كل حرفٍ يتساقط من كلماتها.. ولكنه لم يسمح لصرخات قلبه لأن تتحول إلى قطرات في عينيه.. كتَمَ كل ذلك قبل أن يرد:

– يااااه يا كارمن. . ايه كل ده؟ إنتي شايفه الحياه سودا قوى كدا ليه؟ الحب عمره ما كان بالشكل ده.

قفزت الكلماتُ فجأة إلى ذهنه فأخذ يردد:

"عندما يومئ إليكم الحبُّ اتَّبِعوه، حتى لو كانت طرقاتُه وعرةً وشائكة، وإذا ما طواكم بأجنحتِه فاخضعوا له".

ردت كارمن في سرعة:

– ما تكمل الكلام.. انت نسيت انك انت اللى عاطينى الكتاب ده؟ "رغم أن السيفَ الخبيء بين براثنِه قد يَجرحكم فالحب حتى وهو يتوِّجكم قد يصلبكم، حتى وهو ينميكم، فهو يشذبكم".

مرتْ لحظاتٌ ثقيلةٌ قبل أن يجيب أحمد:

– كان نفسى نكون سوا. . بس الحياه مبتديش الواحد كل اللى هو عاوزه.. ممكن في حياه تانيه لينا نكون احباب.. وكفاية عندى انك كنتى اختيارى حتى لو مش من نصيبى.. اشوفك على خير.

قالها وخرَجَ مسرعًا وكلا منهما يعلم أنهما لن يريا بعضهما البعض

مرةً أخرى.

× × ×

- هل استيقظتَ مِن النوم يا عزيزي؟

تليفون يتراقص وسط أكوامٍ مكدسةٍ مِن مخلَّفات الطعام، علب سجائر فارغة، ١٦مكالمة فائتة، صنبور مياه، ذقن طويلة، طيف ذكريات، سكايب، قميص أزرق قصير، عَرْض جنسي مبتذل، وحمَّام سريع مختلَق.

- أنا أتيتُ يا عزيزتي..

أجاب يوسف بإنجليزية سليمة.

- حبيبي لماذا أشعر في كلماتك بالحزن اليوم؟

ردت لارا وقد ارتسَمَتْ على وجهِها ملامحُ الحزن.

ابتسم يوسف في قرارة نفسه قبل أن يجيب:

- عزيزتي لقد حاولتُ أن أخفي هذا الأمرَ عنك حتى لا تحزني.. لكن يبدو أن الأحباء حقا يشعرون ببعضهم دون أن يتكلموا.

- جو حبيبي، أنا نِصفُك الآخر. . أستطيع الشعور بك حتى وإنْ كنتَ في قارةٍ أخرى.. أخبِرني ما بك يا عزيزي.

- لقد حدثت بالأمس كارثةٌ وأنا مهدَّد بدخول السجن، لقد استأجرتُ

سيارةً بالأمس للذهاب بها لفرح صديقي، ومَر اليومُ جميلاً ولكن للأسف أثناء عودتي وقع حادثٌ بالسيارة وحدثت بها تلفياتٌ كثيرة، وصاحبُ المعرض الآن يهددني إذا لم أدفع له ثمن الخسائر التي حدثت له سيسجنني لأن لديه أوراقي وأعطاني مهلة أسبوعين.

– أوووه حبيبي. . كيف حدث هذا؟ وهل أنت سليم؟ ولماذا حاولتَ أن تُخفي عني أمرًا كبيرًا كهذا؟

ردت لارا وهى تكاد أن تبكي..

– أنا سليم الحمد لله اطمئني.. أنا حاولتُ ألا أقول لكِ حتى لا تحزني. . فأنا أريد أن أراكِ دائمًا سعيدة.

– وكيف ستفيد سعادتي إذا دخلتَ أنت السجن؟ قُل لي مِن فضلك كم المبلغ المطلوب منك؟

اتسعت ابتسامةُ يوسفَ عند سماعِه هذا السؤال فقدْ نجحت خطته بنسبة ٩٠٪.

– ٢٠٠٠ دولار يا عزيزتي.

صمتتْ قليلاً لارا قبل أن تجيب:

–حسنًا حبيبي سوف أدبِّر لك هذا المبلغ في وقتٍ قريب. . اطمئن لن تدخل السجنَ أبدًا.

- حقا؟؟ لا أصدِّق نفسي. . لقد ظننتُ أني هالكٌ لا محالة، لارا أنتِ أعظمُ حبيبةٍ في الوجود.

ابتسمتْ لارا بشدةٍ لدى سماعها هذه الكلمات ثم نظرت له بحنان وقالت:

- أنا ملاكُكَ الحارس.. لن يحدث لك مكروهٌ وأنا بجانبك، اطمئن.

- حسنًا عزيزتي يجب أن أذهب الآن إلى العمل.. أراكِ قريبًا.

قالها وأنهَى المكالمةَ سريعًا قبل أن تطالبه بوقتٍ أكثر معها.. ارتدَى ملابسَه سريعًا قبل أن ينزل على الدرَج سريعًا ويقفز في ميكروباص للذهاب إلى عمله، وكل ما يستطيع أن يفكر به طوال الوقت هو ذلك المبلغ وماذا يفعل به، ٢٠٠٠ دولار بما يساوي ١٦ ألف جنيه، أخذ يفكر كيف ينفقها؟ هل سأغيِّر الهاتفَ أم أملأ غرفتي بعلب السجائر؟ أم أم؟ اتسعت دائرةُ أفكاره لِمَا بعد الـ١٦ ألف، مما شعر بالندم لأنه لم يقُل رقمًا أكبر من ذلك.. المرة القادمة يجب أن يطلب أكثر.

سرعان ما وصل لعمله ذلك في محل المأكولات السريعة في شارع سوتير بجوار مجمع الكليات.. مما جعل معظم زبائن المحل من الطلبة بالكليات.. استلم يوسف عملَه بعد أنِ ارتدى قميصَه، وكأي عملٍ اعتاده صاحبه تحركت يدُه في سرعةٍ وإتقانٍ ما بين ماكينة الكاشير والمبالغ التي يحصل عليها ولكن عينه كانت في مكانٍ آخر.. كانت معلقةً على

الشارع تجول بين الطالبات بحثًا عن شخص معين.. شخصٍ يعتبر السببَ الرئيسي لتمَسُّكِه بهذا العمل.. فتاة تجعله ينسى أحزانَه وهمومَه ومشاكله ونفسَه نفسَها بمجرد رؤيتِها.. فتاة لا يعلم اسمَها أو أي شيء عنها سوى أنها تسكن بالقرب من منزله، وكُلّيتها في مجمع الكليات بجوار عملِه.. ولكنَّ نظرةً منها كافية أن تسرق لُبَّه وتطيح بما تبقى له مِن إراده ليقف أمامها عاجزًا صامتًا عاشقًا و..

- يا بني مش لازم تيجى كل يوم.. عادى يعنى في حاجه اسمها أجازه..

قَاطَعَ أفكارَه صوتُ ثقيل من أصحابه بالمحل ليقضي على أمله الذي يعمل من الصباح من أجله.

- خليك في حالك انتا ملكش دعوة. . محدش طلب رأيك..

نهره يوسف محاولاً إسكاتَه، وحتى لا يسمح له بمجال التدخل في شيء يخصه، وخصوصًا هذا الموضوع الذي يعتبره من أكبر أسراره ولكن العاشق عيناه تفضحانه.. تهللت أساريرُه وانتفخت وجنتاه عندما رآها قادمةً من بعيد مع صديقتها.. ازدادت سرعةُ دقاتِ قلبِه مع كل خطوةٍ تقترب بها منه.. اعتدل في وقفتِه وشد قامتَه.. هندَمَ مِن ملابسه.. أراد بدء حديث معها، فكرَ في أي شيء ليقوله.. فرت الكلمات من رأسه، حتى اقتربتْ هي منه وقدَّمت له المال قائلة:

- ٢ بورجر و٢ كبده لو سمحت.

- طيب خليها علينا المرَّه دي.

رد يوسف في ابتسامةٍ ودودة:

- لا ميرسى قوي.

ردت حاملةً ابتسامةً رقيقة أذابت معها ما تبقى من قوة يوسف:

- ااا السندوتشات عايزه عليها كاتشب وكدا؟

- ايه ده هو الكاشير هو اللى بيحط الكاتشب؟

قالتها قبل أن تضحك هي وصديقتُها مما زاد من توتر يوسف، فآثر الصمت أفضَل من التفوه بحماقات والظهور بمظهر الأبلَه أمامها، راقبَها حتى رحلت وهو يلوم نفسَه على عدم مقدرته على فتح موضوعٍ يجذبها إليه بعيدًا عن الكاتشب.. عاهَدَ نفسَه على التفكير طوال الليل في كلامٍ منسق ليقوله لها غدًا.. أو في أي مرةٍ أخرى يراها. . لقد فاته الكثير من الفرص في حياته لكن تلك الفتاة هي مَن تُبقيه على قيد الحياة.. هي وسجائره.. لا يجد أيَّ سببٍ آخر.. عطرها ربما سبب آخر.. لكن حتى عطرها متعلق بحضورها.. إذاً فهي كل ما تبقى له ليستحق الحياة.. كذب كثيرًا محمود درويش حين قال على هذه الأرض ما يستحق الحياة.. ولكنه بالتأكيد صدَقَ هذه المرّة.

جامعة الإسكندرية

سبتمبر ٢٠١٦

لو رأيتَ الحَرمَ الجامعي مِن أعلى في ذلك اليوم لاعتقدتَ أن هناك حفلاً كبيرًا يقام لنجمٍ مشهور بالأسفل، أو أنهم اقتطعوا جزءًا من ميدان التحرير إبّان الثورة ووضعوه داخل الحرم الجامعي من شدة الزحام بالأسفل.. لكن لم يكن كل ذلك الزحام بسبب بداية العام الدراسي. . لا.. لكن بسبب واقعةٍ أخرى حدثت وأشعلت غضبَ الجميع.. وعلى الرغم من أن الواقعةَ حدثت بكلية حقوق لكن الغضب

وصل لجميع الكليات بالجامعة، وأَخـرَج الجميعَ من أماكنهم ليقفوا يدًا واحـدة.. فقدْ قام دكتور بكلية الحقوق بإشهار مسدسِه في وجه الطلبة وتهديده لهم بعد مشادةٍ حدثت بينه وبين الطلبة لمطالبتهم له بدرجات الرأفة التي خدعهم فيها.. فثار غضب الطلبة على ما حدث وتم احتجازُه في دورة المياه رافضين خروجَه.. وعلى هذا الأساس خرج جميع الطلبة من باقي الكليات رافضين مثل هذا التصرف من دكتور جامعي مطالبين بوقفِه عن العمل.. وكان في مقدمتهم فتاةٌ يبدو على ملامحها الرقيقة غضبٌ شديد تقود جماعةً من الشباب والفتيات لمكان الواقعة. . إنها سارة.. تذكرتَها؟ نعم تلك الفتاة الثورية التي لا يخلو يومها من مظاهرةٍ أو وقفة وكأنها خُلِقت لتقول لا فقط.. كلمة نعم لا تعرف طريقًا إلى قاموسها.

وقفت سارة وسط جمعٍ كبير من الطلبة تصيح بأعلى صوتِها:

- إزاي ده يحصل في الجامعة؟ سلاح؟ اُمّال برًّا هيعملوا فينا ايه؟

تابعتْ في حماسٍ دون أن تتوقف:

- احنا لازم نطالب بفتح تحقيق واتخاذ إجراء قانونى ضد الدكتور ده ووقفُه عن العمل الدراسى كمان.

ألهبَ حماسُها وكلماتها الكثيرَ من الشباب مما دفع البعضَ ليقول:

- صح إنتي معاكى حق.. ولو محصلش كدا احنا ممكن نعمل اضراب

عن المحاضرات ونمتنع عن دفع المصاريف الجامعية لحد ميخلصوا الموضوع ده.

أومأت ساره برأسها مكملة:

- معاكوا حق يا جماعة.. حاجه زى دى مينفعش يتسكت عليها.

لم يتحرك الطلبةُ ولم يُفرِجوا عن الدكتور إلا عندما جاء رئيس الجامعة ووعدهم باتخاذ كافة الإجراءات القانونية لِما حدث وأنه سيتابع بنفسه التحقيقَ أولاً بأول، وطالبهم بالإفراج عنه والرجوع إلى محاضراتهم حتى لا يحدث شغبٌ أكثر من ذلك في الجامعة.

وافقت سارة على الكلام وقالت لزملائها:

- فعلا كفاية كدا.. كدا صوتنا وصل ولو محصلش حاجه. . مكانا هنا.

ما إن أنهت جُملتَها حتى فوجئت بيدٍ تسحبها بقوةٍ من وسط الحشد.. ما إنِ التفتت إليها حتى وجدتها صديقتَها نور التي ما تزال تجرها من يدها بعيدًا عن الزحام.. ثم صاحت بها:

- يا بنتى إنتي مش ناويه تبطلى جوّ المظاهرات ده؟ يعنى واحده رقيقة وأمورة زيك مالها ومال البهدلة دى؟

- يا نور يا حبيبتى أنا قلتلك ميت مرة احنا صحاب آه بس ملكيش دعوة باللى أنا بعمله. . كل واحد ليه اهتماماته.. وهو حُر فيها.

- ماشى يا ستى. . أنا غلطانه.. أنا بس خايفة عليكى مرة تاخدى حاجة كدا ولا كدا في وشك.

قالتها ثم أطلقت ضحكةً قصيرة مداعبة، فابتسمت سارة قبل أن تقول:

- لا اطمنى.. صاحبتك جدعة، المهم أنا جعت.. متيجى نتغدى؟

- ماشى.. تعالى نتغدى عند المُعجَب السرى. . ابو عيون جريئه ده.

خفق قلب سارة في عنف عندما ذكرت صديقتُها ذلك المعجَبَ السري.. فالحب والمشاعر أشياءٌ لا تضع لها حسبانًا أو مكانًا.. تجدها أشياءَ تافهةً وأن في الحياةِ ما يستحق النضالَ عن ذلك الذي يسمّى بالحب.. ولكنها في النهاية بَشر.. وكل البشر ابتلوا بما يسمى القلب.. والقلب ليس له سلطان.. داؤه الحب.. ودواؤه الحب. . ووجعه وألمه وفرحته الحب.. حتى هي خفق قلبها ولم تظن أبدًا يومًا أنه بخافق، كل ذلك دار بذهنها وهى متجهةٌ مع صديقتها إلى خارج الجامعة متجهة إلى ذلك المحل أمام الجامعة.. قطعت أفكارَها نور وقالت:

- يا ريت أنا كمان يكون عندى معجب سرى كدا زيك.

- أنا مش عارفه انتي ليه مسمياه معجب سري.. واحد بيبُصلي بإعجاب قدام كل الناس حتى خلاكى إنتي يا عَمّيَه اخدتى بالك.. فين السر في كدا؟

أطلقت نور ضحكة خفيفة قبل أن تجيب:

– لا ما هو سري عشان بيبص بس.. عمره ما اتكلم.. ميكونش أخرس؟؟

قالتها وانفجرتْ ضاحكة.

–لا يا استاذه مش أخرس.. بس هو شكله محترم.. مش بتاع معاكسات والكلام الفاضى ده.

– ايه ده ايه ده.. ؟ إنتي بتدافعى عنه كدا ليه.. ؟ إنتي كمان معجبه بيه ولا ايه؟

خفق قلب سارة في عنفٍ لدى سماعها هذا السؤال.. إنها بداخلها ترفض أن تكون قد خضعت للحب.. ترفض أن يكون هناك شخص أخذ منها شيئًا عِنوةً دون استئذانها. . أن يكون سلبَها شيئًا مِلكها وهي تقف ساكنة.. إنها لا تعرف السكون.. فلماذا كل هذا حدث لها.. ؟ كل مرة تقف أمامه تريد أن تصرخ فيه.. أبعِد عينيك عني.. إنهما تسلباني قوتي.. لا يوجد سببٌ واحد لأنجذبَ إليك.. ولكنها تقف ساكنة..

– ايه يا حاجة روحتى فيييين؟

انتفضت سارة من أفكارها ورجعت للواقع قبل أن تجيب بسرعة:

– إعجاب ايه.. بطلى الكلام الفاضى ده.. أنا هطلب اتنين كبده وانتى عاوزه ايه؟

– اتنين برجر. . بس شاكّه فيكى بردو.

لم تمهلها سارة متابعةَ حديثِها واندفعت إلى الكاشير في المحل وهي تقول:

- اتنين برجر واتنين كبده لو سمحت.

- طب خليها علينا المره دى..

رد الكاشير في ابتسامةٍ ودودة:

- لا ميرسى قوي.

قالتها بابتسامةٍ رقيقة:

- ااا السندوتشات عاوزه عليها كاتشب وكدا؟

- ايه ده هو الكاشير هو اللى بيحط الكاتشب؟

قالتها قبل أن تضحك هي ونـور.. فارتبك الشاب وناولها البون في صمت.. شعرت ساره بأنها أحرجته بطريقة ما.. كانت تريد أن تمازحه ليس أكثر، ولكن يبدو أنه أُحرِجَ منها، رحلت هي ونور ولكن عقلها ظل معلقًا على بوابة المحل يأبى أن يغادره، حتى صاحت بها نور:

- يااااه ده شكله خام أوي.. وتقيل أوي كدا.

- متشغليش بالك بيه.. شوفى موضوع تاني.

قالتها حتى تنهى مع صديقتها موضوعَه.. فهي تريد هي فقط مَن تفكر فيه.. تسأل نفسها لماذا تتصرف هكذا؟ وما هذه الشخصية التي

تراها في نفسها عندما تقف أمامه.. ؟ هل الحب يغير من الشخصيات والطباع؟ هل سيجلب لها هذا الحبُّ السعادةَ أم المَتاعب؟ هل هل هل. . ؟ تركت أفكارَها تسبح، حاولت إيقافَ قلبِها عن الخفقان بهذه الطريقة لكن دون جدوى.

الفصل الرابع

الاستيقاظُ باكرًا، فنجان قهوة، صفاء الذهن. . هو كل ما كان يحتاجه ثائر ليعاود رحلةَ بحثِه في فك طلاسم لغز والدِه؛ فقدِ استغرقَ أكثر من شهر في البحث ما بين الكتب والإنترنت لمحاولة فهْمِ اللغز ولم ينجح، لكنه استيقظ هذه المرةَ وداخله قوةٌ وإصرار على النَجاح.. يجب أين

يكون عند ثقة والده به ولكن مِن أين يبدأ؟ هكذا حدَّثَ نفسَه. يجب أن يغير طريقته في التفكير في الحل، يجب أن يعيد تحليلَ الكلماتِ من منظورٍ مختلف. . سيبدأ من غرفة مكتب والده، غرفة الأسرار، هكذا أطلقت عليها والدته، فبين جدرانِها دارت اجتماعاتٌ كثيرة سرية بين والده وأقرانه، وكل الكتابات أو معظمهما تمت داخلها، إذاً فهي شاهدةٌ على كل شيء، ربما تخبره سرًا بما كان يقصد به والده. هكذا تخيل أو تمنى.. دلفَ إلى غرفة المكتب ووقف في منتصفها يتأملها ببطء مدروس وهو يبحث بعينه في كل أرجائها، كانت غرفةً مستطيلة تحتل ثلاثةَ جدرانٍ منها مكتبة ضخمة بها المئات من الكتب والموسوعات، تعتليها مجوعة من الصور لشخصيات معروفة، أخذ ثائر يتأملها ببطء بعينيه ، صلاح جاهين، تولستوى، ديستوفسكي، أمل دنقل، جبران خليل جبران، ودافنشي. . رآهم كثيرًا قبل ذلك لكن هذه المرة يشعر بداخله وكأنه يرى هذه الصورَ لأول مرة. كان مكتب والدِه يتوسط الغرفة ، أخرَجَ ثائر من جيبه ورقةً مطوية بعناية وفرَدَها ببطء على ظهر المكتب وهو يفكر كيف يبدأ البحث، حسنا، سيبدأ مِن حيث أَمَره والده "المجد لسبارتكوس. . ستجدني بين كلماته الأخيرة".. إذاً فهو سبارتكوس الحل، أخذ يراجع معلوماتِه عنه وما قرأه عنه قبل ذلك، أُعجِب به كثيرًا مما قرأه عنه.. فسبارتكوس هو ذلك العبد الروماني الذي عرَفَ معنى الحرية والعزة، كانت روما قديمًا تقام بها حلباتُ

مصارعةٍ بين العبيد ولا تنتهي إلا بأن يقتل أحدهم الآخر ، كانت تقام لتسلية نبلاء روما، وكان سبارتكوس عبدًا من هؤلاء العبيد وحينما جاء دوره للمصارعة رفض مصارعة الزنجي الذي يواجهه وقال له أنا أؤمن بك وبنفسي ولن أقاتلك، فوقف بين العبيد وصرخ بهم: هل أنتم معي؟ فالتفوا جميعهم حوله ، قاتَلَ سبارتكوس والعبيد الرومانَ واستطاعوا أن يسيطروا على كابوا ، فأرسلتْ روما لهم كتائبَ من الضباط والنبلاء وقتلوا منهم أكثر من ٣٠٠٠ جندى ، فأرسلت روما مرة أخرى ٧٠٠٠ جندي ولكنهم هُزِموا أيضًا، واستطاعوا السيطرةَ على إيطاليا.. واستطاع سبارتكوس خلال أربع سنوات حشدَ جيشٍ ضخم من العبيد، جهزت روما جيشًا مِن تسعين ألف جندي بقيادة قائدٍ محنّكٍ يدعَى كراسوس للقضاء عليهم، بعد معركةٍ دامت يومين مات سبارتكوس، مات وهو يقاتل لآخر نفسٍ به من أجل حريتِه وحريةِ العبيد، مات في هذه المعركة أكثر من مائةِ ألف وتم أسر حوالي ٦٠٠٠ من العبيد، واختاروا منهم عددًا وأقاموا لهم حلباتِ صراعٍ مرة أخرى. سبارتكوس كان وما يزال رمزًا، رمزًا للحرية في كل مكانٍ وزمان، رمزا ضد الحكّام الطغاة، فإذا كان قد مات جسديًا فإنه ما يزال حيًا كفكرةٍ والفكرةُ لا تموت.

استرجَعَ ثائر كل هذه المعلومات في ذهنه وهو يحاول أن يتذكر ماذا كانت آخر كلمات له.. لكن دون جدوى، فتَّشَ بين الكتب لم يجد

شيئًا مفيدًا أو كلمات معينة قالها قبل موته، ماذا كان يقصد والده بـ "ستجدني بين كلماته الأخيرة؟ أي كلماتٍ وماذا سيجد؟ لم يتلقَّ إجابة.. توقف عقلُه عن العمل.. أَخرَج ورقةً أُخرى من جيبه بها عنوان د. وحيد، بالتأكيد هذا أكثر شخصٍ قادر على إفادته في الوقت الحالي، صديق عُمرِ والدِه وكان بصحبته في كل شيء ، من المؤكد أن الأسرار كلها معه، قرر ثائر الذهابَ إليه، نظر في ساعته كانت ما تزال تشير إلى العاشرة صباحا فقرر الذهابَ له مساءً ليضمن وجودَه ، ولكنه لا يطيق صبرا حتى المساء.. صبرًا جميلاً يا ثائر ، همس بهذه الكلمات لنفسه قبل أن يقوم من مكانه ويعاود البحث.

اليوم نفسه مساءً

وقفَ ثائر أسفل تلك البناية التي يشير إليها العنوان مترددًا في الدخول قبل أن يحسم موقفه ويدنو من حارس العقار ويسأله:

- لو سمحت، د. وحيد ساكن هنا؟

- أيوه يا أستاذ، في الدور الرابع.

- ماشي شكرا،

قالها ودلفَ إلى مدخل البناية سريعًا.. تصاعدت ضرباتُ قلبِه مع كل طابق يمر أمامه حتى وصل للطابق الرابع، ازداد توترُه فهو لا يعلم كيف سيقابله صديقُ والدِه، وهل سيجد لديه إجاباتٍ على أسئلته؟ وهل ما

يزال على قيد الحياة أم لن يجده؟ لن يخسر شيئًا من هذه المحاولة على كل حال.. دق الجرسَ وانتظر بعيون قلقة مجيبَه، سرعان ما فتح الباب ليكشف عن فتاة ذات فستان أسودَ قصيرٍ في أوائل العقد الثالث من عمرها ، تسمرتْ نظراتُ ثائر عليها وبعد أن وصلت ضربات قلبِه للحد الأقصى من السرعة توقفت.. وتوقف عقلُه، بل توقف الزمن كله بالنسبة له عند هذا اللحظة، شَعرٌ أسود ناعمٌ منساب كنهر من الحرير، عينانِ سوداوان ضيقتان نسبيًا لا تطلقان سوى سهامٍ لتصيبا كل ما حولهما، حتى ثائر لم يسلم من سهامهما ، نظرة واحدةً كافية لتخبرك عن قوة شخصية صاحبتها ، شفتانِ ممتلئتان زادتا من صاحبتهما إثارةً ويخبرانك أن الاقترابَ منهما هو الجحيم بعينه، فلن تقوى على حرارتهما، لون خمري وهبَ صاحبتَه جمالا وجاذبية، حَسَنَة صغيرة طُبِعت على رقبتها اضافت اليها الوهية بالجمال لتنافس بها كل الهة الجمال القدماء.. أصابت نظراتُ ثائر الفتاةَ بالتوتر مما جعلها تحسم هي هذا الموقفَ وتقطع هذا الصمت:

- ايوه، مين حضرتك؟

أفاق ثائر من غيبوبته ولكنه نسي ما جاء به هنا وماذا كان يريد، لم تمضِ سوى ثوانٍ معدودة ولكنه شعر أن الزمن توقف عند هذه الثواني.. لملم أفكاره وتنحنح قليلا قبل أن يقول:

- اااأنا ثائر.. لو. . لو سمحتى.. دكتور وحيد موجود؟

- اه موجود.. اتفضل ادخل استناه لحد ما اقولو.

دلفَ ثائر إلى الداخل يتبع الفتاةَ التي قادته حتى غرفة الصالون لينتظر بها ونظرُه لا يفارقها.. رجع قلبُه للخفقان بقوة ولكن ليس من التوتر. . إنه من الحب، هو نفسه لا يصدق كيف يمكن للإنسان أن يقع في براثن الحب في ثانيةٍ واحدة.. ؟

قطع أفكارَه قدومُ رجُلٍ يبدو عليه الوقار، ذو شعرٍ أسودَ يتخلله بعض الشيب.. ينظر له بتحفزٍ وقلق مِن خلف منظاره الطبي الصغير، في حين رسم ثائر ابتسامةً هادئة لإزالة التوتر من الأجواء وقفز من مكانه ليلقي عليه التحيةَ قائلا:

- د. وحيد. . إزي حضرتك. . أنا ثائر مراد ابن صديقك.

تهللت أسارير الفرح في قلب وحيد وفي عينيه.. فقدْ صحَّ ظنُّه عندما سمع اسم ثائر.. بادره بحضن دافىء قائلا وهو يربت على كتفه:

- ثائر. . ازيك يا ابني عامل ايه؟. . يااه لو تعرف أنا فرحان اد ايه دلوقتى.

- ازيك يا دكتور.. أنا كنت اعرف حضرتك من الصور بس.. ومن كلام والدتى عنك.

- تعالى.. اقعد اقعد،

جلسا معًا على أريكة الصالون قبل أن يقول د. وحيد:

- والدتك عاملة ايه؟.. أنا عارف إني قصرت معاكو في السؤال.. بس فعلا الدنيا مشاغل.

- لا ولا يهمك ، والدتى بخير الحمد للّه.. اكيد طبعا حضرتك متفاجيء إني جتلك النهارده.

رد وحيد بابتسامة : اه.. بس احلى مفاجأة.. أنا سعيد جدا إني شفتك واللّه.

أجابه ثائر بابتسامةٍ مماثلة: ربنا يخليك.. وانا كمان واللّه.. في الحقيقة أنا كنت جايلك النهارده عشان عارف ان حضرتك كنت اقرب صديق لوالدى وتعرف عنه كل حاجه.

أومأ دكتور وحيد برأسه متفهما قبل أن يقول: ايوا فعلا. . وانا ووالدك اللّه يرحمه كنا اصدقاء العمر. . اتفضل يا ابنى اسأل اللى انت عاوزه.

قبل أن يرد ثائر قاطعتهما طرقاتٌ خفيفة على باب الغرفة فنظر ثائر ليصطدم بعينيه بتلك الفتاة مرة أخرى تقف حاملةً صينية ذهبية بها كأسان من العصير وتستأذن في الدخول.. فقال د. وحيد:

- تعالي يا كارمن ادخلى.. تعالى اعرفك على ابن صديق عمرى.

دخلت كارمن في بطء ووضعت الصينيةَ على المنضدة قبل أن تقف

مبتسمة في رقة.. رجع التوتر لثائر مع ظهور كارمن لكن د. وحيد لم يمهله الفرصةَ للسقوط في غيبوبته مرة أخرى.. فهب واقفًا ليعرفهما على بعض قائلا:

- دى كارمن بنتى.. دلوعة العيلة كلها.. شغالة في مجال الإخراج. .

ثم وجَّهَ حديثَه لكارمن: وده بقى ثائر مراد ابن صديق عمرى اللّٰه يرحمه. . كلمتكو عليه قبل كدا،

مدت يدها كارمن مصاحبة ابتسامة رقيقة لثائر قائلة: اهلا وسهلا.. فرصه سعيدة يا ثائر..

فأجابها ثائر وهو يقف ليتلقى تلك اليدَ الرقيقة قائلاً: أنا اسعد يا افندم،

ضحكت كارمن ضحكة رقيقة قائلة : ايه افندم دى.. شايفنى لابسه طربوش!؟.. لا لا شيل الرسميات دى. مدام والدك ووالدى اصدقاء.. اعتبر احنا كمان اصدقاء ،

تفاجأ ثائر من جرأتها.. في حياته لم يقابل فتاةً مثلها. . فرد بابتسامة: اه طبعا طبعا.. يا كارمن..

فردت كارمن: ايوا كدا.. اللّٰه ينور. . اسيبكوا أنا بقى دلوقتى عشان تكملوا كلامكم.

قالتها وهي تنسحب خارج الغرفة، ونَظرُ ثائر معلقٌ بها حتى اختفت. فبادره دكتور وحيد بالحديث قائلا: اتفضل يا ثائر اسأل براحتك وان شاء اللّه اقدر افيدك.

رجع ثائر للواقع فتذكر ما جاء من أجله فأخرج ورقةً صغيرة من جيبه وناولها للدكتور وحيد قبل أن يقول:

- اقرا الورقه دى كدا يا دكتور،

تناول وحيد الورقةَ وأخذ يقرؤها ببطء ومع كل كلمة يزداد انعقاد حاجبيه قبل أن ينظر لثائر ويقول: ايه ده يا ثائر؟ مش فاهم حاجه.

فرد ثائر في سرعة:

- الورقه دي كانت في الظرف اللى حضرتك سلمته لأمى زمان.. ده عباره عن لغز.. والدى كتبه ليا.. عشان اوصل لمكان حاجه هو خباها زمان.. وانا جايلك عشان تساعدنى افهم ايه اللى مكتوب.. عشان أنا حاولت ابحث وافهم بس موصلتش لحاجه.

نظر دكتور وحيد مرة أخرى للورقة بإمعان قبل أن يقول: والدك اللّه يرحمه كان بير اسرار. . شوف أنا كنت اقرب واحد ليه بس معظم الوقت مكنتش اعرف ايه اللى في دماغه أو مخبى ايه.. وياما نصحته وقولتله بلاش السكه اللى إنتي ماشى فيها دى.. بس هو كان شجاع وكان فاتح النار على نُص البلد تقريبًا.

تنهد د. وحيد قبل أن يقول بزفرة حارة: كان رجل صعب تلاقى منه نسخه تانيه ولن يتكرر.

شَعَر ثائر بالزهو والفخر من الحديث عن والده قبل أن يقول : اللّه يرحمه أبي كل يوم يزداد اعجابى به اكثر ، طيب يا دكتور الكلمات اللى مكتوبة مش بتفكرك بأى حاجة؟!.

رد وحيد: والدك اللّه يرحمه كان عاشق للألغاز.. هي حياته نفسها كانت لغز كبير.. بس الكلمات دى أنا حاسس إني هعرف معناها بس سيبنى افكر فيها شوية.

قالها وهو يذهب للغرفة الأخرى ويحضر قلمًا وورقة ويدوِّن بها اللغز ويناوِل الورقة الأصلية لثائر قبل أن يقول: سيبنى يومين هدوّر في الورق القديم واسترجع اللى فات كله وان شاء اللّه هوصل لحل.

أخذ ثائر منه الورقةَ ودسها في جيبه قائلًا : ان شاء اللّه نوصل لحاجه،

رد وحيد : قولى يا ثائر انت شغال ايه صح؟

رد ثائر: أنا خريج اعلام ولسه متخرج.. دخلت اعلام مخصوص عشان اكون زى والدى واكمل حلمه لحد ما اصبح حلمى أنا دلوقتى. . لسه مش شغال.. بفكر افتح جريده صغيرة كدا خاصه.

رد وحيد: لا تفتح جريده على طول كدا هيبقى صعب عليك. . انت لسه معملتش علاقات في الوسط ده ومعندكش خبرة كفاية.. أنا رأيى

تشتغل في جريدة الاول لحد متكبر ويبقى ليك اسمك وبعد كدا تعمل اللى انت عاوزه.

أجابه ثائر: حضرتك عارف ان معظم الصحف كلها تحت ايد ناس معينة في البلد وشغالين بتوجهات معينة وانا عمرى ما هقبل اكون اداة في ايد حد واضلل الناس بغير الحقيقه.

أجابه وحيد في تفهم: ايوا فاهم كل ده وانا مش هقبلك كدا برضو.. بس في جريدة مِلك صديق ليا ودى تقدر تكتب فيها براحتك.. روح هناك وانا هوصى عليك يسيبوك تكتب براحتك ولو معجبكش الوضع هناك تقدر تسيبها. . ثوانى اجبلك الكارت.

قالها وقام مسرعًا ليأتي له بكارت صغير أسود.. مد يدَه به قائلا : ده كارت مدير مكتب الجريده هنا وانا هكلم صديقى في القاهره وهو هيخلص الموضوع.

تناوَلَه ثائر، نظَر فيه سريعًا قبل أن يدسه في جيبه وهو يقول: شكرًا يا دكتور وحيد.. هروحلهم ان شاء الله.. استاذن أنا بقى وبجد فرصه سعيدة إني شفتك النهاردة.

قام وحيد ليربت على كتفه قائلًا: أنا اللى فرحان جدا بالزياره دى وان شاء الله هكلمك قريب بخصوص موضوعنا. . اه صحيح هات رقمك.

دّوَّنَه له ثائر في سرعةٍ قبل أن يستقل المصعدَ هابطًا وهو يفكر.. ما

الذي جاء به اليوم هنا؟ لقد جاء ليحصل على أسئلةٍ تريح قلبه. . ولكنه ترك قلبَه بأكمله بالأعلى.. ولا يعلم هل سيسترده مرة أخرى أم فقَدَه للأبد في منزل دكتور وحيد بين عينَي ابنتِه.. كارمن!!

× × ×

ثلاثُ سياراتٍ فارهات تتوقف في آنٍ واحد أمام مدخل قصرٍ مَهيب يقع على أطراف القاهرة.. محاطٍ بجنودٍ وكلابِ حراسةٍ بجميع أنحائه.. أسوارٌ شاهقةٌ تخفي معظمَ ملامحِ القصر.. وما إن توقفت السيارات حتى ترجَّل رجالٌ ببزاتٍ سوداءَ منها في سرعةٍ يفتحون البابَ للشخصيات الجالسة بالخلف.. ترجَّل ثلاثةُ رجالٍ في بطءٍ من السيارت وهُم ينظرون لبعضهم في صمت.. كان أولهم أصلع الرأس.. طويل القامة ذا ملامحَ جادة ونظرات عدوانية. . يكاد يقفز الشررُ من عينيه. . يطلقون عليه "سامح نصار"، والاسم الدارج بين رجاله المعلّم، لواء شرطة متقاعد ومن أكبر تجار المخدرات والسلاح بالوطن العربي بأكمله. . لديه جيشٌ جرار كامل من البلطجية.. تحت رهن إشارته.. لديه نفوذ قوي بالداخلية والقضاء.. جميع الصفقات المشبوهة في البلد تتم بواسطته.. الرجل الثاني اتسم بملامحَ بسيطةٍ وذو شعرٍ أشيبَ ناعم. . متوسط الطول. . يتسم بالنحافة بالرغم من وجود بروزٍ ضخم في بطنه، كرش لا يناسب جسمه، مما أعطاه منظرًا مضحكًا. . سيجارُه لا يفارقه.. إنه رجل الأعمال الشهير مدحت السمان. . لديه

أكبر مصانع حديد وأسمنت بالشرق الأوسط.. والمستورِد الوحيد لخام البترول للدولة.. وشريك في كبرى شركات الاتصالات وعددٍ لا يُحصَى من المصانع الأخرى.. مما استحق لقب الحوت عن جدارة.

. أما الرجل الثالث فكان طويلاً أيضًا.. ذا شعرٍ قصير وذقن خفيفة ومنظار طبي بدون إطار.. وتبدو عليه ملامح الوقار.. يدعى إبراهيم شاكر، يمتلك معظم الصحف والمجلات ومشارك في البعض الآخر بنِسَب. يمتلك أكثر من خمسين قناة فضائية متنوعة بين الأخبار والرياضة والأفلام. ... . إلخ.. قادر على إثارة الرأي العام في دقائقَ وإسكاتِه مرة أخرى في الدقائق التي تليها.. لديه جيش من الإعلاميين ينفذون ما يأمرهم به فقط... لقِّبَ بامبراطور الإعلام.. دخل ثلاثتهم القصرَ دون أن ينبسوا ببنت شفة أو حتى يلقون التحية.. وقفوا في بهو القصر، أرضيته من أجود أنواع الرخام من البرازيل، والسقف مرصع بالذهب تزين جدرانَه لوحاتٌ فنية لأشهر الرسامين من ضمنهم لوحة زهرة الخشخاش، بعض الشائعات يتداولها أفراد أمن وحراسة القصر أن تلك هي اللوحة الاصلية التي تم سرقتها من متحف محمود خليل بالقاهرة في ٢٠١٠ لأنها وصلت القصر في ٢٠١١ وتقدر قيمتها بـ ٥٥ مليون دولار.. شائعات لا يوجد إثبات لصحتها.. دلفَ الرجال الثلاثة إلى مصعدٍ واسع لم تزدحم لوحة أرقامه سوى برقمين.. ضغط أحد الحراس زر الطابق الثاني.. وبالرغم من أنه الطابق الثاني إلا أنه كان

عبارة عن غرَف كثيرة تبدأ جميعها برقم ٤، سار ثلاثتهم حتى وصلوا لغرفة تحمل رقم (٤٠٧) ، فتح الحارس البابَ عن طريق تمرير كارت أمام شاشة معلقة بجانب الباب، وما إن دخل الرجال الثلاثة حتى تم غلق الباب مرة أخرى دون أن يدخل أحد غيرهم ، كانت غرفة مستطيلة متسعة خالية من الأثاث. . يتوسط الغرفةَ منضدةٌ تأخذ الشكل المثلثي وسطُحها ما هو إلا شاشة إلكترونية تعمل باللمس متصلة بحواسيبَ خارجية، وبكل طرف من أطرافها الثلاثة كرسي ضخم وثير. اتخذ كلٌّ منهم مقعدَه في صمت تام.. ولم تمضِ ثوانٍ حتى تولى الاصلع ذو النظرات الحادة سامح نصار المبادرةَ وقال بهدوء شديد يبعث على الملل:

- طبعا انتوا عارفين احنا مجتمعين ليه النهاردة !!

نظر الرجُلانِ الآخران لبعضهما البعض قليلاً قبل أن يجيب رجل الأعمال مدحت السمان:

- اه عارفين. . اكيد طبعا عشان اللى بيحصل في البلد،

قالها ثم نظر للرجل الثالث امبراطور الإعلام إبراهيم شاكر الذي أكد كلامه بقوله:

- ايوا فعلا.. اكيد عشان اللى بيحصل في البلد.. الوقفات الاحتجاجية والمطالب الفئوية الكثيرة.. والشارع كله بيغلى.

بدأ سامح في فقدِ هدوئه وسادت العصبيةُ على نبرته وهو يقول:

- وده عارفين معناه ايه يا ساده؟؟.. معناه ثورة تانية يا بهوات. . ثورة تانية،

قالها وقام من مقعده وأخذ يدور حولهم قبل أن يتابع:

- واحنا مش حِمل ثورة تانية.. كفاية اللى حصل الثورة اللى فاتت ، انتوا ناسيين ان حنا كنا هنروح في داهية لولا اننا قدرنا نحكم ايدينا ونموّت الثورة دى؟؟!!

رد مدحت السمان : أنا مصانع عندى كتير وقفت بسبب اللى بيحصل ومستثمرين اجانب كتير بعتولى يعبروا عن قلقهم من اللى بيحصل في البلد.

ورد ابراهيم شاكر قائلا : الناس بدأت تفهم وبدأت تطالب بحقها.

وهنا وصلت عصبية سامح نصار إلى ذروتها وهو يقول له:

- بدأت تفهم؟ ما هو ده دورك يا استاذ. . ودى غلطتك.. انت مش الاعلام كله تحت ايدك؟؟ ايه مش عارف تحركهم؟؟ اجى احركهم انا؟؟

ثم ضرب بيده بقوة على المنضدة وهو يصيح: احنا مش عاوزين حد يفهم.. مش عاوزين حد يطالب بحقه.. دول ملهمش حقوق اساسا..

احنا اصحاب البلد دى وهنفضل اصحابها؟؟ فاهم يا شاكر؟؟.. أنا مش عارفين انتوا جايبين برود الاعصاب ده منين؟؟ هو أنا لوحدى اللى خايف على مصالحنا؟؟ احنا كتلة واحدة يا محترمين لو حصل حاجة هنقع كلنا.. فاهمين؟؟ . كلنا.

وهنا رد ابراهيم شاكر في هدوء:

- اهدا كدا يا سامح واقعد. . متقلقش أنا مجهز خطة هنطبقها الايام اللى جاية. . أنا مش حكاية مش عارف احركهم.. بس أنا كنت مستنى الاسبوع اللى جاى عشان ابتدى انفذ.

هدأ سامح قليلاً واستعاد بعضًا من هدوئه قبل أن يرجع لمقعده ، نظر مدحت بريب إلى إبراهيم وسأله:

- خطة ايه دى يا شاكر؟. .

وهنا نهض شاكر من مكانه وضغط زرًا جانبيًا في المنضدة.. فسطع سطح المنضدة وظهرت على سطحه شاشة افتتاحية تشبه تلك التي في نظام الويندوز.. ضغط شاكر بعض الازرار في سرعة حتى وصل لحسابه ففتح ملفًا وعرضَ ما بداخله ، فظهرت على الحائط خلفهم كلمة واحدة تحتل الحائط الا وهي (virus) فوقف إبراهيم شاكر ينظر لهما مبتسما.. فرد مدحت السمان في تساؤل:

- مش فاهمين؟ ايه ده يعنى؟

رد شاكر : انتوا عارفين طبعا ان احنا كشعب جبان جدا خصوصا قدام الامراض، فيروس وهمى هينتشر الايام اللى جايه وسط الناس، اعداد ضحايا وهمية بتقع كل يوم من الفيروس ده، هنشكل وفد ونسفره أي بلد افريقية من اللى مليانه فيروسات وهندعى ان الفيروس ده جه مع الوفد ده ، مع طبعا حمله توعية في الصحف وعدم التواجد في اماكن مزدحمة ، مع حظر أي تجمعات لعدم انتشار الفيروس، مع شوية حاجات تانية كدا مش هتخلى البلد الايام اللى جايه وراها حاجه غير الموضوع ده.

انعقد حاجبا سامح في شدة دون أن يتكلم في حين هتف مدحت السمان:

- طيب وهيبقى فيروس ايه؟ لازم يكون فيروس ليه وجود، عشان منظمة الصحة متتكرش الكلام ده، ولازم يبقى ليه مواصفات معينه برضو.

أردف شاكر:

- ممممم.. ممكن الايبولا ، مش هتفرق أي فيروس هيخلى الناس تترعب.

رد مدحت:

- شوفت انك جاهل؟ الايبولا مبيتنقلش بالهوا ولا اماكن زحمه ولا كدا، ده بيتنقل عن طريق سوائل الجسم، دم، عرق، أو لعاب، لازم لما تكدب الكدبه تتقنها.

رد شاكر بإبتسامة عريضة:

- اول مره اعرف انك مثقف يا مدحت، بس صدقنى مش هتفرق، وعموما خليها يا سيدى فيروس مجهول، احنا لسه مش عارفين مواصفاته ولا بيتنقل عن طريق ايه، ده هيدى الفرصه للأشاعات اكتر والهرى والفتى ، الشعب بنفسه اللى هيروج ليه عن طريق الاشاعات اللى هتسمعها، وعقبال منظمة الصحة ما تبحث و تدور وتستكشف هيكون كل حاجه اتظبطت.

نظر سامح مبتسمًا وقال:

- انت مصيبة. . ايه الدماغ دى. . أنا موافق،

ثم نظر كلاهما إلى مدحت الذي قال:

- أنا كمان موافق.. بس أنا ايه المطلوب منى في الليله دى؟

فأجابه شاكر: انت مطلوب منك حاجه تانية.. رفع الاسعار.. رفع اسعار خام البترول والحديد والاسمنت.. خللى كل حاجه تغلى في البلد. . خللى الناس تغرق اكتر في مشاكلها.. خللى لقمة العيش تبقى اكبر همهم.. كتر ساعات العمل في مصانعك.. بدل التمانيه خليهم يشتغلوا اتناشر ساعة في اليوم.. سرِّب اشاعه على انك ناوى تسرّحهم هتلاقيهم رجعوا زى الكلاب.

وقف مدحت وبعينيه نظرةُ نصرٍ وهو يقول : موافق.

في الغرفة رقم ٤٠٧..

فى الغرفة رقم ٤٠٧ تتحدد مصائر بشر..

فى الغرفة رقم ٤٠٧ تُنتَهك الإنسانية ويُغتَصَب الضمير..

فى الغرفة رقم ٤٠٧ آلاف الأُسَر تُشرَّد وتجوع..

فى الغرفة رقم ٤٠٧ يتم التمثيل بجثة الوعي..

للبقاء دائمًا في أوبريت الليلة الكبيرة..

وليس لديك الحرية في اختيار شخصيتك به..

أنا وُلِدتُ لأجد نفسي غصبًا عني في شخصية الأراجوز!

×××

عشرُ زجاجات بيرة ومثلهم علَب سجائر وحشيش، وعلبة لف السجائر هُما رفاق يوسف هذه الليلة، مع شعوره باقتراب قدوم المال قرر أن ينفق معظم ما معه... متعة لا تضاهَى يشعر بها يوسف عند الاستلقاء على ظهره والانشغال في مراقبة دخان سيجارته الصاعد ليرسم به أشكالاً.. معظم لياليه يقضيها هكذا بين السجائر والبيرة.. يفكر ما الهدف من حياته.. ؟ وإلى متى سيستمر الوضع هكذا... ؟ أريد أن أرحل.. هكذا يحدِّث نفسه دائمًا، يريد أن يرحل بعيدًا.. إلى أقصى بؤرة على وجه الأرض.. بل لا يريد الأرض ذاتها.. يريد العيش في أي

كوكب آخر. . أي كوكب آخر مهما كانت معيشته فبالتأكيد هي أجمل وأرحم من المعيشة على هذا الكوكب الآسن. . لا يريد بشرًا.. فالبشر آفة يصعب التعامل معها.. لا يدري كيف سيكون شكل يأجوج ومأجوج، ولا ماذا سيفعلون في الأرض؟ ولكنه على يقين بأنهم لو خرجوا في زماننا هذا ، لأصبحوا طلبةً وتلاميذَ على أيدي البشر وربما اتخذوا من البشر آلهةً لهم.. صدقَتِ الملائكةُ حين قالت.. أتجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، قالها ثم عاتَبَ نفسَه على ذِكره للقرآن وهو يحمل بيده البيره. . فنفض جميع أفكاره وترك نفسه تسبح بين دخان حرق السجائر الملفوفة حتى لم يعد يشعر بما حوله ونام، أو بمعنى أدق. .. فقد الوعي.

في الصباح استيقظ على صوت هاتفه الذي سطعت شاشته باسم لارا. ... ليس اليوم، قالها وهو يغلق الهاتف تمامًا وينهض للذهاب إلى العمل، فاليوم قرر أن يدعو الفتاةَ للخروج. . لن يستسلم للحرج أمامها. .. سيحكِم قبضتَه على قلبِه ليمنعه من أن يدق بعنف أمامها.. إذا كان في هذا العالم سببٌ ليعيش فيه فهو هذه الفتاة.. ولن يعطى للزمان فرصة أن يقهره هذه المرة.. سيحاول ولو مرة واحدة أن يجعل الأمور تسير.. كما يريد هو.

سرعان ما وصل لمكان عملِه.. انهمك به لكن عقله وقلبه كانا في عالَمٍ آخر.. فلا العقل توقف عن السؤال متى ستأتي ولا القلب هدأت ضرباته..

لاح مِن بعيدٍ طيفُها. . حمل النسيمُ عطرَها إليه فتلفت بعينيه يبحث بين الوجوه حتى رآها.. كانت قادمةً كالعادة هي وصديقتها.. مرتديةً ثوبًا جميلاً يجمع بين الأبيض والاسود.. متوسطة الطول ، بيضاء ذات عينين بُنيّتين ، ملامحها تنم عن الجمال الأنثوي الرقيق الذي يعطيك انطباعًا عنها مخالفًا لشخصيتها.. تقدمت إليه ببطء هي وصديقتها.. لم تطلب منه أوردر هذه المرة. . فقط وقفت صامتةً مبتسمة حتى ترك هو مكانَه واقترب منها حتى أصبح لا يفصله عنها سوى نصف متر. . فابتعدتْ عنها صديقتها قليلاً ووقفت تراقبهما من بعيد. لحظات.. دقائق.. لا أحد منهما يعلم كم مَر من الوقت وهما ينظران لبعضهما في صمت وإنْ كان عجز اللسان عن البوح بما داخلهما فقدْ فاضت العيون بكلٍ أسرارهما. . يقولون إنه حينما تلتقى العيون تنتقل صورة منسوخة إلى الرائي ثم إلى العقل، وإذا لم يستطع العقل تفسيرَ هذه الصورة تتولى الأحاسيس تفسيرَها.. وهنا توقف العقل عاجزًا عن تفسير مئات الصور التي حصل عليها في ثانيةٍ واحدة فتلقَّت المشاعر تلك الصور. . فهمتها وترجمتها وأعادتها للعقل مرة أخرى.. فأصابت كلا الجسميْن رجفةٌ قوية. . فتنبَّه يوسف إلى الموقف. . مد يدَه قائلًا:

- ازيك... أنا يوسف.

تلقت يدَه في خجلٍ واضح وهي تقول:

- أنا سارة. . ازيك.

- الحمد للّه. . انـا.. أنا معنديش كلام كتير اقوله.. غير إني عاوز اتعرف عليكى بجد.

نظرت بعينيها لأسفل دون أن تجيب.. فتابع هو: لو ينفع نقعد في أي مكان هادى نتكلم شوية؟!

تجرأت قليلاً وعادت تنظر إليه قبل أن تجيب : بُص هو مش هينفع دلوقتى. . بس لو انت فاضى بُكره ممكن نتقابل.

أجاب بسرعة: اه طبعا فاضى.. هاخد اجازه عادى.. هقابلك فين؟

ردت سارة: هو في حفلة بُكره لعلي طالباب في مركز الثقافة الجديد اللى قريب مننا ، أنا رايحه دلوقتى احجز تذكرة ليا ولنور صاحبتى.. هعمل حسابك معانا.

رد في سرعة : أوي اوى.. استناكى فين والساعة كام؟

- استنانى عند نفق كليوباترا الساعة ٧.

- خلاص تمام ماشى ٧ بالظبط هكون واقف ان شاء اللّه.

- تمام.. أنا همشى بقى عشان متأخرش..

قالتها ساره وهي تبتسم في رقة.. فأجاب يوسف مادًا يده: ماشى.. مع السلامة يا سارة.. هستناكى.

ردت تحيتَه في سرعة وهي تعدو مبتعدةً حتى وصلت لصديقتها وأخذتها

من يدها وسارتا مبتعدتين يراقبهما يوسف الذي ظل طويلاً واقفًا مكانه لا يصدق ما حدث لتوه، ولا يصدق كيف قال هذا الكلام.. رجع لعمله وانهمك به، وعقلُه متوقف على ميعاد الغد ولسان حاله يقول.. على طالباب مين؟ ومركز ثقافة ايه؟ هيّه فهمت الموضوع غلط ولا ايه؟ ثم يمنِّى نفسه بأنه سيكون معها وهذا هو المهم.. لا يهم إن كانا في الجحيم ذاتِه.. فهي عالمه الآخر الذي حلم به.. عيناها وحدهما تأخذانه خارج هذا العالم.. تسبحان به إلى أبعد ما كان يحلم بأن يذهب. . لا يريد سجائر. . لا يريد بيرة. . لا يريد لارا وأموالها.. يريد فقط أن يأتي الغد.

اليوم التالى ٧ مساءً

عند نفق كليوباترا

وقف يوسف منتظرًا في قلق وهو يجول بعينيه باحثًا عن سارة.. لم تمضِ لحظات حتى ظهرت هي ونور صديقتها.. لم ينتظر أن تأتيا إليه فأسرع هو بالذهاب إليهما حتى اقترب منهما، قالت سارة: مواعيدك مظبوطة يا يوسف.

رد يوسف في سرعة: أنا مستنى الميعاد ده من امبارح.. مش هكدب لو قولت إني مستنى الميعاد ده بقالى عُمر.

تطرق الخجل لوجه سارة فقالت: طيب يلا بينا عشان نلحق الحفلة.. هيا قريبه من هنا.. خمس دقايق مشي.

أجابها يوسف : ماشى يلا بينا.. بس هو سؤال صغير.. مين على طالباب ده اللى رايحين له حفلة؟

قالها وهُم يسيرون ثلاثتهم معًا.

ردت سارة: معقول متعرفهوش؟ على طالباب ده صوت الثورة على كل ما هو مألوف.. تعالى بس هيعجبك.

رد يوسف: مش مهم حتى لو معجبنيش.. المهم ان احنا هنكون سوا.

مع كل كلمة يقولها يوسف يزداد خجل سارة فتحاول أن تغير منحنى الكلام أو توجّه حديثها إلى صديقتها التي أصرت أن تحضرها معها حتى لا تكون وحدها في هذا الموقف.. فعادت توجّه كلامها ليوسف:

- كلمنى عن نفسك بقى. . يعنى.. أنا معرفش حاجه عنك.. غير ان اسمك يوسف وساكن قريب منى.

سكت يوسف قليلاً مفكرًا قبل أن يجيب: ممم. . مش عارف. . أنا معنديش الكتير اقوله. . يعنى.. أنا خلصت كلية وملقتش شغل بشهادتى. . وده الطبيعى.. شغال في المحل اللى إنتي بتشوفينى فيه.. ابويا وامى متوفيين.. عايش لوحدى في الشارع اللى وراكى.. بس كدا.

ردت سارة: ربنا يرحمهم.. هل هو ده السبب اللى بيخلينى ألاحظ نظره حزن على طول في عينيك؟

أجاب يوسف : ممكن عشان كدا وممكن عشان معنديش اصلا حاجه افرح عشانها.

نظرت له في حنان وشفقة قبل أن تقول: لا ان شاء اللّه يبقى في سعاده وفرح..

ثم انتبهت أنهما وصلا للمكان فقالت: هو ده المكان يلا بينا.

وأخرجت التذاكر وسلمتها للحارس على المدخل ودخلوا ثلاثتهم قاعةً كبيرة مزدحمة منتهيةً بمنصة كبيرة جلست عليها فِرقةٌ مكوّنة من لاعب درامز ولاعبين جيتار ولاعب أورج. . ما هي إلا لحظات حتى تعالَى صوتٌ في الخلف يقول:

" إذا كنت عدمًا.. فالعدم غير معدوم

العدم هو مقابل الوجود

كالظلام في مواجهة النور

وكالمِرآة في مواجهة الشمس"

ما إن بدأت هذه الكلمات حتى صاح جميع مَن في القاعة بالصفير والتصفيق.. حتى سارة أخذت تصفق بشدة فشاركها يوسف دون أن يدري لِما يصفقون.. ظهر فجأة شابٌ أسمر عل المسرح يحمل مايك، فازداد التصفيق فحياهم بيده قبل أن يتابع:

" أنا الغضب اللى معرفتش احكم عليه

انا الجهل اللى بفتى وبتنطط بيه

انا اللى متأمريك متفزلك متلعبك مربوط عينه

انا المفكر الحيوان واللى كنت في يوم فكل شيء كان

انا حكومة رؤوس الأموال يا بنى

انا المعوق أنا اللى صوتى عالى

انا اللى بطلب الديموقرطيه وحقى دايما بجيبه بدراعى

انا تزاوج السلطه والمال

انا المشروع المزيف وإهدار المال العام

انا العبد والقتيل العبد والفقير

انا ثروة البلد والبورصة طاولة القمار

طب أنا العيل اللى شاايل السلاح

وانا الطلقه اللى بنحرر المباح

وانا اكياس الدم الفاسدة اللي بتعّدِي السليم

يا عم أنا الشهاده والتعلييم اللى مهما تعلى بيه ميأكلش عيش

انا عينيهم على جيبك وانا جيبك المعدوم

انا النافووره اللى بتنقط

وانا السقف المخروم

انا الدرج المفتوح ، العُملة الصعبه والجنيه

انا ابن الابتزاز الاعلامى والرقاابه على الجنس والسماح به

انا التدين الشكلي وتكييف الشريعه عليه

انا كُرْه الغير لمجرد عدم العلم به

افهم !! أنا السكَّر اللى مهما تزوود فيه ميحليش

انا الحجر اللى مهما تبني بيه ميكفيش

انا البحر اللى مهما تشرب منه مايرويش

انا هدوء الدوشه أنا سكوون الزحمه

انا كائن تافه، الشهوه اللى سايقانى

انا اول نقطة مطر وآخر بوء الشاى

انا الجاهل نايب البرلمان

قولى إزاي ، أنا نعل الجزمه اللى اتهرى من غباوة النظام

انا الديك اللى باض أنا الطور اللى اتحلب

القانون اللى اتركن والدستور اللى انكتب

انا القاضى والمحامى المتهم والقتيل

انا الشحات العدمان الفقران الشمتان

انا الزاهد الكادح العابر السارح أنا اللامبالاة مادة الدنيا والحياه

انا الاسبتداد حب التملك والهوى

انا ماضييك المريض مستقبلك اللى اتهان

انا اللى اتهاانت عشان اعيش يوم ما يتقالك مفيش

انا العامل اللى جااع

انا الضمير أنا العيون أنا المقيد المغلول

انا الشعب أنا حوراى النظام

انا الرأسماليه ، أنا الشيوعى اللى جيوبه متدفيه

يسقط الاستقرار أنا الحوار والسلام

انا وهم رأى المثل أنا منظومة الكبت والاعدام

انا الواو في أمن الدوله حرف الجيم في التعتيم

وانا الداال على النور برغم جهلى بيه

انا العدم أنا الفضاء

انا أهم وأفضل فصل في الرواية

انا بداية النهايه أنا الشباك اللى اتقفل

انا نكته بايخه بيتضحك عليها بملل

انا قانون الطوارئ وثوانى حظر التجوال

إلى آخر القصيدة.. "

صوته.. طريقته في الإلقاء.. تفاعُل الجمهور معه.. كل جملةٍ قالها.. طارت مباشرة إلى رأس يوسف كالطير الجارح المنقضِّ على فريسته.. فار دمُه من قوة الكلمات.. تحولت تلك الكلمات في رأسه غضبًا عنه إلى قطرات في عينيه فمشى بعيدًا إلى خارج المكان.. لحقت به ساره في قلق وجدته يمسح عينيه ويحاول إخفاءَ دموعِه. . اقتربت منه والتساؤل يعلو وجهَها، وقبل أن تنطق بادرها يوسف وقال:

- كنتى بتسألينى مين انا؟؟

أشار بيده إلى مدخل القاعة وقال:

- أنا كل ده!

ورحل مبتعدًا.

الفصل الخامس

٨ أكتوبر ٢٠١٦

تعالت الأصواتُ الخارجةُ من الصب الخاص بجهاز الكمبيوتر بطريقة تكفي لإيقاظ فيلٍ في غيبوبة.. وسطعت الشاشةُ بمشهدٍ من فيلم العرَّاب؛ من أفضل الأفلام في تاريخ السينما العالمية.. حين أخذت كارمن تدوِّن ملاحظاتِها.. طريقتها في التعلم واكتساب الخبرة.. يومًا ما ستصنع أفلامًا تنافس بها العالم.. يومًا ما ستقف على السجادة الحمراء تتلقى جائزتَها في تواضع. . لا لن يبقى للتواضع مكانٌ حينَها.. ستتلقاها في كبرياء ولسانُ حالِها يقول.. هل صدقتموني الآن أيها الأغبياء؟ رسالة توجهها لكل مَن لم يؤمن بها وبموهبتِها.

بعد أن فرغت من تدويناتها ألقت بها جانبًا. . فتحت ملفات الأغاني،

ذهبت إلى الفولدر المفضل لها واختارت:

Lana del ray….. born to die

ومع بدءِ المزيكا أخذت تهز رأسَها مع الإيقاع.. الموسيقى والسينما وجهانِ لعُملةٍ واحدة ألا وهى عُملة الفن.. تسربت إلى حسابها على الفيس بوك وهى ما تزال ترقص برأسها مع إيقاع الأغنية.. وما إن فتحت حتى وجدت عشرات الطلبات كالعادة.. الجحيم ينتظر بفارغ الصبر هذه الفئة من الناس الذين يرسلون طلباتِ الصداقة بداعٍ ودون داع. . يكفى أنها بنت. . إنه سببٌ كافٍ من وجهة نظر أي شاب حتى يطلب صداقتها.. أخذت تقلب بين الأسماء المرسلة لعلها تجد صديقا قديما أو أحدا تعرفه لتقبلَه. . ابتسمت حينما وقعت عيناها على هذا الاسم.. ثائر مراد.. قبِلتْ الطلب وأخذت تتجول في صفحتها.. الصفحة الرئيسية للفيس تشعرنى دائما إني أقف في وسط الشارع والناس كلهم يمرون علىَّ ليلقوا كلمة.. فأجد العاشقَ المعذب، وأجد المتدين المتشدد.. وأجد فارغي العقول.. وأجد المثقفين.. ومَن يظنون أنفسهم مثقفين.. الكل يمر عليك.. جذَبَ انتباهَ كارمن جملةٌ كتبها أحدهم يقول فيها: الخِتان رمز عفةِ البنت.

أثارت هذه الجملة حفيظتَها فردت عليه في سرعة:

– عفة دي تبقى خالتك.

ثم أزالته من قائمة أصدقائها وهى تسب في المجتمع وما أنجبه من عقليات.. سرعان ما استردت هدوءَها قبل أن يقفز اسم ثائر على الشاشة قائلا على شريط المحادثة:

- ازيك؟

رفعت حاجبيها وابتسمت قبل أن ترد:

- ده اسميه اعجاب بقى ولا ايه؟

جاءها الرد سريعا:

- إنتي مش قولتى ان احنا بقينا اصحاب؟

اتسعت ابتسامتُها وهى تقول:

- صح.. بس عرفت اكونتى إزاي.. ؟ أنا مش عطيتهولك المرة اللى فاتت.

- اه فعلا. . بس بصراحة أنا راهنت نفسى.

- إزاي يعنى مش فاهمة؟

- يعنى. . أنا راهنت نفسى ان واحده في شخصيتك اللى شفتها.. قلت اكيد هتبقى كاتبة اسمها الحقيقي على الفيس. . اكيد مش هيبقى اميرة الاحزان ولا الدلعوة كذا ولا الامورة كذا.. دى حاجة...

- هههههههه.. وايه تاني يا حدق؟

- برضو قولت واحدة اكيد مش هتبقى حطه صورة مستعارة مثلا لسكارليت جوهانسون ولا بينيلوب كروز ولا صورة ادوارد وبيلا في فيلم توايلايت. . قلت اكيد هتبقى حطه صورتك الشخصية أو على الاقل حاجة بتعبر عنك.

- مممممم..

أُعجِبت بتحليله رغما عنها. . قبل أن تسأله:

- واحده في شخصيتى.. مالها بقى شخصيتى؟

- مشوفتش زيها قبل كدا..

أجابها ثائر.

- إزاي؟

كانت تعلم أنها جميلة.. كلمات الإطراء تنالها طوال اليوم.. لكن أن يبدأ أحد حديثَه عنها بشخصيتها فذلك ما لم تسمعه من قبل فتركته يكتب كل ما بداخله.

- يعنى شخصية جريئة أوى.. متفتحة.. وحاسس ان فيكى سنّة جنون.. وواضح برضو انك مثقفة.

- طيب ما هو دى احلى حاجة.. انك تكون مجنون.. الجنون هو سر الحياه الخفى للسعادة.

- مممم والسر ده عرفتيه لوحدك؟

- لا.. السينما علمتهولى. . أنا حياتى كلها متعلقه بالسينما.. والمزيكا برضو. . وانت بقى ايه؟

مرت لحظاتٌ قبل أن يأتيها الرد:

- أنا حلم لسه مكملش.

أزاحت خصلاتٍ من شَعرها وهي تفكر بما تجيبه، فلم تجد سوى أن تجيبه :

- مش فاهمة!

- متشغليش بالك.. بعدين تفهمى.. في حاجه كنت عاوز اطلبها منك.

ابتسمت كارمن في ثقةٍ وهي تجيب:

- عاوز تقابلنى.. صح؟

رد ثائر في دهشة:

- فعلا كنت هقولك كدا.

- خلاص هستناك يوم الاثنين في الفود كورت بتاع سان ستيفانو تعزمنى على حاجة.

أجابها ثائر سريعًا:

- من عينيا. . خلاص هستناكى يوم الاثنين ان شاء الله الساعة ٦ .

- خلاص اشطه. . يلا سلام بقى.

- سلام.

أغلقت حسابَها وبالرغم من ذلك وجدت تلك الابتسامةَ ما تزال تعلو شفتيها.. لا تعلم لماذا تشعر بغبطةٍ.. ليست المرة الأولى التي يطلبها أحد للخروج أو يشعر بانجذاب لها. . لكن منذ أن تلاقت أعينهما أول مرة وهي تذكر تلك الرعشةَ التي سرت في جسدها كرعشة صقيعٍ في شتاء ديسمبر.. لا تريد أن تعترف بأن القلب لا يعمل بصورته الطبيعية منذ رؤيته. . لا تريد حبًا.. أو بالأدق... لا تريد حبًا جديدًا. . يكفى ما ذاقته من مرارة كأس حبها القديم. .. ما زالت ولسوف تزال تذكر كثيرًا تلك المأساة التي كانت تسمى يومًا حبًا. . تذكُرُ وداعَها لحبيبها بتلك الكلمات حين قالت:

- شئتَ أم أبيت.... أنا ماضيك...

فلتَعِش أنت بين جدران ماضٍ هدمتَه بيدك..

ودعني لأنجو بما تبقى لي..

فالقلوبُ لم تَعُد..

لم تعُد تبقي على العهد!

٩ اكتوبر ٢٠١٦

تصاعدت أعمدةُ الدخان المختلطة من حرق أحجار المعسل والسجائر في تلك الكافيه بميامي. . تراصت الكراسي والطاولات لتحتل منتصفَ الشارع ولا عزاء للمارة ولا السيارات. . حتى أنه أحيانا يصل الأمر إلى أن يطلق صاحب السيارة تنبيهًا لك حتى تزيح الكرسى قليلا ليستطيع المرور.. وسط هذا جلسَ ثائر وصديقُه إسلام يدخنان أحجار الشيشة معا قبل أن يسأل إسلام:

- يعنى هيّه البت حلوة أوي كدا؟؟ عشان تجيبك من قفاك كدا على طول.

سحَبَ ثائر نَفَسًا طويلا قبل أن يطلقه في الهواء مكوِّنا دخانًا كثيفا تعجز معه عن رؤيه ما وراءه وهو يقول:

- هيا حلوه بس؟.. دى قمر.. والمشكة مش انها حلوة.. ما هو الحلوين كتير.. البنت دى فيها حاجه غريبه. . حاجه تشدك ليها على طول اول ما تشوفها.

رفع إسلام حاجبيه وهو يقول:

- للدرجه دى؟

أجابه ثائر: واكتر من كدا.. عارف القصيده بتاعت أصابكَ عشقٌ أَم

رُميتَ بأسهمِ؟.. أنا بقى حصلى الاتنين. . لا وكمان قلبى اتعلق منى هناك ومش عارف ارجعه.

رد إسلام : لاااا. . ده انت حالتك صعبة اوى.

- أوي اوى يا صديقى.. المهم سيبك منى أنا. . سمعت الاخبار امبارح والنهارده؟

- اه ، قصدك على موضوع الفيروس اللى انتشر ده والناس اللى ماتت؟

رد ثائر: المشكلة محدش عارف ده فيروس ايه ولا بيتنقل عن طريق ايه.

- أنا من امبارح لحد النهارده سمعت كمية كلام ، في ناس بتقول انه بيتنقل عن طريق الكلاب، عشان اول واحد مات بيه كان عنده كلب ومات بعد ملعب مع الكلب بتاعه على طول ، وفى ناس بتقول انه ممكن عن طريق الهوا كدا يتنقل عادى، وناس بتقول وناس بتقول و و و ، سمعت بلاوى من امبارح لحد النهارده، ومحدش عارف الحقيقة فين.

- مممممم، مش عارف مش مستريح ليه للموضوع ده.

-يعنى ايه؟

- يعنى مش مقتنع، اشمعنى دلوقتى والبلد في حالة فوران، التوقيت نفسه مريب اللى يظهر فيه حاجات زى دى، تحس ان الموضوع مش

طبيعى.

- بصراحه مش فاهم قصدك ايه؟

- عارف ، وهو ده اللى أنا اقصده، كلنا محتاجين نفهم، البلد دى محتاجة ان الشعب يفهم.. قبل ما ياكل ويشرب ويشتغل.. يفهم الاول.

رد إسلام متسائلاً : يفهم ايه... ؟ مش فاهم!

سكت قليلا ثائر.. قبل أن ينظر له مبتسمًا ويقول:

- بكره تفهم.. متشغلش بالك. . اسيبك أنا بقى دلوقتى عشان عندى ميعاد مع مدير مكتب جريدة.

- ماشى يا معلم.. يلا ربنا يوفقك.. ابقى قولى عملت ايه. . وحاسب على الحاجه كلها قبل ما تمشى. . أنا لسه هقعد اكمل الحجر ده.

رد ثائر مبتسمًا: ماشى يا عم.. عندى أنا الليله دى.. يلا سلام.

ما هي إلا دقائقُ معدودةٌ حتى وصل لسيارته. . نظر في ساعته.. أشارت إلى السادسة مساءً. . ليس أمامه متسع من الوقت على الميعاد. . قاد سيارته في سرعة حتى وصل للعنوان المدوَّن في منطقة وابور المياه. . شارع هادئ تمر السيارات به على استحياء خوفًا من تعكير ذلك الهدوء الذي يمتاز به. . وقف ثائر بعيدا قليلا عن البناية التي بها الجريدة يراقب الموقف.. مسحَ المكانَ بعينيه بحثا عن مكان يركن به حتى وجد

مكانًا خاليا.. لم يتحرك.. لم يخدعه ذلك الطُّعم. . لن يكون لقمةً سائغة.. المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وهو لدغ من نفس الجحر فوق ال ٥٠٠ مره، أين يقع تلك المرة، ترى أين هو؟ كيف لم يظهر حتى الآن؟ أخذت تلك الأسئلة تعصف بعقله، هل يعقل هذا؟ هل مِن الممكن ألا يكون موجودا؟؟ جاءه الرد سريعا من عقله بالنفى ليؤكد له أنه موجود ، إنه في كل مكان.. لا يوجد بقعة في مصر لا يتواجد بها. . حتما يختبئ.. يتربص من بعيد، فقط ينتظر اللحظةَ المناسبة للانقضاض.. كلا كلا.. سيتبع ما يقوله قلبه.. إنه ليس موجودًا هنا..

اقترب ثائر ببطء من المكان الخالي وأخذ يركن في حذر وهو يتلفت يمينًا ويسارًا و. ..

تعالَى. تعالَى يا باشا. . اكسر كله يمين، كله يمين يا باشا.. ايوه اعدل بقى كله. . ايوااا بس كدا..

لقد ظهر..

لا تعلم مِن أين يظهر وكيف يختفي. . ولكنه يظهر دائما بمجرد أن يركن احدهم.. ذلك الشخص الذي يحتل كل رصيفٍ في مصر. . كل شوارع مصر اتخذها ملكيةً خاصة. . إذا كنتَ ذاهبا للدكتور أو العمل أو السوبر ماركت ولم يكن هناك جراج للركن به فستجبَر على الركن عند هؤلاء. . هو لا مهنةً له. . فقط يجلس على الرصيف يدخن ويشرب

شايا وينتظر أي كان جاء ليركن ليطلب بكل بجاحة مالا ومِن الوارد جدا أن يكون قد وضع تسعيرة محددة. . أسفل كل بناية يتواجد وإذا لم يكن موجودا فالبواب يقوم بدوره. . وإذا رفض احدهم الدفع. . ليس من البعيد عند عودته أن يجد إطارا فارغا من الهواء أو خربشةً لطيفة تزيّن جسم العربية وابتسامةً بلهاء على وجهه ينظر بها من بعيد.

ترجَّلَ ثائر من السيارة وناوَله ورقة فئة الخمس جنيهات، الذي طبقها في سرعة وهو يرجوه بألا يتغيب لأن هذا مكان شخصٍ آخر.. دلفَ إلى بناية الجريدة في سرعة ولاحت على اليمين في المدخل لوحةٌ ذهبيه مكتوب بها جريدة المستقل-الدور الثانى. . ما هي إلا دقائق معدودة حتى وجد ثائر نفسه في مكتب مدير الجريده أحمد عبد الفتاح. . رجُل في منتصف الأربعينات، أبيض البشرة، ممتلئ قليلا ، شَعر أسود خفيف من الأمام ، يمتاز بصوت جهوري وابتسامة ودودة.. قابله في ترحابٍ شديد لم يشعر ثائر معه بالتصنع.. جلس أمامه يتناول كأسًا من العصير قبل أن يقول أحمد:

- ان شاء الله تكون مبسوط معانا يا ثائر.. انت متوصى عليك من صاحب الجريده نفسه. . أنا هنا مدير مكتب الجريده في الإسكندرية. . مش عاوزك تحس إني مديرك في الشغل.. لا. . عاوزك تعتبرنى اخوك الكبير أو والدك قبل ما اكون مديرك. . احنا هنا أُسره واحده.. ممكن نختلف في آراء ونتفق في آراء تانيه.. بس في النهاية كلنا بنشتغل سوا

عشان نكبّر اسم الجريده.

رد ثائر متفهما:

- أنا فاهم طبعا. . ان شاء اللّه اكون عند حسن ظنكو. . أنا استريحت لحضرتك بصراحه اول ما شوفتك يا استاذ أحمد.

رجع أحمد بظهره إلى كرسيه الضخم وأطلق ضحكة قصيرة قبل أن يقول:

- ربنا يخليك يا ابنى ، أنا واثق انك هتكون مكسب لينا ان شاء اللّه.

- شكرا يا استاذ أحمد.. اقدر استلم الشغل من امتى؟

- انت استلمته خلاص بمجرد ما دخلت هنا.. بُص يا ابنى انت هتقعد معانا هنا شهر تدريب.. وبعد كدا هتسافر القاهره ان شاء اللّه في المقر الرئيسى. . طبعا انت عرفت بموضوع الفيروس ده.

رد ثائر في أسى: اه طبعا.

أكمل أحمد : طيب دلوقتى عاوزك تتطلع على تقارير زملائك المراسلين بالتفصيل وتكتب مقال عن الموضوع ده.. عشان احنا هنخصص ملحق صغير في عدد بعد بكره عن الموضوع ده بس.. فشوف انت عاوز تقول في الموضوع ده واكتبه.

لمعت عينا ثائر وهو يقول:

– حاضر يا أستاذ أحمد. . بُكرَه ان شاء الله هيكون المقال جاهز عندك. . التقارير دى اقدر اشوفها منين؟

– اه وانت طالع عدِّي على منّه السكرتيرة وهى هتساعدك في كل حاجه.

– شكرا يا افندم.

– ماشى يا ثائر يلا قوم شوف شغلك بقى.

قالها ثم قام ليصافحه. . قام ثائر وعقله يدور به مئات الاسئلة التي سوف تتيح له الفرصه ليواجه بها العالم قريبا ، اخيرا سيكتب، وعلى العالم أن يقرأ.

×××

"هذا وقد أمَر رئيس الوزراء بتشكيل لجنةٍ سريعة للكشف عن ماهية الفيروس وكيفية مواجهته و طرق الحد من انتشاره و. ... "

– طفيتي التلفزيون ليه يا سارة؟

قالتها أم سارة وهي جالسةٌ على الأريكة تحاول التقاطَ الريموت من ابنتِها. . إلا أن سارة ألقته بعيدا وهي تقول:

– كده. . قرفت خلاص.. الكلام ده لو حقيقي يبقى مصيبه كبيره وفشل كبير للدولة، ولو مش حقيقي يبقى المصيبه اكبر ، يبقى دى حاجه يلهوا بيها الناس ويعموهم عن اللى بيحصل، إنتي عارفه كام

واحد من صحابى في الكلية اختفوا من فتره ومحدش عارف ليهم طريق؟ عارفه كام واحد بيموت يوميا في اقسام الشرطه من التعذيب؟ عارفه يعنى ايه شباب المفروض انهم يكونوا هما المستقبل عمرهم يضيع في ثانية ومتعرفيش ليه ده حصل ولا مين اللى عمل كدا؟

قالت جملتَها الأخيرةَ ثم انفجرت في البكاء، وباءت جميع محاولات والدتها لتهدئتها بالفشل.. فتابعت سارة وهي تبكي:

- لحد امتى هنفضل عايشين كدا.. ؟ امتى هنفوق بقى؟

- اهدى بس يا بنتي.. واحنا في ايدينا ايه نعمله بس.. ؟ اللى عمل كدا ربنا يحاسبه وينتقم منه.

- يعنى احنا خلاص آمنا وسلّمنا بإن العداله فوق بس.. ؟ مفيش على الارض عداله.. مفيش حقوق؟

- طيب اهدي كدا بس ،

ثم ضمتها إلى صدرها وربتت علي ظهرها في حنان.. أخذت تمرر يدَها على شَعرها حتى هدأت سارة وكفت عن البكاء.. فسحبتها مِن يدها إلى غرفتها وهي تقول:

- تعالى نامي شوية.. وانتي هتفوقي،

استوقفتها سارة بيدها وهي تسألها:

- سامعة الصوت ده؟

- صوت ايه؟

- صوت الناس دى.. ؟ دى شكلها مظاهره مقربه علينا.

- طيب واحنا مالنا؟

قالتها وهي تسحبها بقوة إلى غرفتها.. فانتزعت سارة يدَها منها بقوة وهي تجري تجاه الشرفة وتقول:

- يعنى ايه احنا مالنا.. ؟ امال أنا لسه كنت بكلمك في ايه؟

تهللت أسارير سارة عندما وجدت مظاهرةً حاشدة تقترب من شارعهم والهتافات تعلو كلما دنوا أكثر "يااللى بتسأل ايه القصه. . قتلوا اخويا وحرقوا الجثّة -بلطجيه بلطجيه.. الداخليه بلطجية"

اندفعت سارة مسرعة إلى غرفتها تلبس ملابسها لتلحق بهم وخلفَها والدتُها تسألها في ذُعر:

- إنتي رايحه فين؟

- زى ما إنتي شايفه يا ماما.. نازله معاهم.

- نازله فين يا مجنونة انتى.. ؟ مش هتروحى في حته.

قالتها وهي تجري نحوها محاولةً إيقافها.. إلا أن سارة أسرعت وأغلقت غرفتها بالمفتاح وأخذت تهرع في ارتداء ملابسها.. خطفت الكاميرا

من على مكتبها وهرعت إلى الخارج وأُمّها تحاول إثناءَها عن الخروج ولكن دون جدوى.. انطلقت كالسهم إلى الشارع. . التحمت بالحشود في سرعةٍ.. هتفت معهم بكل غضب الدنيا هتفت، تأخذ لقطةً للجموع الغاضبة بين الحين والآخر.. كانت قِبلة المظاهرة هي مديرية الأمن بسموحه. . لكن الأمن لم يُعطِهم تلك الفرصةَ فسبقهم في منتصف الطريق. . احتشدت المدرعاتُ وعربات الأمن المركزي وعساكر الأمن والضباط وفرقة من القوات الخاصة لتسد الطريقَ أمام المظاهرة. . توقفت المظاهرة عن التقدم إلا أن الهتافاتِ استمرت.. الكل يهتف ضد الداخلية.. توقف ضابطٌ شاب وسط الجنود وأخذ يصيح بمكبِّر الصوت:

– الكل يرجع أحسن.. قدامكو خمس دقايق لو مرجعتوش هضطر آخد تصرف تانى.

زادت الهتافات قوة (الداخليه بلطجية). . (عيش.. حرية.. تطهير الداخلية). . (الداخلية زى ما هيّه. . واحنا طالبنا بالحرية).

مرت نصفُ ساعةٍ والمتظاهرون لا يتراجعون.. حتى صاح الضابط الشاب بجنوده:

– ماشى.. ورّوهم البلطجه بقى صح.. اضربوا.

ومع نطق آخر حروف كلماته. . انطلقت القنابل المسيلة كالسهام

لتسقط وسط المتظاهرين. . استطاعت القنابل أن تفرق قليلا بينهم، فأخذ بعض الشباب الغاضب حجارةً من الأرض وألقوها تجاه الجنود.. فانطلقت مدافع المياه تشق طريقها وتفرق ما بقى منهم.. فور بدء الضرب انطلقت سارة بالكاميرا بعيدا لتتخذ موضعا تستطيع التصوير منه جيدا وتفضحهم بعد ذلك على كل شبكات التواصل.. ركضت بعيدا واستطاعت الاختباءَ خلف عمودٍ ضخم. . على الرغم من غضبها مما يحدث إلا أنها كانت ترى أن دورَها هو تسجيل كل تلك المَشاهد حتى يرى العالم ويتم فضحُهم.

– طب قوليلى إنك بتصوري.. عشان آخد صوره سيلفي معاكي.

أتاها ذلك الصوتُ الساخر من الخلف فالتفتت في سرعة لتجد ذلك الضابط ينظر لها بصرامة. . احتضنت الكاميرا بقوةٍ أكثرَ فباغَتَها هو بالانقضاض عليها ليخطف الكاميرا منها ، إلا أنها قفزت بعيدًا وأخذت تعدو بأقصى سرعة سمحت لها ساقاها بها، فبعد كمية الادرينالين التي تم إفرازُها تضاعفت سرعتها. . إلا أن ذلك لم يكن بالصعب على الضابط للحاق بها ، ففي منتصف طريقها للمتظاهرين وجدت مَن يجذبها من رأسها لينفك حجابُ رأسِها وهي تحاول التخلصَ منه.. فركلها أسفل قدمها لتسقط أرضا.. مد يدَه لالتقاط الكاميرا إلا أنها كانت تتشبث بها كغريق يتشبث بقشة تحمله للخارج.. ركَّزَ ركلاتِه في جانب بطنها حتى تترك ما بيدها. . نزل لأسفل وصفعها على وجهها

وأخذ بقوةٍ الكاميرا وألقاها بكل قوته أرضا لتتحطم تماما.. ولا مانع من عدة ضربات بقدمه تأكيدا لتحطمها. . ترك كل تلك الفوضى خلفَه وذهب وهو يبتسم.

×××

- لماذا تأخرتَ في النوم يا عزيزي؟ اليوم إجازتك.

سطَعَ الهاتفُ بتلك الرسالة تمهيدا لعدة محاولات يائسةٍ من الاتصال قبل أن يستفيق يوسف من نومه. . نظر بعينٍ نصف مفتوحة لاسم المتصل قبل أن يرد في تكاسُلٍ وفى سعادةٍ مصطَنعة:

- آلو.. كيف حالك يا حلوتي؟

أتاه صوت يصرخ بسعادة على الجانب الآخر:

- جو حبيبى.. أخيرا سمعت صوتك.. لماذا لا ترد علىّ؟

- آسف حبيبتى.. سهرت بالأمس واستغرقت في النوم حتى الآن

- لا مشكله.. لدى خبر جيد لك.. لقد أرسلت لك المال اليوم

قفزَ يوسف من سريره فرحًا وطار النوم من عينيه وهو يقول في سعادة

- حقًا يا حبيبتي؟

- نعم حبيبى.. لقد أرسلتُ لك اليوم في ويسترن يونيون ٢٠٠٠ دولار..

أتمنَّى أن يكفوا لحل مشاكلك.. ولقد أرسلتُ لك في رسالة على هاتفك الكود المكوَّن من عشرة أرقام حتى تستطيع الحصولَ على المال

تفحص يوسف هاتفَه في سرعة حتى وجد فعلا الكودَ فاتسعت ابتسامتُه قبل أن يقول:

- شكرًا لارا.. حقيقي أنت ملاكي الحارس.. لا أعرف كيف أشكرك

- لا تشكرنى حبيبى.. فقط أنا اشتقت لك كثيرا.. ألم تصلح الكاميرا بعد؟.. أريد أن أراك

شعَر يوسف بأنها تنتظر مقابلا للنقود.. فقرر مجاراتها وإعطاءَها ما تريده حتى يستطيع إخراجَ الأموال منها مرة أخرى فردّ في سرعة:

- نعم يا عزيزتى لقد أصلحتُها بالأمس فقط

- حقا!!.. افتح إذاً دعني أراك

فتح يوسف البرنامجَ والكاميرا سريعا في محاولةٍ منه للتخلص من هذا الموضوع سريعا ليذهب ليحصل على نقودِه.. اعتدل في جلسته وأصلح من وضع الكاميرا.. ثوانٍ معدودة حتى ظهرت لارا مستلقيةً على بطنها تلبس قميصا أبيضَ قصيرًا.. تركت أولَ زريّن به مفتوحيّن ليكشفا عن صدرٍ أبيضَ ممتلىء.. نظرت له بسعادةٍ كطفلةٍ وجدت لعبتَها المفضلة الضائعة.. وسرعان ما تحولت تلك السعادة إلى نشوةٍ.. أخذت تلعب بأصابعها في خصلات شعرها قبل أن تقول:

- لقد اشتقت لك كثيرا يوسف من فترة لم أرك

رسم يوسف ابتسامةً مصطنعةً وهو يجلس أمام الكاميرا ويرد:

- لقد أصلحتُها خصيصًا لكي تستطيعي أن تريني لارا

- شكرا حبيبي.. أنت تراني جيدًا الآن؟

- نعم حبيبتى.. أرى ملاكًا يلبس قميصًا أبيضً مثيرا

ضحكت في دلال وهى تمرر أصابعها بين صدرها وتقول:

-ألا تريد أن ترى شيئًا؟

فهِمَ يوسف ما ترمى إليه.. قرر منْحَها قليلا من النشوة لإشباع ذلك المارد النَّهِم جنسيًا بداخلها.. فقال لها في نشوةٍ مصطنعة

-نعم حبيبتي.. أريد أن أرى جسدكِ الجميلَ. أريد أن أرى كل شيء

نهضتْ لارا في بطءٍ مدروسٍ وهي تفك أزرار قميصِها القصير لتكشف عن صدرٍ أبيضَ ممتلىء، وجسدٍ متهدّل يصيب بالغثيان.. في سرعة تحركت يدُها على جميع أنحاءِ جسدها تحاول إيقاظ ما سلبته منها الأيام.. تأوهات قليلة قبل أن تقول في نشوة:

- أنا أيضا أريد أن أرى

- تريدين أن ترَي ماذا؟

- رائدك الصغير

تلونت ملامحُ يوسفَ واحمرَّ وجهُه قبل أن يسب في سره تلك الساقطةَ.. أقنَعَ يوسف بصعوبة رائدَه الصغير على الوقوف احترامًا أمام هذا الدب الروسي.. ترجَّاه بكل السبل إلى أن أدى التحيةَ العسكريةَ لها ونام. .. وهي أيضا نالت راحتَها وتمددت في رضىً على السرير منتظرة أن ينتهي من حمَّامِه، خمس عشرة دقيقة مرت وهى ممددةٌ في انتشاء دون حراك حتى عاد يوسف.. تساقطت قطراتُ الماء من شَعره المبتل على وجهه فمسحها ببطن أصابعه قبل أن يكتب في سرعة:

- شكرا حبيبتى لارا على اللحظات الرومانسية هذه

عادت لارا إلى وعيها مع هذه الكلمات فاعتدلت في جلستها وهى تنظر له بسعادة وتقول:

-أنا التي يجب أن تشكرك.. كم أتمنى أن أكون بين ذراعيك الآن يوسف

أراد يوسف إنهاء هذا الحوار المبتذل الذي يصيبه بالغثيان فقال:

- قريبًا عزيزتي سنكون معًا.. أنا أثق بذلك.. سوف أذهب الآن لأحصل على النقود.. سوف أتصل بك بمجرد حصولى عليها لأخبرك

- حسنًا حبيبي.. سأنتظرك، قالتها وهى ترسل له قُبلةً في الهواء

فأغلَق يوسف الجهازَ في سرعة، خمس عشرة دقيقه أخرى كان ارتدى

ملابسه ونزل ووصل لأقرب فرع ويسترن يونيون إليه.. ليس مالا كثيرا لكن بالنسبه لشخص مثله لا يحصل على مبلغ كهذا كل يوم من الهواء لذلك نستطيع تفسير سبب سعادته البالغة.. سيسدد كل فواتيره.. سيملأ ثلاجته بالطعام وعلب الكانز والبيره.. والسجائر.. والحشيش.. انتشى فجأة عند تذكره الحشيش.. سيحصل على كميةٍ كبيرة كافية حتى يتم التفكير في حوارٍ آخر ليحصل على المزيد.. يجب ألا يغلق ذلك البنكَ الروسي.. إنه عميل بالسحب فقط.. لا يوجد إيداع.. عميل لا يطمح أي بنكٍ بأن يكون لديه مِثله.. كل ذلك دار بخلده وهو يعبُر البوابةَ الزجاجية للفرع.. استمارة ورقية وإظهار هويته هما كل ما كان يحتاجهما ليحصل على النقود.. تسلمه النقود في لهفة.. مرةً مرتيّن ثلاثا، لا يذكر كم مرةً عدَّ النقودَ وهو في طريقه إلى المنزل.. أخفاها في جيبه جيدا.. كلَّم لارا وأخبرها أنه حصل على الأموال وشكرها مرة أخرى. . قرر أن يسير حتى المنزل.. وضع يدَه في سرواله وعادت أحلام اليقظة تباغته مرة أخرى.. السجائر الملفوفة والبيره، قرر إضافة عنصر الموسيقى خلفيةً لحلمه.. بحث في ذهنه لم يجد أفضلَ مِن :

Vas – bardo

تلك الموسيقى التي تخلبك عقلك وكيانك.. لم يفهم أبدا ما كانت تشير إليه كلمات الأغنية الفارسية.. لكن فخامة صوت azam ali تكفي

لأن تسحبك معها إلى عالَم منسوج من الخيال تسحرك به تتيمك عشقا وفى النهاية... تقتلك وتهوى بك إلى باطن الواقع مع نهاية الموسيقى.. جلس يوسف على كرسي ضخم وحوله العديد من الجاريات الإيرانيات يتمايلن بدلال وينظرن بشوق من خلف وشاحهن الشفاف إليه، وتقدمت إحداهن بطبق من الذهب وضع عليه المئات من السجائر، تقدمت إلى يوسفَ وانحنت في إجلالٍ وهى تقدم له الطبق.. التقطه يوسف في بطء فانحنت جاريةٌ أخرى تشعل له سيجارةً بقدّاحة مشتراةٍ من royal cigar في حين انهمكت azam ali في الغناء وسطهن وهى تتمايل ببطء و... (الداخلية بلطجية).. دخن يوسف سيجارةً في بطء وهو يتأمل جسدَ تلك التي على اليمين ستكون ليلتها اليوم سوف. . (الداخلية بلطجية).. لم يجد يوسف علاقةً بين ما يراه في حُلمِه وبين هذه النداء الشاذ.. تلفت يوسف إلى يساره فانسحبت مِن أمامه صورة الجاريات والكرسي والسجائر والموسيقى لتحتل مكانَها صورةٌ أخرى اسمها.. الواقع.. خرج يوسف من حلمِه ليجد أمامه مشهدًا رآه كثيرا في السنوات الأخيرة.. ما إن خَطَا تجاه الشارع حتى بدأ الضرب.. رأى القنابلَ المسيلة تطير من جانب إلى آخر.. رأى البعضَ يجري والآخر واقفًا في ثبات.. لم يكن أبدا يحب المشاكل فقدْ رأى في حياته من هموم تكفيه لسنوات قادمة.. شخص آخر بطبيعته وشخصيته كان اكتفى بالمرور من شارع آخر.. لكن قراره ربما اتخذه

من حنقِه وغضبِه على البلد فأراد أن يخرج قليلا من الكبت الذي بداخله.. أراد فقط أن يصرخ مع مَن يصرخون.. هو لا يعرف لماذا يصرخون لكن بالتأكيد.. هُم مثله.. الغضب والحنق هو ما أخرجهم.. اقترب يوسف أكثر.. الأصوات تتزايد والدخان بدأ في فرض سيطرته على الأجواء.. هناك خلف العمود الضخم رآها.... اقترب أكثر ليتأكد أنها هى.. نعم إنها هي سارة.. معشوقته.. سبب بقاؤه حيا حتى الان.. رآها تجري وخلفَها ذلك الشرطي يجذبها بقوة من الخلف.. لم يَشعر بنفسه وهو يجري بقوة ناحيتَها.. تضاعَفَ غضبُه آلافَ المرات.. رآها وهى تقع والشرطي يركلها ويحطم الكاميرا ويتركها ويرحل.. رأى كل ذلك وهو يعدو تجاهها والغضب يملأ كل ذرة بكيانه.. وصل إليها لم ينحنِ ليلتقطها بل اتجه مباشرة إلى الشرطي.. انقض عليه من الخلف فأسقطه أرضا.. ركلات في الرأس والبطن سددها له.. ركلات أودع بها كل غضب وحنق السنين.. بالنسبة له ذلك الشرطي رمز.. رمز لنظامٍ مستبدٍ عانَى من ويلاتِه سنين وما يزال.. لاحَظَ بعضُ العساكر ما آلٍ إليه أمّرُ ضابطِهم الجميل فتحركوا في سرعة تجاهه وانقضوا ككلابٍ مسعورةٍ على يوسف.. أحدهم ضربه بعصا على رأسه وآخر فضَّلَ جهازَ الصاعق الكهربائي فأودعه شحنةً مناسبة لإسقاطه أرضا وانهالوا بالركل عليه.. واثنانِ منهم قاما بمساعدة الضابط على القيام الذي فقد اثنتين من أسنانه الأمامية وتحطم أنفه.. بصق دمًا وأشار

لعساكره للجسد الملقى على الأرض قائلا:

- هاتولي الكلب ده.. حطوه في العربيه

أسرع اثنانِ بتلبية نداءِ قائدهما فحَمَلا الجسدَ الملقى وذهبا به إلى سيارتهم.. كانت هناك أعين ترصد كل ذلك ولكن لم تقوَ على الحراك.. صاحبة الأعين كان جسدُها ملقًى ليس ببعيد عن يوسف.. شاهدتْ سارة كل هذا وصرخت بكل قوتِها باسمِه.. يوووسف

لكن الصرخةَ لم تتجاوز حلقَها قط.. وسقطت فاقدةَ الوعي.

الفصل السادس

١٠ أكتوبر ٢٠١٦

سان ستيفانو- الإسكندرية

ازدحمتْ صالةُ الطعام في ذلك الوقت من اليوم عن بَكرة أبيها فلا موضع لقَدم. . الكل يتكلم في نفَسٍ واحد مما شكل ضوضاءَ كافية لإكسابك طنين أُذُن وصداعا نصفيًا في دقائقَ معدودة.. وقف ثائر وسط كل هذا يبحث بعينيه عن فتاتِه لم يجد شيئا.. انسحب في هدوء إلى الخارج منتظرا إياها عند مدخل الصالة.. سعادة وقلق وتوتر، كل هذا شعر به ثائر أثناء وقوفه.. هل كان يجب احضار هديه معه أول مرة؟ تساءَل مفكرا. . ربما ورد. . البنات جميعهن يحببن الورد.

لم تتركه كارمن ينتظر كثيرا حتى لاحت مِن بعيد.. نسمة هواء خفيفة جعلت شَعرَها الأسود يتطاير في رقة وهى آتية مما خلق نفس المشهد

الأسطورى في الأفلام العربية عندما ينتظر البطلُ حبيبتَه وهى تأتى وشعرها يتطاير، زاد توتر ثائر مع ذلك القدوم السينمائى.. سار تجاهها مبتسما.. متأنقة هي وبسيطة في ملابسها.. سروال جينز أزرق ضيق وتي شيرت أبيض فوقه جاكت أسود قصير. . ازدادت ابتسامتُه وهو يقول:

- ازيك؟ في ميعادك متأخرتيش

تلقت يدَه في ابتسامة مرِحة وهى تقول:

- لا متقلقش.. أنا على طول مواعيدى مظبوطه، ثم أشارت بيدها إلى المدخل وقالت: ايه يلا بينا ندخل؟

أوقفها ثائر بإشارة من يده قائلا:

- لا استني.. أنا لقيت المكان زحمه أوي جوّه ودوشه.. ايه رأيك نروح zanilli's في ستانلي؟ أنا معايا العربيه

- اوك مفيش مشكلة.. يلا بينا

دقائق معدودة حتى كان ثائر وكارمن يجلسان قبالة بعضهما البعض على مائدة مميزة وعلى يسارهما المنظر يطل على كوبري ستانلي.. نظرات طويلة متبادلة في صمت قبل ان تقطع هذا الصمتَ كارمن بقولها في تلقائية:

- ها.. على فكره أنا متغدتش. . يعنى المفروض نطلب بقى الاكل.. عشان مفضحكش هنا

- ضحك ثائر وهو يقول:

- ياه للدرجه دى؟ لا خلاص هنطلب بسرعة اهو

تركها تطلب ما تشاء وطلب هو مثلها ذوقا منه.. سعادة بالغة شعر بها وهو يجلس معها.. أراد أن يخبرها عنه وعن حلمه وعن حياته.. أرداها هي فقط أن تشاركه كل هذا.. يرى فيها ما لا يراه في أي أُنثَى أخرى.. حتى وجد نفسه يسأل:

- انتى ليه كدا؟

- ليه ايه؟

- معرفش فيكى حاجه غريبه.. حاجه بتشدنى غصب عنى.. أنا مش قادر اشيل عينى من عليكى.. ايه سرك؟

ابتسمت كارمن وهى تقول:

- مممم.. مفيش سر ولا حاجه.. يمكن عشان انت شايفنى مختلفة ولا حاجه.. أنا بحب اعيش حياتى بطريقتى.. كل التقاليد والعادات والكلام الفاضى ده بدوس عليه بِرجّلي لو أنا مش مقتنعة بيه

- كلمينى عنك شوية يا كارمن.. عاوز اعرفك اكتر

- اسال وانا اجاوبك.. مبعرفش اتكلم عن نفسى كدا

- ممم.. يعنى بتحبى ايه؟ايه طموحاتك؟

- عادى يعنى.. تقدر تقول إني بعشق السينما.. هي كل حياتى.. وبحب شغلى اوى.. بحب منير مش بسمعه موضه، بحب الصراحه وبكره المجاملات والكدب.. مبعرفش اجامل حد اصلا.. مممم طموحى بقى.. شايف السما دى؟ أنهت جملتها وهى تشير من خلف النافذة الزجاجية إلى السماء.. فأجابها ثائر:

- اه.. شايفها

- اهو حدود السما دى اقرب من سقف طموحى

نظر لها بإعجاب.. أعجبته فلسفتها ومنهجها في الحياة.. لم يستطع إخفاء ذلك فقال:

- بما انك بتحبى الصراحه.. أنا هقولك من الاخر.. إنتي عجبانى جدا

- طيب ما أنا عارفه.. عرفت ده من ساعة مكنت متنَّحلي اول ما فتحتلك الباب عندنا

- طيب وانتى؟

- بُص.. أنا منكرش ان فيك حاجه شدانى.. بس أنا مش من النوع ده.. ومبعترفش بصراحه بالحب من اول نظرة.. عشان كدا سيب الايام هي

اللى تحدد

مع نطق آخر حروف كلماتها رن هاتف ثائر، علامات الدهشة ارتسمت على وجهه عند رؤيتِه للاسم وقال:

- ده د. وحيد!!.. باباكى

ردت كارمن في استغراب: طيب ما ترد

- هو عارف ان إنتي معايا؟

- اه عارف.. ايه المشكلة!!؟

- لا أبدا، قالها قبل أن يرد في سرعة وقد بدا التوتر عليه.

- آلو.. ازيك يا دكتور.. الحمد لله.. ايه!.. بجد؟؟.. طيب خلاص أنا هاجى حالا.. اه اه معايا.. اه قصدى جايين حالا

- يلا بينا، قالها لكارمن وهو ينهض ويلتقط مفاتيحه من أمامه ويشير لكابتن الصالة ليأتي بالحساب.. فنهضت كارمن في سرعة وهى تسأل:

- ايه.. فيه ايه.. ايه اللى حصل؟

- د. وحيد بيقول انه عرف يحل اللغز بتاع والدى.. وعاوزنا دلوقتى نرجع البيت

قاد ثائر في سرعةٍ جنونية سيارتَه، وعقلُه يعمل بسرعة أكبر من محرك سيارته.. انقبض قلبُه منذ أن سمع الخبر.. أخيرا سيفهم ما المكتوب

بداخل تلك الورقة.. وبجانبه كارمن تقول:

- اهدا شوية يا ثائر.. بابا مش هيطير

- اصلك متعرفيش أنا تعبت أد ايه عشان افهم اللغز ده وموصلتشش لحاجه.. والموضوع ده مهم بالنسبه ليا جدا

- طيب كويس ان بابا عرف يحله.. ابويا عبقرى أنا عارفه.. صحيح انت عملت ايه في موضوع الشغل اللى قالك عليه؟

- اه تمام.. كان المفروض اروح اسلّمهم المقال دلوقتى.. بس خليها بعد ما اخلص.. خدى كدا اقرى المقال ده وقوليلى رأيك

قالها وأخرَج هاتفَه.. فتح ملف المقال منه.. وناولها الهاتفَ.. قرأته في سرعة في صمت قبل أن تقول:

- هايل.. كلماتك قوية واسلوبك حلو.. بس انت كدا بتفتح النار على الحكومة

- حد قالك إني جبان ؟!

غمزت عينيها بابتسامةٍ وهى تقول:

- تعجبنى

- طب كويس إني بدأت اعجبك

سكت قليلا قبل أن يقول:

- بس.. بس مش عارف بصراحة.. مش مستريحلها الجريده دى.

- ليه بس.. ؟ ده بابا بيقول انها جريده محترمة

رد ثائر في سرعة:

- مفيش جريدة محترمة.. بصراحة أنا مش شايف أي جريدة معارضة حقيقية في مصر غير جريدة (الخان).. مالكها ورئيس تحريرها الأستاذ الكبير هاشم الشرقاوي.. عارفاه طبعا؟

- اه طبعا عارفاه.. ده بيطلع في كل القنوات.. وبيعارض كل حاجة

- اه.. أنا لو ليا مثَل اعلى في الحياه دى.. فهو أبي اللّه يرحمه وأستاذ هشام.. جرىء ووطنى حقيقى.. كذا محاولة اغتيال والحمد للّه ينجا منها.. الراجل ده لو فيه مِنه اتنين في مصر ما كنّش حالنا بقى كدا، احنا وصلنا خلاص

قالها وهو يركن سيارتَه.. ترجَّلَ في سرعةٍ هو وكارمن.. نسي أساس قواعد الإتيكيت بأن السيداتِ أولا وسبَقَها هو إلى شقتها في لهفة.. لم تمر ثوانٍ حتى كان يجلس في غرفة مكتب د. وحيد.. وجلست كارمن أمامه تنتظر هي الأخرى لتسمع حل اللغز.. قبل أن ينظر د. وحيد إليهما مبتسما ويقول:

- انا مش عارف إزاي معرفتش الموضوع ده على طول من اول ما قريت الرسالة.. يمكن اكون كبرت وبقيت انسى

لم يتمالك ثائر نفسَه من اللهفة فقال: ربنا يديك الصحه يا دكتور.. ارجوك قول بقى ايه اللى فهمته

ابتسم د. وحيد وقال في ود:

- متقلقش هتفهم كل حاجه دلوقتى.. بس لازم اقولك إني محلتش اللغز ١٠٠ ٪.. تقدر تقول إني حليت ٧٥ ٪ منه وانت بقى عليك الباقى

فهتفت كارمن بمزاح:

- اه طبعا. . اُمّال هو مش هيعمل حاجه خالص !!

أخرَج د. وحيد ورقةً من جيبه وفرَدَها أمامهما على المكتب وأخذ يقرأ:

" ها أنا أنتظرك لتحررني مِن قيدي

ستجدني في قبري آملا أن تحييني

لأضئ نورَ العقول وأزيل ما عَلِقَ بهم من غبار

المجد لسبارتكوس، ستجدني بين كلماتِه الأخيره

Xi "

تركَ د. وحيد الورقةَ ونهض من خلف مكتبه وأخذ يدور في الغرفة ببطء وهو يقول:

- فى البدايه لازم تعرف ان والدك الله يرحمه.. كان مطَّلِع على فنون كثيره في الادب.. وبالأخص الشعر.. والدك كان متيم بالشاعر الكبير

أمل دنقل.. كان شايف فيه ظاهره مش هتتكرر تاني في مصر.. كان دايما يقولى لما مات أمل مات كل الأمل ان يبقى فيه حاجه حلوه في مصر.. أمل دنقل كان ملقّب بأمير شعراء الرفض من اشهر قصايده (لا تصالح) اللى قالها للسادات عشان المعاهده مع اسرائيل.. أمل كان ليه قصيده تاني مشهوره دار بسببها جدل كتير حواليه.. القصيده دى اسمها (كلمات سبارتكوس الأخيرة).. القصيده دى ابوك كان فاضل شويه ويعلقها على صدره من كتر حبه فيها.

أنهَى د. وحيد جملتَه وهو يمد يدَه بين أرفف مكتبته ليأتي بكتاب ضخم ويفتحه وعيون ثائر معلقة بلهفة عليه.. فقال د. وحيد:

أهي القصيده.. استنوا اقرا شويه منها:

" المجد للشيطان. . معبود الرياح

من قال " لا " في وجه مَن قالوا " نعم "

مَن علّم الإنسانَ تمزيقَ العدم

مَن قال " لا " . . فلم يمُت ،

وظلّ روحًا أبديّةَ الألم!

(مزج ثان) :

معلّقٌ أنا على مشانقِ الصباح

وجبهتي – بالموت – مَحنيّة

لأنّني لم أحْنِها. . حيّه !

يا إخوتي الذين يعبرون في الميدانِ مُطرقين

منحدرين في نهايةِ المساء

في شارعِ الإسكندرِ الأكبر :

لا تخجلوا. . و لترفعوا عيونَكم إليّ

لأنّكم معلَّقون جانبي. . على مشانقِ القيصر

فلترفعوا عيونَكم إليّ

لربّما. . إذا التقتْ عيونُكم بالموتِ في عينيّ

يبتسم الفناءُ داخلي. . لأنّكم رفعتم رأسَكم. . مرّه !

" سيزيف " لم تَعُد على أكتافِه الصّخره

يحملُها الذين يولَدون في مَخادعِ الرّقيق

والبحرُ. . كالصحراءِ. . لا يروي العطش

لأنّ مَن يقول " لا " لا يرتوي إلاّ مِن الدموع !

فلترفعوا عيونَكم للثائرِ المشنوق

فسوف تَنتهون مِثلَه. . غدا

و قبّلوا زوجاتِكم. . هُنَا. . على قارعةِ الطريق

فسوفَ تَنتهون ها هُنَا. . غدا

فالانحناءُ مرّ. .

والعنكبوتُ فوقَ أعناقِ الرجالِ يَنسجُ الردى

فقبّلوا زوجاتِكم. . إنّي تركتُ زوجتي بلا وداعْ

وإنْ رأيتُم طفليَ الذي تركتُه على ذراعِها بلا ذراعْ

فعلّموه الانحناء !

علّموه الانحناء !

اللهُ لم يغفرْ خطيئةَ الشيطانِ حين قال لا !

والودعاءُ الطيّبونَ. .

هُمُ الذين يرِثون الأرضَ في نهايةِ المدى

لأنّهم. . لا يشنقون !

فعلّموه الانحناء. .

وليس ثَمّ مِن مَفَر

لا تَحلُموا بعالَمٍ سعيدْ

فخلْفَ كلّ قيصرٍ يموت : قيصرٌ جديدْ !

وخلّفَ كلّ ثائرٍ يموت : أحزانٌ بلا جدوى. .

و دمعةٌ سُدَى !"

أنهَى د. وحيد كلماتِه في تأثرٍ واضح وحاول أن يُخفي بيدِه دموعًا انسالت رغمًا عنه فسأله ثائر في هدوء:

- فيه ايه يا دكتور.. ؟ ليه الدموع دى؟

رد د. وحيد:

- معلش اعذرونى.. فيه كام بيت هنا كل لما اقراهم مقدرش امسك نفسى.. مش عارف الله يرحمه مراد كان بيتنبأ باللى هيحصل ولا الموضوع صدفه

- أبيات ايه دي؟ قالها ثائر وهو يحاول أن ينظر للقصيدة مرة أخرى

رد د. وحيد:

- بُص.. ارجع كدا شوف الأبيات دى:

" فقبّلوا زوجاتِكم. . إنّي تركتُ زوجتي بلا وداعْ

وإنْ رأيتُم طفليَ الذي تركتُه على ذراعِها بلا ذراعْ

فعلّموه الانحناء "!

تابع د. وحيد:

- الموقف ده هو اللى حصل مع والدك بالظبط.. والدك تم الغدر به وملحقش يودع حد.. تاني حاجه يوم جنازته والدتك فضلت شايلاك على كتفها طول الجنازة ورفضت تسيبك لأي حد.. فالبيتين دول حسيت انهم رسالة من مراد اللّه يرحمه

سكتَ قليلا ثائر قبلَ أن يقول: والدى اللّه يرحمه كل يوم بكتشف حاجه عنه.. شكرا على مشاعرك النبيلة دى يا دكتور.. بس معلش اعذرنى لسه مش فاهم الحل فين؟

- اه ، قالها دكتور وحيد كأنما تذكَّر شيئا قبل أن يتابع:

- فى الرساله بيقول "المجد لسبارتكوس.. ستجدنى بين كلماته الأخيرة" . . القصيده دى هيا المقصوده من هنا.. تاني حاجه هو رمز بعديها اللى هو ده (Xi).. ده رقم ١١ باللاتينية واعتقد هو يرمز به لحاجه في القصيده.. الحرف الـ ١١ أو الكلمة الـ ١١ أو السطر الـ ١١ ولو رجعت تاني للقصيده هتلاقى الحرف الـ ١١ هو حرف (الألف) في كلمة (للشيطان) معتقدش الحرف ده يمثلك حاجه.. ولو جيت بقى للكلمة الـ ١١ هتلاقيها كلمة (قالوا) برضو معتقدش هتمثلك حاجه.. لكن تعالى بقى للسطر الـ ١١

قالها ثم وضَعَ الكتابَ وسط ثائر وكارمن اللذيْن اقتربا بنظرهما من القصيدة محاولانِ عَدَّ الأسطر.. حتى هتفت كارمن في فرح:

- فى شارع الإسكندر الأكبر

فهتف د. وحيد: بالظبط كدا.. بما ان والدك مخبى حاجه وعاوزك تلاقيها.. يبقى المكان ده لازم يبقى ليه عنوان أو خريطه أو حاجه عشان تقدر توصله.. ولو بصيت في القصيده هتلاقى ان السطر الـ ١١ يتوافق مع شارع الإسكندر الأكبر

كانت علامات التفكير قد كست كل ملامح ثائر قبل أن يقول:

- اه بس فيه شوارع كتير ليها نفس الاسم.. أنهو واحد فيهم؟

رد د. وحيد: اه.. دى بقى مهمتك انت يا ثائر.. تكمل بقية الحل.. وعلى فكره أنا دوَّرت في كل النسخ اللى عندى في الكتب لقيت القصيده دايما السطر الـ ١١ ده بيبقى شارع الإسكندر الأكبر.. شوف النسخه اللى عندك برضو واتاكد منها

- شكرا يا د. وحيد.. من دلوقتى تركيزى كله هيبقى إني احل بقية اللغز ده

فهتفت كارمن: لا وتركيزى أنا كمان

قالتها وانحنتّ قليلا تهمس في أُذُنِه قائلة: اصلك عجبتنى خلاص

ابتسم ثائر قبل ان يتنحنح وينهض من مكانه قائلا:

- شكرا يا دكتور.. هستأذن أنا عشان الحق اروح اسلّم المقال بتاعى

- ماشى بالتوفيق ان شاء اللّٰه يا ابنى.. واى جديد ابقى كلمنى على طول

- حاضر.. اكيد ان شاء اللّٰه.. مع السلامه

نهضت كارمن لتوصيلِه حتى باب البيت.. فابتسمت في رقةٍ وهى تقول.. ابقى كلمنى.. أنا سجلتلك رقمى وانا بقرا المقال ورنيت عليا

اتسعت ابتسامةُ ثائر وهو يقول:

- ده اسميه اعجاب بقى ولا ايه؟

ردت في رقة وهى تنسحب للخلف مودِّعة إياه:

- لا. .. اكتر شوية

قالتها وهى تغلِق البابَ بهدوء لتعطيه سببا لسعادةٍ بالغة تمنى كثيرا الحصولَ عليها.. الحب عندما يطرق بابَ القلبِ فكل أبواب الجسم تفتح، فتجد لمعانا وبريقا في أعين المحب.. ودفئا ورِقةً في يده، كل ذرةٍ في جسمه تنتفض معه.. هكذا هو الحب

×××

أشجارٌ كثيفةٌ تكاد أن تكون متشابكةً وجدت نفسَها سارةُ تعدو بسرعةٍ خلالَها.. لا تعلم لماذا تعدو.. فقط قلبُها ينبِّؤها بأن خطرا وراءها ويجب ألا تتوقف.. تنظر مِن وقتٍ لآخر خلفَها للتأكد ألا أحد يتبعها

وبدا أن طريقها بلا نهاية.. تشعر ببعض غصون تلك الأشجار تتحرك تجاهَها أحيانا.. لاح لها من بعيدٍ خلاءُ. . زادت من سرعتها لتصله وما إن وصلت حتى رأت شخصًا يوليها ظهرَه يرفع كوبا به شىء ما ليشربه واستدار لها في بطء لتقول:

- يوسف!

- اتاخرتى ليه يا سارة؟

- ما كنتش اعرف انك مستنينى

- أنا مستنيكى من زمان.. زمان اوى

زلزلت الأرض من تحتهما فجأة وانطلق شقٌّ كبير ليفصل بينهما.. مد يده محاولا أن يصل إليها فازداد الانشقاقُ حتى أصبح مِن المستحيل أن يصل أحدهما للآخر.. شَعرَا بشىء لزج يتحرك تحت قدميهما، نظرا لأسفل ليجدا دماءً كثيرة تجري من تحتهما لتصب في الحفرة الكبير التي صُنِعت بينهما.. فزعتْ سارة جدا من ذلك المنظر في حين وقف يوسف مبتسما.. فجأة اشتعلت النيرانُ في الحفرة وارتفع لهيبُها فقفزت سارة للخلف في حين تقدم يوسف في بطء إلى الحفرة ملوِّحا لها بالوداع.. حاولت أن تصرخ به أن يتوقف، وجدت صوتَها لا يَخرج.. مهما تصرخ لا يوجد صوت، حتى أصبح على شفا الحفرة، نظر إليها نظرةً طويلة وقفَز

- يوووسف

أفاقت سارةُ من نومها على هذه الصرخة.. لتجد نفسَها في سريرها، جبينُها كله مبللٌ بالعرق.. فتحت بابَ الغرفةِ والدتُها وهى تسألها في فزع:

- مالك يا سارة يا حبيبتى؟ إنتي تالت مرة تصحي مفزوعة كدا من ساعة امبارح؟

منذ أن أحضرها بعض الشباب ممن كانوا في المظاهرة معها إلى بيتِها وقصوا لوالدتها ما حدث وسارة تتنابها كوابيسُ وتستيقظ مفزوعةً وتهلوس.. حزنت والدتُها لحالها فأكثرت من الدعاء في صلاتها.. تأمَّلَتها في حزن قبل أن تقول لها في عطف:

- الدكتور قال انك لازم تستريحى كويس وتاكلى كويس عشان الجروح والكدمات دى تخف

نظرت لها سارة وكأنها تنظر للفراغ، فتابعت والدتُها:

- تصدقى المظاهره اللى كنتى فيها جت في التلفزيون.. بس إنتي مش ظاهره فيها.. كان نفسى اشوف مين ابن الكلب اللى عمل كدا

كسا الأسى نبرتَها وهى تقول:

- مش قولتلك يا بنتى احنا ملناش دعوه بالكلام ده.. ؟ مش قولتلك يا

سارة ابعدى عن الدوشه دى.. شوفتى اللى حصل؟.. أنا فكرت اروح اعمل محضر.. بس كله قالى اللى ضربك كدا ظابط.. يعنى المحضر هيبقى زى قِلِّته ولا ممكن كمان يستقصدك اكتر لو عملتُه.. ارجوكى يا سارة.. كفايه كدا.. كفايه يا حبيبتى كدا.. احنا مش حِمل الكلام ده

جاءها صوت سارة ضعيفًا متحشرجًا يقول:

- ا ف تتحى الت.. لفزيون

اقتربت والدتها أكثرَ منها وهى تقول: ايه يا حبيبتى؟

استجمعت سارةُ قواها وهى تنهض قليلا من مرقدها وتقول:

- افتحي التلفزيون يا ماما.. وهاتي الاخبار

- حاضر

فتحت الأُم التلفزيون وقلبت بين القنوات حتى قناة الأخبار.. أخذت تتابع سارة الأخبارَ باهتمام دون إبداء أي تأثير.. وظلت المذيعة الجميلة تعلن عن الأخبار السعيدة لهذا اليوم.. مثل تصادم أتوبيس محمّل بأطفال المدارس مع ناقلة بنزين لتتفحم كل الطلبة.. وهنا خبر آخر عن انفجار عبواتٍ ناسفة في أحد المولات، تابعت سارة بصمت ولا مبالاة مما أثار استغرابَ والدتِها؛ فهى عادةً تعلِّق على مِثل هذه الأحداث، جاء خبرٌ أخيرا جعل سارةَ تقفز من مكانها لتعتدل في جلستها وكأن ليس بها أي جروح أو ألم، تابعت الشاشةَ وهى تنقل صورةً

من مظاهرات أمس بالإسكندرية وتقول:

" مظاهرات واعمال شغب شهدتها منطقة سموحة بمحافظة الاسكندرية صباح امس تم خلالها القاء الحجارة على قوات الامن من قبل المتظاهرين.. وقد حاولت قوات الامن تطويق الشغب بدون عنف الا انها قد هوجمت من قبل المتظاهرين بزجاجات المولوتوف المشتعلة وطلقات خرطوش، مما اضطرت قوات الامن الى اطلاق القنابل المسيلة للدموع للتفريق بينهم مما تسبب في اصابة ٢١ من بينهم اللواء ماهر سلامه مدير الامن المركزى والعقيد جمال الابيارى رئيس مباحث الحماية المدنية والملازم حسام هاشم الضابط بالاداره العامه لمباحث اسكندرية وعدد من مجندى الامن المركزى، واليكم هذا الفيديو من مراسلنا"

وتغيرت الشاشةُ لتعرض مشهدا من المظاهرة والمتظاهرين وهم يلقون الحجارةَ على الأمن وفى آخر زاويةٍ من الشاشة شابٌ يجري ويعتدي على ضابط من الخلف ليسقطه أرضا ويركله بوحشية في رأسه فيجري بعض العساكر تجاهه لإنقاذ الضابط.. وينتهى عند ذلك الفيديو.

فتتابِع المذيعة: " هذا وقد تم القبض على الشاب المعتدي على الضابط في الفيديو وقد تبيَّنَ من التحقيق في هويتِه أنه يدعَى (يوسف محمد السيد هارون) يعمل كاشير بإحدى محلات الوجبات السريعة، وبتفتشيه تم العثور على مبلغٍ مالي قدرُه ٢٠٠٠ دولار وبتفتيش هاتفِه

وجدت عدة مكالمات بدولة أجنبية، ورَجَّحَ ضابط الأمن الملازم حسام هاشم مبدئيًا أنه قد يكون أحدَ العناصرِ المموَّلَة من الخارج لإثارة الشغب وتحقيق أجنداتٍ خارجية. وفى انتظار ما ستُسفِر عنه التحقيقات"

تابعت سارةُ كلَّ هذا في غضب قبل أن تقول في حنق:

- كدب. . كدب.. كل ده كدب يا ماما

فتتأثر الأُم من حالة ابنتِها وتقول في عطف:

- يوسف ده صاحبكو يا بنتي؟

- لا.. يوسف ده ملوش علاقه بالمواضيع دى اصلا.. ده كان بيدافع عنى لما لقى الظابط بيضربنى.. يعنى اللى حصّلَه ده بسببى.. والله اعلم ايه اللى هيحصله تانى.. اهو شكلهم هيلفقولو تهمة.. حسبى الله ونِعمَ الوكيل

- يا حول الله يا رب.. متتقلقيش يا سارة.. ان شاء الله النيابة تطلعوا براءه

نظرت لها سارة بأسىً قبل أن تقول:

- بعد إذنك يا ماما طَفِّى التلفزيون وسبينى لوحدى شويه.. حاسه إني تعبانه

– ماشى يا حبيبتى.. نامى شوية واستريحى

قالتها وهى تنهض لتطفئ التلفازَ وتغلق البابَ بهدوء قبل أن تغادر، أمّا سارة فهى لم تنمْ بعدَ ما رأته وتوقف تفكيرها عند يوسف وما سيحدث له.. يجب أن تساعده.. لكن كيف؟.. كم أرادت أن تصرخ مِن داخلها عندما سألتها والدتُها عن هوية يوسف وعمن يكون كم، أرادت أن تقول إنه... حبيبى.. حبيبى الذي خطفه القدَر قبل أن يُفصِح كلٌّ مِنا للآخر عن حبه، تُرَى كيف حاله الآن.. ؟ أصابتها قشعريرةٌ باردة عند تفكيرها فيما يمكن أن يكون عليه حالُ يوسفَ الآن.. الحُلم الذي رأته ينبِّؤها بأنه في خطر.. النار تحوطه من كل جانب.. ولكنه كان يبتسم!!.. هل كان سعيدًا بإلقاء نفسه في النار من أجلها؟.. هل حقًا يحبها لهذه الدرجه؟!!.. أخذت الأفكار والأسئلة تعصف برأسها حتى نامت.. ويبقى الحب هو كل ما وراء أي داء.. بل إنه داءٌ في حد ذاتِه.. داءٌ لا دواءَ له

×××

تيارُ الهواءِ البارد، والأرضية الصلبة المُلقَى عليها جسدُه هُمَا ما ساعدا يوسفَ على الإفاقة من غيبوبتِه ليجد نفسَه وحيدا في غرفةٍ ضيقة، بدا أنها زنزانةٌ مِن بابِها الفولاذي المحكَم.. استغرق بعضَ الوقتِ قبل أن يستوعب الوضعَ، فهو مُلقَى بإهمال في زنزانةٍ ضيقة مجرَّدًا من ملابسه إلا الملابسَ الداخلية.. صداع عنيف يعصف برأسه كمنْ وضع

رأسَه أسفل مطرقةٍ ليطرق عليها بلا هوادة.. حاول التذكر كيف جاء إلى هذا المكان.. كلما حاول التذكر ازداد صداع رأسِه.. كل ما يذكره المظاهرة والضابط.. لا يذكر أي شيء آخر غيرهما.. لا مهلا.. هناك حُلم مشوّش به دكتور يحقنه بشيء ما.. هل كان حُلمًا؟.. فرَدَ ذراعيه أمامه في ألم بحثَ فيهما ليجد فعلا أثرَ إبرةٍ تم حقنها في ذراعه الأيمن.. ماذا فعلوا به؟ وأين هو الان؟اخذت تلك الاسئله تعصف برأسه، أليس من المفترض أن يكون في القِسم؟ لماذا إذاً محبوس في زنزانة فردي كمنّ ينتظر حكمَ الإعدام.. ؟ نظر حوله يوسف في بطء، تأمل زنزانتَه.. حاول النهوضَ لكن الآلام والوجع بجسمه حالا دون ذلك.. تحامل على نفسه أكثر وهو ينهض ببطء حتى استطاع بصعوبةٍ الوقوفَ، وعضلاتُ جسدِه كلها تصرخ من شدة الألم.. نظر حوله فوجد نفسه محاصرًا بين أربعة جدران بلا نوافذَ أو أي فتحاتِ تهوية.. مصباح يتوسط الزنزانة، إنارته باهتة بالكاد ترى من خلالها.. باب فولاذى لا يوجد به أي فتحات أيضا.. شَعر أنه في مقبرة أكثر منها زنزانة.. مِن أين إذاً يأتي ذلك التيار البارد.. ؟ حاول البحثَ عن مصدر ذلك التيار من خلال الإضاءه الباهتة لكن لم يجد شيئا.. جوعٌ قارص انتبه له فجأة. . لا يذكر متى آخر مرة ذاق فيها الطعامَ.. شعر وكأنه له دهرا لم يأكل.. ماذا الآن هل سيتركونه هكذا؟ سار تجاه الباب الفولاذى وأخذ يطرق عليه وينادي ولكن خرج طرقه وصوته ضعيفين واهنين...

حاول الطَّرْقَ بقوةٍ أكثر لكن عضلات يده أبت ذلك.. رجع يوسف إلى الوراء قليلا نظر حوله بحثا عن أي شيء يمكن أن يحدث به ضجيجا.. لكنه كان ينظر إلى فراغ تام.. أرضية الغرفة كلها لا يوجد بها أي شيء يمكن استخدامه.. جلس يوسف على الأرض وثنى رِجليه وعقد ساعديه حولهما وأخذ يتساءل.. ما الذي جاء به إلى هنا؟ ما جُرمُه؟ طوال عمره يسير كظلٍ للحائط.. يتجنب المشاكل وإن كانت هي مَن تسعى وراءه دائما.. تذكَّر فجأة سارة.. تذكر اخر مشهد.. موقفه البطولى وشجاعته التي تفاجأ هو لها شخصيا.. لا يشعر بالندم ولو رجع به الزمن لكان يكرر نفس الفعل.. لكن كيف سارة الآن؟ أهي بخير؟ كم تمنى أن يحطم تلك الجدرانَ ويَخرج ليراها.. آخر مرة رآها كانت ملقاةً على الأرض.. لا يدرى ما مصيرها الآن.. وما مصيره هو؟ قفز السؤال فجأة إلى ذهنه.. ما سيفعلون به؟ الاعتداء على ضابط؟ هل سيسجَن؟ سيدافع عن نفسه ويقول إنه كان يحاول إنقاذَ الفتاة من الضابط.. لكن هل ستصدّقه النيابة أو القاضي؟ هل سيصدِّقونه؟.. أطلق زفرةً تحمل الكثير من المرارة قبل أن يقول لنفسه: أمثالنا لا ينطقون الصدقَ أبدا بالنسبة لهم.. بالتأكيد سيسجَن.. هيَّأَ نفسَه لهذا الاستنتاج حتى لا يشعر بصدمةٍ في النهاية.. لكن لماذا لا يأتي إليه أحد.. ؟ إنه لا يشعر بأصوات تدور بالخارج أو بأي شيء يشير إلى حياة ما في الخارج.. الجوع والبرد سيقتلانِه.. تذكَّر فجأة أن البردَ بدأ يزداد.. لاحظ ذلك

عندما ارتعشت أناملُه.. التيار البارد أصبح يراه الآن يتخذ شكلا دخانيا يستقر في أرضية الغرفة وبدأ يزداد.. ارتعدت مفاصلُه من شدة البرودة فانكمش بجسمه أكثر.. هل سيجمدوه؟ هل هذه النهاية؟ أخذ يتساءل في خوف.. بدأت شفتاه ترتجفان من البرودة... شعوره بتجمد الدم في عروقه أخبره بقرب النهاية.. استسلم يوسف لمصيره.. ذَكَر الشهادتيْن.. دفن رأسَه بين ذراعيه.. وأخذ ينتظر... الموت!

الفصل السابع

جلسَ ثائر في غرفة مكتب والده مسنِدا رأسَه على ظهر الكرسي محلِّقا نحو سقف الغرفة مفكرا في كيفية إكمال حل لغز والده قبل أن تأتيه طرقاتٌ خفيفة على الباب، فاعتدل في جلسته قبل أن يقول:

- اتفضلى يا ماما

دخلت والدته وهى تحمل صينية بها كوبان من الشاي ووضعتهما على سطح المكتب قبل أن تجلس أمامه وتقول:

- أنا قلت آجى اشرب الشاي معاك

ابتسم ثائر وهو يقول:

- يا سلام.. ده إنتي تنورى يا ست الكل

فتابعت والدته قائلة:

- كمان عشان عاوز اتكلم معاك في موضوع

- خير يا ماما.. اتفضلى اتكلمى براحتك

- بُص يا ثائر انت من ساعة ما قولتلى على اللى وصلتله انت ود. وحيد في موضوع اللغز وانا مسكت القصيدة فصَّصتها وتقريبا كدا وصلت للحل

أثارت الكلمات الأخيره انتباهَ ثائر قبل أن يقول في اهتمام:

- بجد.. ؟ وصلتى لإيه يا ماما؟

-وصلت انك لازم تسيب مجال الصحافه ده نهائى.. أنا كنت غلطانه لما كنت عاوزاك تكمل حلم والدك.. انت لازم تسيب المجال ده ومشاكله

هتف ثائر في استنكار:

- ايه اللى بتقوليه دا يا ماما.. ؟ إزاي ده الحل اللى وصلتيله؟.. ايه اللى خلاكى تقولى كدا؟

فتابعت الأم:

- بُص.. انت شكلك مركزتش في كلمات القصيدة.. تعالى نراجع تاني كلماتها:

.. " فلترفعوا عيونَكم للثائرِ المَشنوق

فسوف تَنتهونَ مثلَه. غدا

و قبّلوا زوجاتِكم. هُنَا. على قارعةِ الطريق

فسوف تَنتهونَ ها هُنَا. غدا

فالانحناء مرّ..

والعنكبوتُ فوقَ أعناقِ الرجالِ يَنسجُ الردى

فقبّلوا زوجاتِكم. إنّي تركتُ زوجتي بلا وداعْ

وإنْ رأيتُمُ طفليَ الذي تركتُه على ذراعِها بلا ذراعْ

فعلّموه الانحناء !

علّموه الانحناء !

اللهُ. لم يغفرْ خطيئةَ الشيطانِ حين قال لا !

والودعاءُ الطيّبون. .

هُمُ الذين يرِثون الأرضَ في نهايةِ المدى

لأنّهم. . لا يشنقون !

فعلّموه الانحناء. .

وليسَ ثَمّ مِن مَفَر

لا تحلُموا بعالَمٍ سعيدْ

فخلْفَ كلّ قيصرٍ يموت : قيصرٌ جديدْ !

وخلْفَ كلّ ثائرٍ يموت : أحزانٌ بلا جدوى..

و دمعةٌ سُدَى !"

تابعت الأم:

- أبوك اللى مقصود في القصيده اللى راح من غير ميودّعنى.. بالظبط زى ما قالك د. وحيد... وانت المقصود بالطفل ده.. اقرا كدا بعديها مكتوب إيه؟ (فعلّموه الانحناء).. يعنى أنا ربيتك غلط.. والدك كان عاوز يحافظ عليك ومتبقاش زيه.. أنا مفهمتش كدا.. ارجوك يا ابنى.. سيب المجال ده خالص.. أنا خسرت ابوك مش عايزه اخسرك انت كمان

فقال ثائر في استنكار:

- إزاي فهمتى الكلام ده بالطريقه دى؟.. استحاله يكون ابويا قصده كدا.. شخصية زى شخصية ابويا استحاله هتكون عاوزه تربى ابنها على الخضوع والانحناء.. لا يا ماما إنتي فاهمة الموضوع غلط.. طيب والرمز والحاجه اللى المفروض ألاقيها.. لا يا ماما.. استنتاجك غلط اكيد.

فهتفت الأُم: انت شايف كام مرة اتكررت كلمة ثائر في القصيده؟ وفى كل مرة كان بيبقى وراها موت زى (فلترفعوا عيونَكم للثائرِ المشنوق) و(خلف كل ثائرٍ يموت).. انت شايف صدفه إن والدك يسميك ثائر، أو عشان يكون اسمك دليل على الثورة والكلام الفاضى ده؟ يبقى انت

فهمت غلط، ابوك سماك كدا مخصوص عشان القصيدة، عشان عارف إني هربيك انك تبقى زيه وهو مش عاوزك كدا، هو عاوز يحذرك بس أنا اللى فهمت متأخر

نهض ثائر مِن على كرسيه والتفَّ حول أُمِّه وربتَ عليها:

- انا عارف يا ماما انك خايفه عليا.. بس متقلقيش يا حبيبتى كل حاجه ان شاء الله هتكون تمام.. بس انك عاوزانى اتخلى عن مبادئى وحلمى وحلم والدى ده اللى مش ممكن اسمع كلامك فيه

استطردت الأُم قائلةً:

- ممكن يكون تحليلى غلط.. بس أنا فعلا خايفه عليك.. عشان أنا مليش غيرك دلوقتى.. رغم إني عارفه انك طالع عنيد زى ابوك ومش هتسمع كلامى.. بس كنت بحاول.. وفشلت

- يا أُمّي متقلقيش.. كل حاجه هتبقى تمام ان شاء الله.. أنا هقوم بقى عشان عندى شغل في الجريده

- ماشى يا حبيبى.. ربنا يوفقك.. مستريح في الجريده دى؟

- لا.. بس مستنى يبقى ليا اسمى الاول وبعد كدا هشوف هعمل ايه

- ماشى يا حبيبى.. ربنا معاك

- يلا سلام

قبَّلَها في سرعةٍ قبل أن يودِّعها ليلحق بعمله.. طوال الطريق للجريدة كان كل ما يشغل ذهنه هو لغز والده وكلام والدته، أي شارعٍ يقصده والده.. يجب أن يضع خريطةً بكل الشوارع التي تحمل هذا الاسمَ ليرى أي شيء مشترك يمكن أن يدله على حل اللغز، وما إن وصل للجريدة حتى استقبله أستاذ أحمد مدير المكتب استقبالا حافلا وهو ينهض من خلف مكتبه قائلا:

- أهلا بنجم المستقبل.. ايه الحلاوة دى بس.. المقال بتاعك عامل قلبان والكل بيسأل عليك.. انت مكسب لينا

رد ثائر في ابتسامةٍ باهتة:

- شكرا يا أستاذ أحمد.. دى حاجه تسعدنى

تابع أحمد قائلا:

- فيه موضوع جديد عاوزك تغطيه.. الواد بتاع الشغب اللى حصل ناحية مديرية الأمن

- اه سمعت عنه

- تمام اوى.. الواد ده مموَّل من الخارج.. لقوا معاه دولارات واتصالات بدول أجنبية.. عاوزين مقال عن الموضوع ده وإزاي الدول الاجنبية بتستغل فقر وحاجة شبابنا عشان تجندهم

رد ثائر:

- ماشى يا فندم.. بس تقريبا لسه التحقيقات مخلصتش

- لا مصادرنا في الأمن بتقول انه اعترف خلاص.. بس مستنين يعرفوا مين معاه تاني في الشبكة دى.. بُص هتلاقى فيديو في قسم المرئيات وهو بيعتدي على الظابط، وهتلاقى فيديو تاني وهمّا بيفتشوه ويطلعوا منه دولارات وكدا شوفهم برضو الأول قبل ما تشتغل

- ماشى وانا طالع هبُص عليهم.. استأذنك انا

قالها وهو ينهض فصافحه المدير قائلا: هستنى منك المقال النهارده.. متتأخرش عليا

- هحاول ان شاء اللّه

لم يشعر ثائر بالضيق في حياته مثل هذا اليوم.. يشعر وكأنه يسير في طريقٍ خاطئ. . كأن هناك مَن يربطه بحبلٍ ويجره بالقوة إلى مكان لا يريد الذهابَ إليه.. شعر بأغلال تنهض من مرقدها لتواجهه.. اتخذ قرارَه سريعا.. سينتظر أسبوعا آخرَ، إذا ظل ذلك الشعور يلازمه إذا ترْكُ الجريدةِ هو العلاج المناسب لِما يشعر به، تذكر فجأة موعدَه مع كارمن اليوم فقَلَّ شعورُه بالضيق قليلا، يبدو أن الحب تمكَّنَ منه.. هو واحد من تلك الفئة التي تظل تحارب الحبَّ وتصده ولا تدرك أنها قد وقعت به إلا عندما يكون الحب قد تمكن منهم وفرض سيطرتَه

الكاملة.. هو لا يدري حتى متى وقعَ فيه.. عند أول لقاء؟.. ربما، المرء لا يعرف أبدا.. متى وقع؟

×××

في العالَمِ العربيِّ الجميل.. أو في مصرَ خصوصًا يرون في الفتاة المنقلبة على التقاليد والعادات أنها فتاةٌ مُنحلّة.. يجب جز عنقِها.. يرون في الفتاة المثقفة الذكية خطرا وتهديدا.. لذلك ستجد أن الرجالَ الشرقيين يبتعدون دائما عن الزواج مِن فتيات يَفُقْنَهم ذكاءً أو ثقافة.. يرون في الفتاة متفتحة الفِكر والرأي قِلة أدبٍ ووقاحة.. بعض الرجال يظنون أنهن غير ذلك وأن مِن حق المرأة أن تفعل كذا وكذا، وتجدهم ينادون ويطالبون بذلك طوال الوقت لكن تعالَ انظرْ إلى تصرفِه حين يرتبط أو يتزوج.. تجده يتحول تدريجيًا إلى ذلك الرجلِ وينصاع لقواعد وتقاليد المجتمع.. كانت كارمن تعلم كل ذلك.. لذلك كانت ترفض دائمًا كل مَن يتقدم لها.. كانت تتعجب دائمًا مِن أن أكثر مَن يهاجمونها هُم معجَبوها الذين طلبوا ودَّها فتجاهلتهم فهاجموها بالانحلال وقلة الأدب.. كانت تعلم أن المجتمع الذي نعيشه مصابٌ بشيزوفرينيا حادةٍ؛ لذلك كانت تمضى في طريقها متجاهلةً كل ما يثار حولها.. لكن ما حقيقة مشاعرها تجاه ثائر.. ؟ هذا ما لا تعلمه بالتحديد، لا تستطيع الإنكار أنها أُعجِبت به وتَسعد بوجودِه وتريد أن تراه طوال الوقت، لكنها لا تريد أن تتسرع.. ستلقاه بعد قليل وستترك

مشاعرَها جانبا وتحكم على لقاء اليوم بما تنوي أن تفعل بعدُ.

للمرة الثانية وجدته قد وصل قبْلَها وينتظرها على الرغم من أنها حرصت أن تصل قبل الميعاد قليلا.. اقتربت منه مبتسمةً قبل أن تقول:

- انت بايت هنا من امبارح ولا ايه؟

ابتسم ثائر قائلا: أنا بحب آجي بدري عشان استناكي

- اشمعنى يعنى؟

- اصلك ما بتشوفيش شكلك وانتى جايه من بعيد وشَعرك عَمّال يطير والناس مِن حواليكى عَمّاله تقع

ضحكت كارمن وهى تقول: يا سلام ايه كل ده.. ؟ مش مبالغة دى؟

قال ثائر: لا مش مبالغة.. دى اقل حاجه، ها. . تحبى تقعدى فين بقى؟

- تعالى اعزمك على قهوة بالبندق في سفيانو بولو

- ماشى.. ليه صممتى نتقابل في محطة الرمل؟

- عشان محطة الرمل دى هي الإسكندرية.. أنا بمشى هنا بحس إني رجعت بالزمن ميت سَنَه ورا.. أنا بعشقها بكل ما فيها

سرعان ما وصلا إلى ذلك المحل العتيق في شارع سعد زغلول.. سفيانو بولو.. من أفضل الأماكن لتقديم القهوة في الإسكندرية.. يقولون إن صاحبه سفيانو بولو اليونانى أسسه منذ أكثر من مائة عام، وعند

عودته لليونان ١٩٣٧ قرر بيع نصيبِه لشريكِه المصري الذي قرر بدوره احتفاظَه بالاسم حتى يومنا هذا، دلفا إلى المكان قبل أن يختارا طاولةً نائية للجلوس بها ليحتسيا قهوتها في هدوء.. لحظاتٌ من الصمت مرت وكلٌّ منهما ينظر للآخر بأعينٍ تريد البوحَ بالكثير.. ارتشفت كارمن رشفةً من فنجانها بتلذذٍ وهى تقول:

- هنا.. احسن مكان تشرب فيه قهوة في العالم كله

هز ثائر رأسه نافيا وهو يقول:

- لا.. يبقى إنتي مروحتيش روما.. في كافيه هناك اسمه غريكو.. برأيي أنا ده افضل مكان تشربى فيه قهوة.. ده أنا واخد صورة ليه من برا.. كل ما اشوفها اشم ريحة القهوة طالعة منها

ردت كارمن باسمة:

- يا سلام!!.للدرجة دى؟.. خلاص ابقى خدنى هناك مرة

- بس كدا.. إنتي تؤمرى

عاوزه اسألك سؤال وعاوزاك تسرح كدا بخيالك قبل ما تجاوب

- اتفضلى

-لو حصل واستخدمنا ثقب اسود عشان نسافر عبر الزمن.. هتحب تسافر أي زمن واشمعنى.. فكر بقى كدا وجاوب

صمت قليلا ثائر مفكرا قبل أن يقول في هدوء:

- يعنى.. كنت ممكن اسافر للحظه اللى قبل ما والدى يموت فيها عشان احذره وانقذه.. أو على الاقل كنت سافرت للحظه وهو بيكتب فيها اللغز واقوله سهِّلها شوية يا بابا بدل أنا مش عارف اعمل حاجه كدا فيه.. أو كنت سافرت أي زمن تاني غير زمنا ده كان يبقى احسن.. كنت هرجع العشرينات.. أنا بحب الزمن ده جدا..

ظهرت ابتسامةٌ على وجهه قبل أن يتابع:

- او عارفه كنت ممكن ارجع لأول واحد اخترع الشيشة وابوس راسه واقوله يخرب بيت دماغك يا شيخ. . أو ارجع للحظة اللى الاعلاميين دول (احمد بركات)و(ابراهيم الفولى) كانوا لسه في بطن امهم واروح غازز بطن امهاتهم لغاية مينزلوا قدامى وانا واقف مبتسم في هدوء.

ضحكت كارمن بشدة وهى تقول: ضحَّكتني واللّهِ.. أنا معاك فعلا همّا يستاهلوا كدا

فرد ثائر: طيب وانتى بقى.. جاوبى على سؤالك؟

فكرت كارمن قليلاً قبل أن تقول: ممممم.. كنت هرجع لحاجات ياما اوى.. يعنى كنت هرجع للحظة (مودي الإمام) وهو قاعد بيعمل الموسيقى التصويرية لفيلم (الهروب) وعاطف الطيب بيقولو حط تنويحة (صياد الصقور) دى فيها، كنت هشكرهم واقولهم انتم قتلتونى

ألف مرة كل مرة اسمع فيها الموسيقى الهايلة دى.. كنت هرجع لحظة تشارلى شابلن وهو بيصور فيلم city lights وباستر كيتون وهو بيصور فيلم the general واقولهم انتم أساطير السينما.. إزاي خليتوا افلامكوا الصامته تبقى معبره اكثر من ٥٠٠ فيلم ناطق؟ تعرف باستر كيتون عمره ما ضحك في افلامه.. لكن تتفرج عليه يخليك تقع من كتر الضحك.. هي دى العبقرية بجد... ممممم.. ايه تانى!!؟.. كنت هرجع لأول واحد قعد في ليلة شتا يشرب قهوة ويسمع فيروز ويقرا كتاب واقوله: اللّه يخرب بيتك.. انت بوظت جيل كامل بعديك فاهم انه هو ده العمق.. كنت هرجع للشخص اللى اقنع عماد حمدى بأن وجهه سينمائى وكيوت وينفع ممثل واديلو على قفاه واقوله: ليه عملت فينا كدا!!؟

انفجر ثائر من الضحك قائلا: كل ده؟؟.. طيب مالو عماد حمدى بس.. عملك ايه الراجل؟

- كدا يا عم مش بحبُّه.. ده كيفه أساسا يطلع يبوظ كل الجوازات.. أي جوازه تلاقيه واقف فيها

رد ثائر مبتسما: أنا شايفك متحامله عليه بس ماشى.. بقولك ايه رأيك لو نتمشى شويه؟

- مفيش مشكلة.. يلا بينا

نهضا مِن مكانهما قبل أن تصر كارمن على دفع الحساب.. تمشَّيَا في شوارع محطه الرمل يضحكان معا. . يسرقان من الزمن لحظاتٍ لا تُنسَى لتطبع في ذاكرة كل منهما.. جميل هو تكوين الذكريات.. ربما يمر على كل فرد لحظات هو يعلم في حينها أنها ستكون ذكرى فيما بعد لذلك يجب عيشها بكل ما فيها.. تصويرها في ذهنه بكل تفاصيلها.. فلا احد يعلم هل سيعيش مثل هذه اللحظات مرة أخرى أم لا.. ومما جعل هذه اللحظة مميزة هو ما أقدمت كارمن على فعله.. فقد تأبطت ذراعَ ثائر وهى تنظر له بحُب ويسيران معا.. فقد تيقنت حينَها أنه هو مَن ترغب أن يشاركها حياتها ومستقبلها فتخلت عن غرورها والتصقت به تحتضن ذراعه وتحتمى به.. كانت تظن بشخصيتها القوية أنها ستفرض شروطها وسيطرتَها على الحب.. ولكنها أنثى في النهاية.. نعم مختلفة لكنها تظل أنثى.. بحاجة إلى رجُلٍ يحتويها ويحمل عنها أثقالها.. بحاجة إلى رجُلٍ ترتمى في حضنه عندما تضيق بها الدنيا لتبكي لـه.. الحب يأتي بغتةً.. إن كان للحب قواعد فتلك قاعدته الأساسية.. لا يمكن أبدا التنبؤ متى نوقع في الحب... عندما يقول أحدهم المقولة الشهيرة "انا شكلى هحِب ولا إيه؟".. فهو بالفعل يكون قد أحب.

سار الحبيبانِ معًا حتى وصلا لمجمع السينمات فصاحت كارمن في فرح وهى تشير بيدها إلى السينما:

- ايه ده.. ؟ ده فيلم avatar ٢ نزل اهو... يلا بينا ندخلوا

فرد ثائر: معلش يا كارمن.. خليها يوم تاني طيب عشان عندى شغل.. عندى مقال لازم اخلصه واسلمه

فردَّت كارمن وملامح الخيبة على وجهها:

- ماشى مش مشكلة.. المهم ابقى ورّينى المقال اول ما تخلصُه

- أكيد طبعا.. إنتي اول واحده

ابتسمت في رقة وهما يكملان سيرهما حتى وجدا نفسيها في قلب شارع النبي دانيال.. فقالت كارمن:

- أنا بحب الشارع ده جدا... تعرف ان فيه أسطوره عنه بتقول ان كان في اتنين مخطوبين ماشيين في الشارع ده بالليل فالأرض انشقت نصين وبلعت البنت بس وبعديها بلحظات رجعت تاني الأرض زى ما كانت ومحدش لقى البنت دى بعد كدا؟

- اه عارف جدتى كانت بتحكيهالى وانا صغير.. وكانت بتقول ان البنت دى كانت جميلة جدا فكان بيحبها ملك من ملوك الجن فهو اللى خطفها معاه لتحت.. على فكرة صح أنا جدتى ساكنة هنا في الشارع ده ثم أشار بإصبعه إلى منزل قديم وهو يقول:

- تعالي نسلِّم عليها بقى عشان وحشتنى.. كمان عيب آجى هنا ومعديش

عليها

فردّت كارمن: ماشى يلا.. الناس الكبيرة دى بَرَكه واللّهِ.... وعندهم قصص وروايات ما تقرهاش في احسن الكتب... ممكن تقولى حاجه اخدها فكرة فيلم ولا حاجه

فرد ثائر مبتسما:

- انتى هتيجى معايا تستغليها ولا ايه؟.. لا جدتى بقت بتنسى.. فسبيها في حالها.. هنطلع نسلِّم وننزل على طول

فردَّت كارمن: ماشى خلاص يا عم

صعد الاثنانِ إلى شقة جدتِه القديمة.. وما إن رأته جدتُه حتى ضمته إلى صدرها في فرحةٍ وعاتبته لعدم زيارتها من فترة.. أشادت بجمال كارمن ونصحته بأن يتخذها عروسا.. لم تستطع كارمن كبْتَ فضولِها فأخذت تتساءل عن شارع النبي دانيال والقصص التي ترْوَى حوله.. فقصت عليهما الجدة الكثيرَ من القصص التي يتداولها الناس حول هذا الشارع.. قبل أن يتطرق الحديث إلى والد ثائر.. فتقول الجدة في أسى :

- اللّه يرحمه ياما نصحته يبعِد عن السكه دى.. ما كَنش بيعمل إلا اللى في دماغه

سكتت قليلا قبل أن تتابع:

- تعرف انه جالى قبل الحادثه بيوم يسلِّم عليا؟.. أكِنه كان حاسس انه مش هيشوفنى تانى... لما بيوحشنى بدخل أوضة مكتبه اللى كان بيقضى فيها معظم وقته قبل ما يتجوز.. بدخلها واقعد فيها اتفرج على صوره واشم ريحته فيها.

تذكر ثائر تلك الغرفةَ فقال لجدته في سرعة:

- بعد إذنك هدخُل الأوضه دى.. وحشتنى أنا كمان وعاوز اشوفها

- اه يا حبيبى اتفضل

نهض ثائر في سرعةٍ فلحقت به كارمن قائلةً:

- عاوزه اشوفها أنا كمان

لم تكن غرفة المكتب هنا تختلف كثيرا عن نظيرتِها في منزل ثائر.. فكانت تحوي مكتبةً ضخمة.. تحوى نفس الكتب تقريبا التي لديه هناك.. نظر ثائر إلى الحائط المقابل ليجد أيضا نفس الصور تتوسط الحائط صلاح جاهين.. تولستوى.. أمل دنقل.. جبران خليل.. دافنشى بالترتيب.. وربما كانت أكبرهم صورة أمل دنقل.. فبدا كأنه القائدُ وحولَه الجنود فتمتم ثائر:

- انا حاسس إني في البيت عندى.. نفس الأوضه

اقترب ثائر من صورة أمل دنقل الذي بدا كأنه ينظر له في تحدٍ وشموخ.. اقترب مكلِّمًا إياه:

– مش هتقول على السر اللى مخبيه؟ وصمت قليلا كمنْ ينتظر ردًا.. فقالت كارمن:

– ايه يا ثائر.. انت اتجنيت ولا ايه؟.. اللغز جننك خلاص؟

فردَّ ثائر:

– اه فعلا.. أنا حاسس إني قربت اتجنن

– طيب انت دورت على شوارع اسمها الإسكندر الأكبر؟

– لا لسه بصراحه

– طيب أُمال عاوز تلاقيه إزاي من غير متدوّر؟

– ما أنا كنت مستنى أفضى بس وادوّر

فردّت كارمن: ما انتا فاضى اهو وبتتفسح.. يبقى روح كمِّل شغلك ودوّر على الشارع

ضحك ثائر من أسلوب كارمن فقال:

– حاضر يا فندم.. يلا بينا

قالها ثم غادرا.

×××

أطلتِ المذيعةُ الجميلة لتعلن عن فقرتِها القادمة وهى تقول: "الفقرة القادمة عبارة عن حوار سياسى من نوعٍ فريد.. ضيفُنا هو سياسى منذ ولادته.. ملقَّب بجيفارا مصر.. ضيفُنا وضيفُكم هو الأستاذ الكبير رئيس تحرير جريدة الخان.. هاشم الشرقاوي"

لتتحول الكاميرا إلى الضيف الذي جلس بوقارٍ وعلاماتُ الحزنِ على وجهه قبل أن تسأله المذيعة ما سبب ملامح الحزن؟ فيرد الضيف:

- انا بستغرب من سؤال حضرتك.. هو حضرتك مش بتقرى جرايد أو حاجه؟.. مش عارفه ايه حاصل؟.. فارتبكت المذيعة من هذا الهجوم المفاجئ قبل أن ترد في سرعة: اه طبعا يا فندم عارفه.. عشان الناس اللى ماتت من الفيروس وحادثة الأتوبيس

فرد هاشم في غضبٍ واضح : أنا مش عارف ايه اللى بيحصل بالظبط.. يعنى ايه مش عارفين يحددوا الفيروس ولا طرق الاصابه بيه ايه، امال هما قاعدين بيعملوا ايه.. ؟المفروض كام واحد يموت عشان نعرف نوعه ايه الخطر اللى بيواجهنا؟ وحادثة أتوبيس أطفال مكررة وما بنتعلمش ولا بناخُد خطوات.. امتى هناخد خطوات رسمى؟ امتى هنحاسب المسؤليين.. ؟ حادثه زى دى برّا.. الحكومة كلها من نفسها بتقدم استقالتها واحنا هنا نشجب وندين وندفع تعويضات وكان الله

بالسر عليم.. فيه ايه أنا مش فاهم

ردت المذيعة: هدِّي نفسك يا فندم

فتابع هاشم في غضب: لا مش ههدا.. كمان فيه حاجه.. قبضوا على يوسف هارون في مظاهرة الإسكندرية وبيقولوا عليه مموَّل.. بأى حق انتوا حكمتوا عليه انه مموَّل من الخارج.. ؟ أنا لحد دلوقتى ما شفتش أي حاجه رسمية تثبت انه اعترف بكدا.. انتوا عرفتوا منين بقى.. ؟ وبأى حق اساسا يتم القبض عليه.. ؟ عشان كان بيهاجم الضابط؟؟ يعنى عاوزه تفهمينى ان الضابط ده ملاك مجاش جنبه؟؟ خلينا واقعيين شويه بس.. أنا من مكانى هنا بطالب بالحرية ليوسف هارون ومش ههدا غير لما يتم الإفراج عنه

انتفضت سارةُ بقوةٍ عند سماعها الجُمَل الأخيرة الصادرة من شاشة التلفزيون.. فقامت مِن مجلسها لترفع مِن صوتِه وهى تقول:

- ينصر دينك يا أستاذ هاشم.. عمرك ما خيبت ظنى فيك.. انت أبي الروحى فعلا.

قفزت الفكرةُ إلى رأسها فجأة. . فأندفعت مسرعةً إلى اللاب، فتحته وفتحت صفحتَها على الفيس.. أنشأت صفحةً جديدةً تحت اسم (الحرية ليوسف هارون).. دَعَت أصدقاءَها وطلبت منهم دعوة المزيد.. وضعت بالصفحة تفاصيلَ ما حدث في المظاهرة، وكيف أن

يوسف هو الذي أنقذها، وكيف أن الضابط هو الذي اعتدى عليها وكسر كاميرتها الخاصة.. ودخل الكثير ممن كانوا في المظاهرة ليؤكدوا هذا الكلام.. ساعات قليلة وكانت الصفحة قد أُعجِب بها الكثيرون والكل يشارك الصفحة لأصدقائه حتى وصلت لـ ١١٠٠٠ في غضون ساعات قليلة.. الكثير أصبح الـ status خاصته ..الحرية ليوسف هارون.. آلاف الشباب غيَّروا صورة البروفايل إلى صورة يوسف مكتوب أسفلها دافعتَ عن شرفِ أُختي.. فأصبحتَ مموَّلا مِن الخارج).

ابتسمتْ سارةُ مِن انتشار الصفحة وتَفاعُلِ الشبابِ معها.. رُدَّ الأملُ إلى قلبها.. زادت قوتُها وإصرارها.. قالت في قرارة نفسها.. إن العالم كله سيعرف قريبا حقيقة ما حصل.. وسيطالبون بالإفراج عنه.. سترسل إلى حقوق الإنسان وإلى كل المنظمات المهتمة بذلك.. كل ذلك سيولِّد ضغطًا حتمًا يجبرهم على الإفراج عن يوسف.. وبمجرد ذِكر اسمِه على خاطرها ارتجَفَ قلبُها.. ولا تدرى أهي رجفةُ حبٍ أم خوف.. ولكنها تعلم جيدا أنها إن كانت معجبةً به في البداية أو أنها تحبه فهي تعشقه الآن.. وكل ما تريده... هو أن تراه مرة أخرى.. ستفعل المستحيلَ مِن أجل ذلك.. سيرى يوسفُ النورَ مرة أخرى بإذن الله، هكذا حدَّثَها قلبُها.

جاءتها فكرةٌ أخرى قررت تنفيذَها في الجامعة.. ألا وهى تنظيم وقفةٍ احتجاجية في الجامعة للمطالبة بالإفراج عنه.. وتصويرها ووضعها

على صفحتها على الفيس حتى يرى العالم أنه ليس مجردَ تنديدٍ ومطالبةٍ دون فعل... ازداد الأمل بقوة لديها ومما أعطى قوة لهذا الأمل هو التصاعد السريع لعدد معجبي الصفحة والتفاعل معها.. إنها تحارب من أجل هدفيْن الآن.. تحارب من أجل إنقاذ حبِّها وتحارب من أجل إنصاف كلمة الحق في وجه الظلم.. لذا لن توجَدَ قوةٌ في العالَم يمكن أن توقِفَها.

×××

فتَح يوسفُ عينيه في بطء ليصطدم برجُليْن يرتديانِ بالطو أبيض.. يبدو مِن هيئتهم أنهم أطباءُ أو ممرضون.. هل أغمَى عليه وتم نقله للمستشفى؟؟ ارتاح يوسف لهذا الاستنتاج الأخير.. حاول الابتسامَ لهم لكن ملامحهم الصارمة أثارت في نفسه الشكوك.. تنبَّه يوسف فجأة لِما يفعلونه به، أحدهم يجثو على ركبتيه ليقيد حركةَ جسمِ يوسف بالكامل والآخر يمسك ذراعه اليمنى بقوةٍ ليغرس بها حقنة ثم يتركونه ملقى بإهمال على الأرض.. أفاق يوسف من حلمه.. إنه ليس بالمستشفى.. إنه ما يزال داخل تلك الزنزانة الكريهة.. كيف لم ينتبه لذلك فور إفاقته؟ ومتى أغمى عليه من الأساس؟.. إنه لا يتذكر.. فقط يتذكر العروق المتجمدةَ وانتظار الموت.. تحسس جسمه ووجهه.. رجع الدم الدافئ للعروق مرة أخرى.. حمدَ اللّٰه أنه لم يمت بعد.. إنه لم يعد يدرى كم مَر عليه من الوقت وهو محبوس. . فقدْ فَقَدَ الإحساس

بالزمن.. ولكنه يدرى بالتأكيد أنه منذ دخوله هذا المكان وهو لا يتناول الطعام أو الشراب.. حَلْقُه الجاف كالصخر وصرخات بطنه يخبرانه بذلك.. ماذا سيفعلون معه؟.. تساءل.. هل سيتركوه يجوع حتى الموت؟ أم سيلعبون معه سياسة التجويع مقابل قول ما يريدون أن يسمعوه؟.. كل تلك الأسئلة دارت في رأسه، بدأ يدرك متأخرًا أن سبب فقدانه للوعي هو ما يتم حقنه به، حاول النهوضَ من مكانه.. لا يقوى.. الجسد يصرخ مطالبا بالطعام والشراب.. حاول الصراخَ صوتُه خرج ضعيفا متحشرجا.. تناهت إلى مسامعه صوت أقدام تقترب والباب الفولاذي يفتح في بطء ليظهر أمامه ضابطٌ شاب وخلفَه ثلاثةٌ من جنود القوات الخاصة.. بدا ذلك من هيئتهم وأجسامهم.. تفحص يوسف الأربعةَ بنظرِه ليصطدم بحقيقة أنه نفس الضابط الذي اعتدى عليه في المظاهرة.. يقف الآن أمامه ينظر له بصرامة وأعين تقفز منها نظرة انتصار وظفَر.. قبل أن يتحرك الضابط في بطء تجاهه ويأمر جنودَه بإشارة فيتحرك اثنانِ منهم يمسكان بذراعَي يوسف لينهض.. قبل أن يقول الضابط:

- عامل ايه يا يوسف؟.. اتمنى تكون مبسوط معانا هنا

نظر يوسف له في ضعف قبل أن يقول:

- انا.. فين؟

رد الظابط في صرامة:

- انت فين دى مش مشكلة.. المهم بالنسبه لك انك تعرف ان اللى بيجى المكان ده.. بيطلع منه حاجه تانيه خالص

رد يوسف :

- انا عاوز اعرف ايه تُهمتى؟.. وعاوز اتعرض على النيابة.. وعاوز محامى.. أنا من حقى كل ده

ضحك الظابط بقوة قبل أن يتحرك تجاه يوسف ويقول:

- يااا يا يوسف.. ده انت خيالك واسع اوى.. بس اللى عجبنى فيك انك طموح.. الطموح حلو برضو

سكتَ قليلا قبل أن يتابع:

- تهمتك يا سيدى.. انك مموَّل من جهات اجنبية لاثارة الشغب في مصر.. واللى هتعترف به في فيديو.. انك فعلا ممول من جهات اجنبيه وبيدفعولك بالدولار وان في اعضاء معاك تاني في الشبكه وهنقولك على اسماء تقولها.. بس كدا

ردَّ يوسف في تحدٍ: أنا مش هعترف على حاجه أنا معملتهاش.. والفلوس دى واحدة صاحبتى روسية بعتهالى مساعدة ليا

ابتسم الظابط وهو يقول:

طيب ما احنا عارفين.. شفنا المحادثات بتاعتكوا في البيت والرسايل... بس برضو هتقول اللى احنا عايزينه

رد يوسف في تحدٍ واضح:

لا... مش هعترف بحاجة

ردّ الضابط وهو يسير حوله في الغرفة:

- يا يوسف... انت خلال اسبوع في المكان ده وهتيجى تطلب منا وتتوسل انك تعترف باى حاجه احنا عاوزينها.. اصلى انت مش عارف انت فين.. المكان ده ابويا هو صاحب فكرة تاسيسه... انت هنا في (الخندق).. ده مكان بيجى فيه كل اللى فكر نفسه يوم بطل وطلع يهلل ويطالب بحاجات بيقراها في الكتب ولكن اساسا هي ملهاش وجود في العالم كله مش هنا بس.. بيجى هنا بيتمحى من دماغه كل الافكار دى.. بيطلع من هنا واحد تانى، شخص جديد.

سكَتَ قليلا قبل أن يتابع:

- انت مش من النوعية دى.. هتقولى انت جيت هنا ليه؟.. لسبب بسيط.. انك اعتديت عليا.. اعتديت على الضابط حسام.. و من سوء حظك ان أنا التجسيد الفعلى لنموذج الظابط الفاسد.. عارفه؟؟.. اللى بتشوفه في الافلام وبتقراه في الروايات.. بس للاسف الافلام والروايات دى بوظت صورتنا خالص.. على طول مطلعالك صورة الظابط الفاسد ده

بسبب الفلوس... مع اننا بنقبض كويس.. مع ان في اسباب تانية كتير.. وبرضو من سوء حظك.. ان سببى اخطر سبب

اقترب منه وهو يسأله؟

- عارفه؟؟

لم ينتظر الرد فتابع كلماته في بطء مدروس:

- المرض النفسي... انا مريض نفسيا.. وعارف كدا ودى حاجه مفرحانى... المشكلة ان الناس كلها فاكره نفسها انها سوية نفسيا.. الا انهم كلهم مرضى بس مش عارفين... انا بقى عارف... انا مريض نفسيا حتى النخاع... والمكان اللى انت فيه ده مملكتى الخاصة.. عارف ايه اللى بيحصل هنا بالظبط؟؟

قالها وهو يقترب من وجه يوسف:

- هسيبلك خيالك شوية يفكر في السؤال ده... بس أنا عاوز اطمنك... احنا ولا هنضربك ولا هنصعقك بالكهربا ولا هنقطعلك بتاعك ولا كل الكلام ده.. هنا عذاب من نوع تاني خالص.. هنا ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت.. هنا جحيم الأرض... واحنا الزبانية

ومع انتهاء كلمته الاخيرة.. خرج اثنانِ من الجنود خلفَه ليأتيا بطاولةٍ معدنية طويلة ليضعاها بطول الزنزانة.. ثم جذبا يوسف بقوة وأَخرَج أحدهم من جيبه شريطا وربطه حول عينَي يوسف.. مما جعل يوسف

يصرخ:

- سيبونى.. انتوا هتعملوا ايه.. سيبونى حرام عليكوا

وضعا شريطا آخرَ على فمِه ليوقفا صراخه.. ثم قاما بوضعه على الطاولة.. أجبراه على النوم على ظهره على الطاولة.. جرَّداه من باقي ثيابه الداخلية.. اقترب حسام من الطاولة وضغطَ زرًا جانبيًا خفيا بها.. فظهر على سطحها قيودٌ معدنية عند الأطراف.. فجذب الجندياِن قَدَمَي يوسف إلى طرفَي الطاولة ووضِعتْ كل قدمٍ في قيد حديدى متصل بالطاولة، ثم جذبا يديه إلى طرفَي الطاولة من الناحية الأخرى ووضعا كل يد في قيد حديدى متصل بالطاولة ثم ذهبا إلى الرأس ووضعاها بين طوقٍ معدني طرفاه مغروسان بالطاولة.. ثم ربطا بطنه بأحزمةٍ جِلدية في منتصف الطاولة.. سمع يوسف ضحكةً قصيرة من حسام قبل أن يقول:

- حاول تستمتع بوقتك بقى.

قالها قبل أن يَسمع يوسف وقْعَ أقدام تغادر والباب الفولاذى يغلَق.. منذ اللحظات الأولى لتقييده بهذا الشكلٍ أدرك يوسف معنى العذاب الذي كان يرمى إليه الضابط.. فهو مقيد العينين والفم بشدة.. مقيد إلى طاولةٍ حديدية كل طرفٍ في جسمه بعيدٌ عن الآخر لا يتلامسان.. حاول بكل ما بقى له من قوة التخلصَ من أي قيد له لكن دون جدوى..

كانت الأغلال لا تتحرك حتى مِن موضعها.. الآن لا يملك سوى عقله الذي يستطيع التحكم به.. حاول إرخاءَ أعصابه ومحاولة النوم حتى لا يشعر بالوقت يمر عليه وهو بذلك العذاب.. لكن أبَى جسمُه وعقله النومَ وهُمَا على تلك الحالة.. لم يعد محتملا الجوع القارص والحلْق الجاف والظلام والشلل الذي أصاب جسمَه، لو بقى على هذا الوضع أكثر من يوم سيعترف بالتأكيد بكل ما يريدونه.. كان يظن نفسه أنه أقوى من ذلك.. لكن حقا عذاب لا يحتمَل.. مجرد تخيل فكرة أن سيبقى على هذا الوضع طويلا أصابه الرعب، معنى أن تكون مقيد من كل الأطراف. . حتى الرأس لا تستطيع الالتفات بها، فقط العقل هو ما يعمل.. شعور بالقهر والانهزام والذل والألم أصاب يوسف.. تمنى في قرارة نفسه أنه لم يعتدِ عليه من البداية.. قفزت سارة إلى ذهنه فجأة. . سأل نفسه هل يستحق حبها أن يرى كل هذا؟، ردَّ قلبه بنعم، وردَّ عقله بالنفي.. كان عقله يقول سابقا إنها سببه الوحيد للحياة.. لكن بعد وضعه تحت الضغط والألم هل يمكن أن يتخلى عن حبيبته.. ؟حقا هي تستحق أن يتحمل من أجلها هذا العذاب.. قطع أفكارَه فجأة صوتٌ كصوت خربشة في الحائط.. استمر ثوانيَ ثم انقطع.. يقولون إنه عندما تفقد أياً من حواسك الخمس يزيد لديك التركيز والقوة في حاسة أخرى.. وهنا يوسف يقبع في ظلام تام وصمت تام فبالتأكيد حاسة السمع تعمل بأقصى قوتِها.. عاود ذلك الصوت بقوة أكبر قليلا

وليس فقط خربشة حائط، بل صاحبه صوتُ نمنمةٍ كنمنمة فأر... ارتعب يوسف من ذلك الاستنتاج.. فأكثر ما يَكرهه في حياته هو الفئران.. تلك الكائنات البغيضة التي تثير في الجسد اشمئزازا وتقززا بمجرد رؤيتها أو لمسها.. ازداد الصوت في أُذُنه مما تأكد له إنه صوت فأر في أرضية الزنزانة.. مهلا هناك ازدواجية في الصوت.. وصوت أقوى من الآخر.. يبدو أنها فئران.. ارتعب يوسف من الفكرة وتمنى أن لو ظلا مكانهما في الأرض.. تلاشت أحلامه وتبخرت بمجرد سماع طقطقة معدن.. يبدو أنهما يقرشان في الطاولة المعدنية.. ارتعش جسدُ يوسفَ من الخوف.. إنه حتى في أسوأ كوابيسه كان يخشى ظهورها، سرت قشعريرةٌ باردة فجأة في جسده عند ملامسته لشيء ذي فروٍ يتحرك بجانب يده.. لقد وصل إليه.. حاول التحررَ من قيوده بكل ما أُوتي من قوة.. دون جدوى.. حاول الصراخَ بقوة.. لم يُخرِج سوى همهماتٍ مكتومة.. قفز الفأر فجأة إلى بطنه يتشممها في حذر ويتجه إلى أعلى إلى رأس يوسف.. حاول يوسف إزاحته برأسه لم يفلح سوى في جرح رأسه من ذلك الطوق المعدنى... وقف الفأر على وجهه.. شعر يوسف برائحته الكريهة تلهِب أنفاسه، وسائل لزِج يتساقط منه على وجهه يتسلل رغما عنه إلى أنفه وفمه المفتوح رغما عنه لأنه مكمَّم.. شعر بالفأر الآخر يقرض في أصابع رِجليه بقوة.. وآخر يقرض في أطراف أصابعه.. ليسوا اثنَين فقط إذاً.. ازدياد الصوت يوحي بالمزيد والمزيد من الفئران... شعر يوسف بها تقفز فوق كل أنحاء جسمه..

تقرض كل جزء بجسمه... أنيابها تغرس بكل مكان بجسده.. حلمات صدره.. عضوه الذَّكَري.. ضاعت صرخات يوسف ومحاولات تحطيم قيوده تتلاشى شيئا فشيئا.. شعر بالدماء تنفجر من قدمه وأصابعه ووجهه مع ذلك الأخير الذي اختار الأنف ليغرس أنيابه بها ليلتهمها.. الدماء تنفجر من كل مكان بجسده.. لم يعد يهمه الجوع القارص والحلق الجاف.. لم يعد يهمه أن يحبس أو يشنق حتى.. لم يعد يهمه حبه.. نعم.. لم يعد يهمه.. فقط يريد الخروج من هنا بأى طريقة.. صرخ حتى خُيِّل له أن أحباله الصوتيةَ قد تقطعت.. بدأ تنفسُّه يضيق حتى شعر أن الهواءَ يدخل له من ثقب إبرة.. زاد معدل ضربات قلبه حتى أصبحت تنافس طائر الطنان في السرعة.. دوار رهيب تَمَلَّكه ولم يستطع مقاومته حتى سقط فاقدَ الوعي.

الفصل الثامن

كان الشتاءُ قد بدأ يعلن عن نفسِه في صباح ذلك اليوم من منتصف أكتوبر، فلم يكتفِ بإرسال بعض تياراتِ هواءٍ قوية من الرياح الموسمية التي تتطاير معها القبّعاتُ وترفع تنورات الفتيات.. بل أصر على إكمال المشهد بنزول بعض الأمطار الخفيفة التي مهما حاولتَ الاحتماءَ منها فهي تسقط دائمًا في مؤخرة عنقك لتعطيك لسعة خفيفة تخبرك بها أنك لن تفلت منها.. كان ذلك حينما كان ثائر يحاول اللحاقَ بموعده مع أحمد عبد الفتاح مدير مكتب الجريدة، منعته من ذلك زحمة السير في ذلك الوقت من الصباح مما أجبره على الوصول متأخرا ساعةً على الأقل.. مع ذلك قابله أحمد بحفاوةٍ وحماس شديديّن قائلا :

– ايه يا عم النجاح ده كله.. انت في مقالين بس بدأت تعمل اسم ليك وتخلى الكل يبص ليك

رد ثائر بابتسامة وهو يحاول أن يفهم ما حدث:

- مش للدرجه دى يا افندم.. بس هو ايه اللى حصل

تابع أحمد في حماس:

- المقال بتاعك اللى كتبته عن الواد اللى اسمه يوسف قلب الدنيا.. انت عرفت توصِّل للناس فعلا اهمية وخطورة المواضيع دى.. البلد دلوقتى في وقت عصيب وفيه كتير بيحاولوا يزعزعوا استقرارها وفيه ايادى كتير بتلعب عايزة تخربها.. واحنا دورنا ومسؤوليتنا نسلط الضوء على الناس دى عشان نكشفها.. فيه عناصر كتير بتستغل الحاجه والفقر بتوع ولادنا ويستغلوهم في كدا.. أنا مبسوط منك يا ثائر.. المكتب في القاهرة بعتولى اقولك تحضر نفسك انت هتبقى هناك على طول.. انت هنا كنت بتتدرب ومن خلال مقالتين بس اثبت ان انت جدير انك تبقى معانا على طول.. عاوز اقولك ان مقالك ده نزل مكان مقال أستاذ أحمد جوده.. عشان هو اتطلب منه برضو مقال زى كدا نوعّى بيه الناس، بس مقالُه كان تافه وسطحى.. فخلّى بالك انت بقى ليك اعداء هناك.. اكيد هيحاولوا يوقّعوك.. انت عارف اعداء النجاح.. فخلّى بالك منهم.. وربنا يوفقك

كانت تعبيرات ملامح ثائر تدل على عدم اكتراثه بوصلة المدح والشعر التي بدأها منذ مجيئه.. كانت ملامحه صارمةً وكأن لم يعجبه كل ما

سمع.. شيء بداخله يخبره بأن هناك شيئا خاطئا.. الأمور لا تجرى هكذا.. هناك شيء خاطيء هو موقِن من ذلك.. لكن فراسته لم تقُدْه إليه.. فزفرَ في ضيق قبل أن يقول:

– مش مهم أنا عندى كل ده.. المهم إني مكونش ماشى غلط.. وبالنسبه لموضوع القاهرة.. سيبنى يومين وهرُد عليك.. ولغاية ما ارُد عليك.. أنا مش هكتب حاجه تانية عشان مشغول شوية

ردَّ أحمد بنفس الابتسامة اللزجة:

– طبعا طبعا يا حبيبى.. خد وقتك خالص.. اهم حاجه انك متخليش الكلام ده يغُرّك ولا حاجه وتتقل علينا

أنهَى جملتَه بضحكه ثقيلة اهتز معها جسدُه الممتلىء قليلا قبل أن يتابعه ثائر في ضيق وهو ينهض قائلا:

– ان شاء اللّه.. سلام بقى دلوقتى عشان عندى مشاوير

قالها ولم ينتظر ردّا وانطلق مغادرا المكتبَ والمبنى بأكمله.. قاد سيارته عائدا وتساؤلات كثيرة تقفز إلى عقله.. ما سبب الضيق الذي يشعر به؟ لماذا لم يسعد بما سمعه اليوم؟ هل ذِكره للقاهرة جعله يفكر في كارمن وبُعدِه عنها؟.. لا بالتأكيد. . ليس ذلك السبب.. هكذا حدَّث نفسه.. فالقاهرة ليس بسَفَر. مجرد ساعتين بالسيارة ويكون هنا.. إذاً ما السبب؟.. هناك صرخة بداخله تخبره بأنه هناك شيئا

غير صحيح.. وهو دائما ما يثق في إحساسه.. هو أعطى مهلةً لنفسه حتى يتمكن من فهم ما يشعر به.. أيضا شيء آخر يشغل باله ويؤرق نومه.. لغز والده.. ذلك اللغز الذي يقف أمامه عاجزا.. صفاء الذهن والموسيقى التي يحبها كافيانِ بجعل حل اللغز ممكنا.. أخرج سى دي مكتوب عليه (دينا الوديدى) ووضعه في مسجّل السيارة.. حاول نفض كل ما يشغل باله.. ساعده الجو الممطِر بالخارج والسماء الملبدة على ذلك.. كم يعشق ذلك الجو. . سرعان ما انسابت الموسيقى لتحمل صوتا دافئا يبعث في الأوصال راحة وسكونًا.. صوت رقيق يحمل كلماتٍ قويةً.. هكذا يصفه دائما.

" عارفك مش تايهه.. ولا عارفة فين الطريق والمكان والحقيقة

لكن في حاجة جريئة وبريئة... ينفع تدوب في القلوب الرقيقة

يا أمل يا حاير.. يا ماشى في دواير

يا نايم وصاحى.. في كل السراير"

أراح ثائر رأسَه قليلا إلى الوراء أثناء القيادة تاركا روحَه تسبح مع الموسيقى.. غيَّرَ وِجهةَ قيادتِه متجها إلى حدائق المنتزه.. لن يجد هدوءا أفضل من تلك الطبيعة في ذلك المكان ليفكر في اللغز.. في الحقيقة ليس اللغز فقط هو السبب في ذهابه إلى المنتزه في ذلك الصباح.. سبب آخر قوى.. فهو ذهب لسماع صوتٍ معين.. صوت

طالما عشقه.. صوت عندما يمتزج بالطبيعة في ذلك الوقت فإنه يُخرِج سيمفونية يعجز كورساكوف نفسه عن عزفها.. على الأقل بالنسبة له.. إنه صوت الغربان.. لا تتعجب.. فثائر عاشقٌ لصوت الغراب في الصباح.. على عكس جميع البشر.. فإنه يجد في نعيق الغربان بين الأشجار في الصباح هدوءا وتفاؤلا.. كثيرا كان يهرب مِن كل ما حوله ويأتي لذلك المكان ليستمتع بذلك الصوت ويفكر في حياته.. اهم قرارات له أخذها هنا.. شعر بنشوة في جسده عند تذكّره ذلك الجو الذي طالما اشتاق إليه.. وأخذ يلقى الاتهامات على البشر الذين لا يفهمون ما في الغراب من قوةٍ وحكمة ويتخذونه نذيرا للشؤم والنحس.. هُم فقط تربّوا على ذلك.. معتقدات لا أساس لها يأخذونها كمسلَّماتٍ في الحياة.. ومنها أن الغرابَ نذيرُ شؤم وكائنٌ بغيض.. ونَسوا أو تناسوا أن أول درسٍ في تاريخ الإنسان كان علىً يد غراب.. عندما أرسله اللّه يعلِّم ابنَ آدمَ كيف يدفن أخاه بعد ما قتله.. تعلَّم الإنسانُ طريقةَ الدفنِ ولكنه لم يتوقف عن القتل.. فقط لو تابع دروسه على يد الغراب لَمَا كانت حالنا كذلك اليوم.. فالعدل يقام في مملكة الغربان أكثر مما يقام عند البشر.. ففي مملكة الغربان تقام محاكمُ وفيها يحاسَب أي غرابٍ أذنب أو أخطأ طبقا لقوانينهم.. وكل جريمة لها عقاب مختلف عن الأخرى.. فالغراب المعتدي على طعام الأفراخ الصغيرة عقوبته أن تقوم جماعة من الغربان بنتف ريشه بأكمله حتى يصبح عاجزًا عن الطيران.. أمّا الغراب المعتدي على أنثى غرابٍ آخر فعقوبته أن تقوم

جماعة غربان بنقر جسده حتى الموت، والمحاكم تقام في حقل من الحقول الزراعية ويأتي الغراب المذنب منكسَ الرأس اعترافا بذنبه تحت حراسة مشددة.. حتى يتم الحكم عليه فتنقضّ الغربان الأخرى عليه لتنفيذ الحكم.. هكذا يُقام العدل.

وصل ثائر إلى المنتزه.. ركن سيارته خلف فندق فلسطين بجوار الشاطيء.. ولم يخذله حسُّه فما إن وصل حتى انطلقت الغربان تعلن عن وجودها وترحب به، ترجَّل من السيارة ساحبا معه اللاب توب الخاص به وجلس على مقعد رخام أمام الشاطىء.. ترك أفكاره تسبح قليلا مع تلك الطبيعة قبل أن يضع اللاب على رِجلِه ليفتحه ويذهب للبحث عن كل الشوارع التي تحمل اسم الإسكندر الأكبر.. سرعان ما ظهرت له نتائج البحث تحمل له عدةَ شوارعَ بمصرَ تحمل نفس الاسم، لكن بدا أن أهمها ثلاثة شوارع.. واحد بالقاهرة، والثاني بالأزاريطه بالإسكندرية والآخر في أسيوط.. فتح خريطة شارع الإسكندر بالإسكندرية لعله يجد شيئا مميزا لكن دون جدوى.. فتح خرائط الشوارع الأخرى يبحث عن أي طرف أو خيط.. لكن دون جدوى.. اتصل بوالدته يسألها إذا كان لهم أي أملاك في منطقة الأزاريطه أو في مصر أو في أي مكان خارج الإسكندرية.. نفت والدته ذلك وأكدت له أنها ستبحث مجددا بين الأوراق لعلها تجد شيئا.. عاود اليأس مجددا ثائر.. رأى غرابا يقف على غصن شجرة عاليا من بعيد ينظر له بترقب.. نحَّى ثائر اللابَ

جانبا.. اقترب من الشجرة التي يقف عليها الغراب.. وقف طويلا ينظر له بصمت دافنا يدَه في جيب جاكيته.. همس في ضيق سائلا للغراب: ألمْ يحِن الوقت بعد لتعلِّمني كيف أحل هذا اللغز.. ؟ لحظات من الصمت الطويلة قبل أن يجيبه الغراب في نعيقٍ مكتوم.. فَهِمَ على أثرها بأنه لم يحِن بعد.. لم يحِن الوقت بعد..

×××

فتحت كارمن عينيها في تكاسل وفردت ذراعيها جانبًا قبل أن تنهض من فراشها وتسير في بطء بنصف عينٍ مفتوحة لتلتقط هاتفَها من فوق مكتبها.. تتفحص الساعةَ وهى تتمنى أن يكون الوقت ما يزال باكرا قبل أن تصدمها أرقام الساعة على هاتفها التي تشير إلى الثانية عشرة ظهرا. . عادت إلى فراشها ممسكة بالهاتف تتفحص الرسائلَ والمكالمات قبل أن تلج إلى صفحتها على الفيس بوك.. فهي كالشمس والهواء بالنسبة لها.. إدمان يصعب الشفاء منه.. وهذا حال الكثير منا اليوم.. أخذت تتفحص صفحتها في ملل.. نفس ما يحدث كل يوم هو هو ما تراه.. أحدهم انفصل عن حبيبته، واحد آخر ارتبط، والبعض يشتم في النظام والبعض يشتم في الإخوان.. وتفجيرات جديدة وإصابات كثيرة.. نفس الاستمناء الإخباري والفكري اليومي.. تابعت كارمن كل ذلك بملل قبل أن ينعقد حاجباها في شدةٍ وتنهض من فراشها في سرعة وهى تقرأ شيئًا ما في اهتمام شديد.. كان صاحب الموضوع

الذي تقرؤه هو أحمد صديقها.. مَن كان صارَحَها بحبه سابقا وهى فضَّلت صداقتهما.. لم تسمع عنه شيئا منذ حينِها.. حتى لم يظهر على الفيس. ولكن يبدو أن ظهوره سيقلب كل الموازين.. ازداد تجهم وجهِها وهى تشاهد فيديو ملحقا بما قرأته.. ما إن فرغت مما شاهدته حتى أخذت تبحث بين الأرقام في توتر قبل أن تتصل برقم معين وتنتظر الردَّ في لهفة:

- آلو.. ايه يا ثائر انت فين؟ انت صاحي؟

جاءها صوت ثائر على الجانب الآخر يقول في هدوء:

- ازيك يا كارمن.. آه صاحى من بدرى.. أنا لسه راجع البيت اصلا

- طيب افتح النت دلوقتى بسرعة هبعتلك حاجة مهمة لازم تشوفها.. افتح الفيس بتاعك

-حاضر. . هفتح اهو

فتحَ ثائر في سرعة حسابَه على الفيس.. أرسلت له كارمن رابطا لموضوع على صفحة شخص.. فتح ثائر الرابطَ ليصطدم بمقالٍ طويل منتهٍ بفيديو.. أخذ يقرأ في اهتمامٍ المكتوبَ وكان كالآتى:

السلام عليكم ورحمة الله.. أنا اسمى أحمد حمزة.. ليا اصدقاء كتير هنا عارفنّى معرفة شخصية والبعض الآخر عارفنّى كاسم وصورة بس على الفيس.. أنا كنت ابتعدت عن مجال التصوير فترة بسبب ظروف

شخصية واتجهت لكتابة السيناريو والأفلام القصيرة.. مكنتش هعرف اركز في المجالين مع بعض- صاحب بالين كداب-.. المهم بعد ما انتهت الظروف دى. . رجعت تاني لمجالى اللى بحبه واللى بلاقى نفسى فيه.. بعد ما رجعت بفتره بسيطه لقيت الرائد (..... ..) بجهة امنية.. بيكلمنى بيقولى احنا عاوزينك تشتغل معانا.. مفهمتش في الاول ايه اللى يقصده بتشتغل معانا... ايه اللى هيحتاجوه من واحد زيّ.. قالى يعنى لما يكون في مظاهرات ولا حاجه بنبقى عاوزين مصور محترف يصورها كلها عشان نقدر بعد كدا نشوف لو في عناصر بتخرب مندسة أو عناصر هربانة أو أي حاجه من دى.. قلتله على حد علمى بأن الداخلية عندها ادارة اعلامية مختصة بكل ما هو اعلامى.. قاللى بصراحة أنا عاوزك بشكل شخصى.. عشان ده شغلى انا.. وانا اكتر واحد يهمنى امن البلد بحكم شغلى.. وهدّيك طبعا اللى انت عاوزه.. فقلتله موافق مفيش مشكلة.. المهم لما نزلت مظاهرة الإسكندرية عند المديرية.. صورت كل اللى حصل وبعته.. فوجئت بعديها بيوم أو يومين ان الفيديو اللى أنا صورته بيتذاع في كل القنوات الرسمية والفضائية.. المشكلة مش في كدا.. المشكلة ان الفيديو ده اتعرض بعد ما اتعمله مونتاج محترف عشان يطلع اللى هما عايزينه بس.. أنا حاطط في اخر الموضوع لينك الفيديو كله.. هما بيعرضوا بس الحته اللى فيها يوسف بيجرى يعتدي على الظابط، والعساكر وهى بتجري ناحيته وبس.. لكن الحقيقة غير كدا خالص.. الحقيقة

ان يوسف ده اساسا ملوش أي علاقه بالمظاهره.. أنا شايفه جاى يجرى من بعيد من شارع جانبى.. يعنى مكنش في المظاهرة اصلا.. وبعدين جري على الظابط ده يضربه فعلا عشان الظابط ده كان لسه ساحِل بنت من المظاهره ورَميها في الارض.. وانا ندمان ومكسوف من نفسى إني مدخلتش أنا ادافع عنها.. مش عارف إزاي ايدى اتشلت على الكاميرا مش عاوزه تنزلها.. بس أنا فرحان إني صورت كل ده عشان الحقيقة تبان.. بعد ما شفت اللى حصل على التلفزيون وبعد ما قريت المقال اللى كتبه أستاذ ثائر مراد.. مقدرتش اسكت اكتر من كدا.. ايوه في الاول كنت خايف اتكلم.. خايف يحصلى حاجه.. بس خلاص... العار كله إني اعيش وانا جبان.. وحرام الناس اللى راحت في الموضوع ده.. وبقولها لكل الناس.. يوسف بريء يا جماعة.. يوسف بريء.. متصدقوش اللى بيتقال عنه.. ويا ريت تسامحونى عشان سكوتى كل ده.. ويا ريت أستاذ ثائر يراجع نفسه بعد ما يشوف الفيديو ده.. وعلى فكرة هتلاقوا صفحة سارة.. وساره دى البنت اللى الظابط سحلها في الفيديو.. ممكن تتأكدوا منها.. وهتلاقوا صفحة الحرية ليوسف هارون.. يا ريت كلُه يشترك فيها وينشرها عشان الحقيقة توصل لكل الناس.. خلّوا اعلامنا احنا اقوى من اعلامهم.. اللينكات اهى كلها....

مع كل كلمة كان يقرأها ثائر كان يشعر بفوران الدم في عروقه.. حتى شاهد الفيديو بأكمله.. شاهد كيف بدأ الضرب.. وشاهد مشهد

ضرب الضابط للفتاة والشاب الذي كان يركض من بعيد مندفعا إلى الضابط.. حتى مشهد سحْلِ العساكر لهذا الشاب بعد ما وصلوا له.. كل ذلك لم يعرض.. رجع ثائر للموضوع ذهب لآخره ليترك تعليقا.. فكتب.. " أنا ثائر مراد.. رأيت فوعيت فأسفت... فانتظِر الرد"

تذكَّر ثائر بأنه ترك كارمن على الهاتف فنظر إليه وجدها أغلقت الخط.. بحث بين الأسماء سريعا حتى ظهر اسم احمد عبد الفتاح.. طلبه في سرعة وملامح الغضب تسيطر على كل جزء من جسده.. وقف ينتظر بصمت متحفزا الرد من الجانب الآخر كقنبلةٍ موقوتة في انتظار ساعة الصفر للانفجار.. مرت الثواني ببطء قبل أن يأتيه صوت مستفز من الجانب الآخر يقول بمرح:

- ايوا كدا يا حبيبى.. أنا قلت برضو انك مش هتقدر تبعد عننا

- انت وسخ

- ايه !!!.. ايه اللى بتقولو ده؟!!

كررها ثائر في غضب:

- بقولك انت وسخ.. انت وكل اللى حواليك واللى فوقيك.. أنا شفت الفيديو الاصلى وعرفت كل حاجة.. أنا يتلعب بيا كدا؟ أنا هوريكوا

تبدلت نبرةُ المرح إلى حدةٍ على الجانب الآخر وهو يقول:

- بقولك ايه.. ما تِعشّ الدور اوى.. انت مفكر نفسك حاجة ولا ايه.. ده انت لسه ألف باء صحافة.. وبيك أو من غيرك ده كان يحصل.. بس احنا اخترناك انت عشان لقينا أسلوبك حلو من بعد المقال الأول.

صاح ثائر به في غضب قائلا:

- انا هوريك اللى لسه ألف باء ده هيعمل ايه... انا هفضحكوا في كل حته.. أنا كنت غلطان إني صدقتكوا يا شوية كلاب

قالها ثم أغلق الخط بقوة وألقى الهاتف على السرير.. قبل أن يرن مرة أخرى حاملا اسم كارمن.. التقطه في سرعة قبل أن يرد:

- ايوه يا كارمن

- ايه يا ثائر.. قريت اللى كتبه أحمد؟

- اه قريت وشفت الفيديو كمان

- ممم طب وهتعمل ايه دلوقتى؟

- هكتب..

-هتكتب؟!!!.. هتكتب ايه مش فاهمه؟

- ما أنا مفيش في ايدى حاجه غير إني اكتب.. هكتب عن الكلاب دول واللى زيهم.. هكتب عن كل حاجه في البلد.. الاعلام-التعليم-الفساد.. كل حاجة هكتب عنها.. هقلب الترابيزة على الكل.. همشى

ورا كل واحد فاسد لغاية ما افضحه.. هو ده هدفى بعد كدا

- اللّه ينور.. ايوا افضح الناس دى كلها خلى البلد تنضف منهم

- لا إنتي فهمتى غلط... البلد عمرها ما هتنضف منهم... بس على الاقل الناس تعرف وتفهم وتفوق.. بالرغم إني عارف ان الناس توصل للمرحلة دى صعبة جدا

- ليه نبرة اليأس اللى في صوتك دى يا ثائر؟

- مش يأس... ده واقع.. ولو انكرته يبقى أنا عايش في الخيال

- ما هو بالخيال هنقدر نغيّر الواقع يا.... . ح حبيبى

لم ينتبه ثائر إلى كلمة حبيبى التي خرجت متقطعةً في صوت كارمن مما ترك على ملامحها حزنا رقيقا وهو يقول:

- الخيال للحالمين فقط.. امّا الواقع فمش هيتغير غير بالفكر.. الناس لو مفهمتش عمر ما واقعنا ده هيتغير.. لان الناس همّا الوقود اللى بتعتمد عليه الفئة دى.. وقود بيتحرق مع كل خطوة بيمشوها. . ومش مشكلة لو خلص.. فيه وقود تاني غيره.. لو كل واحد فينا قرر انه عمره ما هيبقى وقود تانى.. وان اللى بيحصل لازم ينتهى.. ساعتها بس واقعنا هيتغير.. والناس مش هتفهم غير لما تقرا.. وعشان تقرا لازم حد يكتب.. وعشان كدا هكتب.. لو وسط مليون واحد قرا كلامى وواحد بس اقتنع أو فهم.. يبقى كدا فيه أمل

- أنا معاك في كل الكلام ده.. بس بلاش نبرة اليأس دى.. ان شاء اللّه فيه أمل

- شكرا يا كارمن.. أنا هقوم بقى اغيّر هدومى واعمل كوباية شاى عشان حاسس إني مصدّع اوى.. وهحاول اقعد اكتب شوية

- ماشى يا حبيبي.. ربنا معاك.. مع السلامة

- مع السلامة

انتبه وهو يغلق الخط إلى كلمة حبيبى.. لكنه لم يتركها تحتل كثيرا من تفكيره.. فنهض ليخلع ملابسه قبل أن يأخذ حمّاما دافئا حاول به أن يزيل كل ما تعلق به من مشاعرَ سيئةٍ وغضبٍ وسخط.. أعد كوبا من الشاي وارتشف أول رشفه منه وهو يفتح اللاب توب الخاص به.. يفتح صفحتَه على الفيس.. وضع الشاي جانبًا وبدأ يكتب:

أنت لستَ حُرًا :

- هل تظن أنك حُرٌ حقا؟... هل تظن أن أفكارك ومعتقداتك ورؤيتك للأمور هي وليدة عقلك وحده؟.. للأسف أنت لستَ حُرا.. بكل مقاييس الأزمنة والأمكنة.. أنت لستَ حُرا في أي شيء في حياتك.. إن كنتَ لا تصدقني ولك الحق في ذلك.. دعنى أوضح لك بعض الأمور التي قد تكون غائبة عنك.. دعني ولو قليلا أزيل الستار عن جزءٍ صغير جدا من حقيقة نجهلها كلنا.. دعني أتكلم فقط وإن كنتَ لا تصدقني. . فقط

حاول أن تبحث بعدي أنت بنفسك.. ما عليَّ سوى الكتابة وما عليك سوى القراءة وما بعدها فهو الشيء الوحيد الذي ستكون حُرا فيه.. قرارك

لا أعرف حقا من أين أبدأ.. فالقائمة طويلة وكل شيء سيء حقا.. لن أحاول أن أُجمِّل لك الصورة.. فأنا أريدك أن تراها مثلى على حقيقتها... أريدك أن يصل بك الغضب إلى أقصاه مِثلي.. لذا سأبدأ. .... بالإعلام

١-الإعلام

تستيقظ كل يوم صباحًا.. تشاهد شاشتك ذات الـ ٣٢ إنشًا.. لتطل عليك مذيعة جميلة تتلقاك بوابل من الأخبار والتقارير ٧٥ حالة عنف و٣٠ حالة انتحار، وعمليات إرهابية واستشهاد جنود على الحدود، وتصادم أوتوبيس محمّل بالأطفال.. كل ذلك تلقيه عليك بهدوء وكأن ذلك هو الطبيعي.. ذلك هو الذي من المفترض أن يحدث وليس العكس.. هي فقط تلقي بإحصائيات الضحايا التي عددهم الحقيقي أضعاف ما تسمعه.. بإمكاني أن أقول لك أخبار اليوم وما سوف يحدث غدا.. بإمكاني ذلك.. ألا تشعر أن نفس ما تسمعه هو ما تسمعه كل يوم.. الاختلاف فقط في العدد والأماكن.. تعود مرة أخرى لتصرخ في وجهك هذه المرة وهى تحذرك من أن نسبة البطالة في ازدياد

رهيب، وأن الطعام الذي تأكله بيدك الآن مسرطن.. وأن الهواء الذي يتسلل لك من الشرفة ملوّث.. ألا تشعر معي بوجود شيء خاطئ؟؟.. أتشعر أن الأمور تسير كما يجب أن تكون؟؟.. يريدونك أن تهرب من العالم الخارجي وتجلس فقط تشاهدهم.. تذهب إلى عملك وترجع سريعا لتجلس أمامهم.. يريدون سلب عالمك الحقيقي بعالمهم الافتراضي.. لأن العالَم الحقيقي أسوأ بكثير مما يقولون.. إذا توقفتَ عن مشاهدتهم والتحمتَ بالعالم الخارجي ستصدَم وتُجَن وتثور.. إنهم لا يريدون ذلك.. يريدونك فقط أن تتلقى ما يريدون هُم أن يخبروك به.. هُم قادرون على ذلك.. بل قادرون على ما هو أكبر من ذلك.. إعلامنا الجميل الراقي قادر على إقناعك بأن عدد أيام الأسبوع ثمانية وليس سبعة.. بل قادر على أن يقنعك أنها في الأصل ثمانية ولم تكن أبدا في يوم ما سبعة. إذاً تَبَنَّ هذه الفكرةَ.. سيسخِّر كل قوته لذلك.. ستجد كل القنوات تتحدث عنه.. ستقام الاحتفالات فقط في اليوم الثامن.. ستبقى الإجازة الأسبوعية في اليوم الثامن.. في البداية لن تقتنع ولن تصدّق.. مع التكرار والضغط ستؤمن بأنه منذ الخليقة وأيام الأسبوع ثمانية وليسوا سبعة، بل وستهاجم مَن يحاول أن يقول لك إنها سبعة. ستتهمه بالعَمَالة والتخوين.. هل حقا الإعلام قادر على ذلك؟.. بل قادر إلى أبعد من ذلك.. مما أراه الآن.. فهو قادر أن يفعل أي شيء.. فبعد أنِ اتضح للناس كذبهم وتضليلهم في ٢٠١١ أراهم مرة

أخرى سلّموا عقولَهم لهم بل ويدافعون عنهم ويثقون بما يقولونه... هل بدأتَ في الحنق والغضب مثلى؟ إذا لمّ فتابِعْ... إعلامنا الجميل الراقي يضعك في نظريةٍ عقيمة وهى فرضية الاختيارين.. هو يضع أمامك خيارين فقط ولا ثالث لهما.. فهو إمّا أن تكون معهم وتصدّق ما يقولونه أو تكون ضدهم ولا تصدّق وبذلك أنت عميلٌ وإرهابي.. يصنفوك كذلك بالرغم من أنه يوجد اختيار ثالث بعيد كل البعد عن ذلك ألا وهو أنك لستَ معهم ولا مع الإرهابيين.. أنت ضد كلٍّ منهما.. فتجد نفسك تريد أن تصرخ... أيها الأغبياء لِمَ لا تفهمون.. ؟ أنا لستُ منكم ولستُ منهم.. لكُم دينُكم ولهم دينُهم ولي ديني.. لِمَ لا تفهمون ذلك... ؟ صدّقني إنهم يعلمون ذلك ولكن يريدون إظهار صورتك فقط كذلك حتى لا تهاجمهم... فتجد نفسك بدلا من أن تهاجمهم تدافع عن نفسك.. أنا لستُ مع أي جماعات.. أنا لستُ مع الإرهاب.. أنا ضدكم وضدهم وضد كل مَن يحاول أن يضلل عقلي.. فلا تجد أحدا يسمعك أو يصدقك.. لأن ٩٠ ٪ أو اكثر من الشعب لا يقرؤون.. هُم فقط يشاهدون التلفاز ولا يصدقون أي شيء آخر يأتي من خارج هذه الشاشة.. ولا تستَهِن أبدا بهذه الشاشة فمَن يتحكم بما يعرض بها.. يتحكم بعقول ملايين.. هذه الشاشة بإمكانها أن تطيح بحكام وتهدم دولا.... ألا ترون معي هذا؟.. أم أنا فقط مَن أرى هذا؟؟... ألًا ترون معي أننا قد تحولنا إلى إنسان آلي يتلقى أوامرَه عبر هذه الشاشة؟؟... نأكل مثل

ما تقوله لنا الشاشة بما تعرضه من قنوات للأكل، نلبس كما تقول لنا الشاشة، بل ونتكلم أيضا مثل ما تقول لنا الشاشة. أصبحت إفيهات الأفلام والمسلسلات وبرامج التوك شو مصدرا لتطوير لغتنا الجميلة.. بعد كل هذا... ألا تريد أن تفكر كما تقول لك الشاشة؟ نعم... إنك تفكر وتفعل كل ما تقوله لك دون نقاش ودون أن تشعر... هل استطعتُ أن أوقظك قليلا؟ أمَا زلتَ تغط في سباتٍ عميق من الجهل وعدم الوعي؟.. نعم أنا أسبُّك وأشتمك.. فأنا أريدك أن تغضب ولو قليلا.. لماذا هذا الهدوء الذي تتابع به كل ما يحدث؟... أنا لا أريدك أن تصدقني... أنا أريدك أن تتهمني بالكذب.. أريدك أن تغضب لهذه الكلمات وأن تتهمني بالكذب... فقط أريدك بعد أن تفرغ من القراءة أن تَخرج لترى كل شيء على الطبيعة.. إذا رأيتَ إطلاقَ نارٍ على التلفاز وأعمال شغب بمكان ما... اخرجْ لترى بنفسك.. لا تصدّق كل ما يُعرَض لك.. لأنهم لا يعرضون الحقيقة.. لا تصدق كل ما تسمع منهم.. لأنهم لا يقولون إلا الكذب... كذبَ الإعلاميون ولو صدَقوا... أريدك أن تبحث أنت بنفسك عن الحقيقة.. أريدك أن تقرأ وتقرأ وتقرأ... أريدك أن تتلقى الخبر ثم تفكر ثم تبحث خلفَه عن الحقيقة، الحقيقة في ظل عالمنا هذا نادرة لكن عناء البحث عنها أثمن من البقاء في مستنقع الجهل وعبودية الفكر... أنا أخطأت عندما هاجمت يوسف.. فأنا مثلك تم خداعي.. ولكن بعد أن عرفت حقيقة ما حدث.. قررت أن أسحب

معى كل مَن يتم خداعهم يوميا تحت مسمى الحقيقة.. بعد أن تقرأ كثيرا.. بعد أن تعي.. بعد أن تفهم حقيقة ما يحدث... أريدك أن ترجع لى مرة أخرى لتجيب عن سؤالي.. هل كنتَ حُرا حقا؟

هؤلاء المذيعات والمذيعون يذكرونني دائمًا بأراجوازات السيرك وعرائس الماريونيت... يرددون مِن وراء قِناعهم ما يُملَى عليهم فقط.. ولا يبالون بحقيقة ما يتلقون.. وكل ما أريد أن أقوله لهم هو... كفَى... لا أريد أن أسمع المزيد منكم.. حقا.. لا تخبريني بالمزيد أيتها المذيعة الجميلة.

أيتها الجميلة.. كفَى مِن فضلك.. لا تخبريني.. لا تخبريني بأن البطالةَ في ازدياد.. فأنا أعلم ذلك.. فأنا عاطل عن العمل وأخي عاطل عن العمل وأبي تم إخراجه عنوةً على المعاش مبكرا بعد خصخصة شركته منذ سنين، وبعد تَلَطُّمِه بين براثن العمل الخاص ويبحث الآن معنا عن عمل.. فلا تخبريني بذلك.. فأنا أعلمه جيدًا.

أيتها الجميلة.. كفَى مِن فضلك.. لا تخبريني.. لا تخبريني.. بأنه تم استشهاد جنودٍ جدد على الحدود بسبب العمليات الإرهابية.. فأنا أعلم ذلك... فصوت نحيبِ وصراخ جارتنا التي فقدت ابنَها على الحدود ما يزال يتردد في رأسي منذ الأمس.. لم يذهب بعد.. فلا داعٍ لتذكّريني.

أيتها الجميلة... كُفَي من فضلك... لا تخبريني.. لا تخبريني بأني

سأموت قريبًا بسبب الطعام المسرطن والهواء الملوث والأطعمة الفاسدة التي نتناولها يوميًّا.. فأنا أعلم ذلك.. فانتشار السرطانات والأمراض ووفاة الناس بسبب تناولها طعامًا فاسدًا كل ذلك يخبرانني بذلك يوميًا.. فلا داعٍ لأن تذكّريني أنتِ به أيضًا.

أيتها الجميلة.. كفَى من فضلك.. لا تخبريني.. لا تخبريني بأنه من الخطر إرسال ابني أو ابنتي إلى المدرسة إذا كانت بعيدةً عن المنزل، فهي أو هو معرض للخطف أو الاغتصاب أو لحادث أوتوبيس مدرسته.. وأن الإهمال في المستشفيات الحكومية والخاصة قد وصل أقصاه.. أنا أعلم ذلك.. فابن أخي كان ضحية حادث أوتوبيس، وابنة صديقي كانت ضحية الإهمال في المستشفى حين شخَّصوا حالتَها بالخطأ وأجروا لها جراحة غير ضرورية أدت إلى وفاتها.. لا تخبريني بكل ذلك.. فأنا أعلمه وأحفظه عن ظهر قلب

لا تخبريني ولا تذكّريني بأن الموت حولي دائما... فصدقيني أنا أعلم ذلك.. أنا أعلم إني إن ذهبت للعلاج سأموت غالبا بسبب الإهمال.. وأنى إذا سافرتُ برّا سينقلب بى الأوتوبيس أو يحترق بى القطار، وأموت وسيُدفَع لأهلي خمسة أو عشرة آلاف جنيه.. هذا ثمني في بلدي أعلم هذا.. أنا أعلم أيضا إني إذا سافرت بحرا ستغرق بى السفينةُ وأموت.. سواء بطريقة شرعية أو غير شرعية فالنتيجة واحدة.. أنا أعلم إني إذا أكلتُ أو شربت أو تنفست سأموت بسبب كل ذلك مع أنه

مِن المفترض أن يكون الطعام والشراب والهواء وسيلة للحياة وليس العكس.. أنا أعلم إني إذا مللتُ من كل هذا وذهبت لأشاهد مباراة سأموت أيضا.. إذا سرتُ على قدمي ستصدمني سيارة مسرعة، إذا تكلمتُ وطالبت بحقوقي وبأن أعيش كإنسانٍ سأفقد أولا عيني اليمنى ثم اليسرى ثم أموت حسرةً على سراب عشتُ به يوما..

لا تخبريني بكل ذلك... نحن نعلم ذلك... فاتركي كل هذا واذهبي.. ارحلي بعيدا عن الكاميرا.. اذهبي إلى بيتك.. إلى غرفة نومك.. ستجدين زوجَكِ في انتظارك.... اخلعي عنكِ قناعك ورداءك.... وبدليهما بقميصٍ عارٍ يُظهِر مفاتنك... اذهبي إلى السرير.. وسلّمى نفسك له... هذا أفضل لكِ.

٢- العمل... استعباد

قديمًا. .. في زمنٍ ما.. في حياةٍ أخرى.. كان العملُ عبادة... الآن.. العمل استعباد.. بكل ما تعنيه من كلمة.. إنهم يسرقون من عمرك ثماني أو عشر أو اثني عشرة ساعة يوميًّا.. إذا كنتَ سعيدَ الحظِ وتعمل في وظيفةٍ روتينية فتعمل مِن السابعة صباحا حتى الرابعة عصرا في عمل لا يوفر لك أي متعة.. لا يحقق أياً من أهدافك.. هو عمل بعيد كل البعد عن مجال دراستك.. لا يساعدك في تحقيق ذاتك.. لتمر السنون سريعا وتتقاعد منه بعد ثلاثين عاما لتفاجَأ بعدها بالموظف

يسلمك بابتسامةٍ لزجة مبلغًا هزيلا يسمّى مكافأة نهاية الخدمة ليقول لك: تفضلْ.. هذا ثمن سنين عمرك التي قضيتَها كعبدٍ لدينا.. أنت حُر الآن.. تأخذ المبلغ وتكتشف أنه لم يعد لديك القوة ولا القدرة على التمتع بالحياة وستنفق ما تبقى لك من المال على الأمراض التي ألمَّت بك نتيجة ضغوط العمل. . كضغط وسُكّر وقلب، ثلاثون عامًا أو أكثر تعودتَ أن تكون عبدًا.. لم تتعلم أن تكون حُرا.. لذا سيصيبك الملل والضجر وتموت به

أمّا إذا كنتَ تعمل في القطاعات الخاصة.. فأنت الأكثر عبودية.. إنهم لا يحترمون قوانين العمل التي هي في الأصل غير آدمية.. تجد نفسك تعمل حتى اثني عشرة ساعة يوميا ولا يتم احتساب أي وقتٍ إضافي.. سيصيبك المدير بالرعب الدائم.. وإذا فكرتَ يومًا في الرفض أو التذمر.. إذا فكرتَ يوما أن تقول لا.. لن أعمل أكثر من الوقت المفترَض... ستجد زميلك يجلس في الزاوية ينظر إليك منتظرا أن تقول لا ليحل هو مكانك.. فتصبح أنت العاصي والمضرِب عن العمل ويصبح هو الملتزم في نظر المدير... تصل إلى نهاية الأسبوع لتأخذ راحتك الأسبوعية التي في الغالب ستقضيها نومًا نتيجة إرهاق أسبوع كامل عمل

إننى أعجب من مشهدٍ يتكرر يوميا ولا أعرف كيف لا يراه الناس كما أراه.. إنني أرى صباح كل يوم وجوها عابسة متلبدة تقف تنظر إلى

الفراغ تنتظر أوتوبيسَ العمل.. يأتي الأوتوبيس ليحملهم إلى مكان عملهم الذي غالبا سيكون في الصحراء.. ألا يذكّرك هذا المشهد الذي يتكرر يوميا بعبيد إفريقيا الذي كان يتم أسرُهم ويُساقون للعمل في الصحراء؟ هل تجد فرقا؟.. العبودية قديما كانت تحتم على الأسياد توفيرَ طعامٍ وسكن للعبيد... أمّا عبودية العصر الحالي فهي تحتم على العبد أن يوفر لنفسه هو الطعامَ والسكن... وفى الغالب لا يستطيع.. فالراتب الذي يحصل عليه مقابل نصف يومِه يكفيه فقط للبقاء على قيد الحياة... إنه لا يعطيك أبدا ما يكفيك للتحرر.. حتى ترجع للعمل مرة أخرى.. ندرة فرص العمل وزيادة البطالة هي ما تجعل الناس تقبَل بأجور تساوي أجور العبيد... ألا ترون كل هذا؟؟

إنهم يريدونك أن تظل هكذا.. ترسا.. مجرد ترسٍ في آلة.. تدور في الفراغ.. كمنْ يدور في ساقية ولا يعلم متى ستتوقف.. لا يريدون أن يكون هناك لك وقت لتفكر.. فالتفكير حتما سيصل بك إلى الحقيقة.. لأنها واضحة كالشمس.. لا تحتاج إلى عبقرية أو ذكاء... وإذا فكرتَ أن تطالب بحقوقك في الحياة.. ستطالب بحقوقك في وقت عملٍ مناسب مقابل مرتَّبٍ عادل.. ستطالب بتعليم حقيقي وعلاج جيد.. ستطالب بكل حقوقك كإنسان والتي هي مِن اقل الحقوق لك... إنهم لا يريدون ذلك... يريدونك فقط أن تدور وتدور وتدور حتى تسقط... يريدونك أن تظل في المنظومة لا تَخرج عنها... تدرس وتتخرج وتعمل إذا

استطعت.. تتزوج وتعمل.. تنجب وتعمل.. تعلِّم أولادك تعليمًا فاشلا وتربِّيهم على نفس التقاليد البالية التي تربيتَ أنت عليها، تلك التي وضعها مجتمعٌ منحطٌّ القيمِ والأخلاق ليتخرجوا وتحاول مساعدتَهم بكل الطرق للحاق بمنظومة العبودية الحديثة.. لتعاد نفس الدائرة مرة أخرى.. وكأن تلك هي الحياة.. وتنسى الهدفَ الأساسي من حياتك.. أتظن بذلك أنك قضيتَ رسالتك؟؟.. وهل تلك رسالةٌ بالأساس؟؟.. أنا لا أظن إني قد خُلِقت لهذا الهدف.. لا أظن أن ربي منحنى نعمة الحياة لأقضيها هكذا.. اهربْ بخيالك.. اهربْ إلى أقصاه.. ستجد أقصى طموحك أن تعيش في واقع أفضل.. مأكل أفضل.. ملبس أفضل.. عمل أفضل.. مع أنه من المفترض أن يكون كل ذلك طبيعيا. . هل ترى مثلى أن هناك شيئا خاطئا؟؟.. ألا ترى أننا بحاجة شديدة إلى إعادة التفكير في حياتنا.. ؟ ألا ترى أن لنا حقوقا نهدرها يوميا تحت مسميات عدة.. ؟ ألا ترى أن لنا حقوقا في الطعام والشراب وفى كل ما حولنا؟.. ألا ترى أنهم يزيدون من أسعار الطعام الذي هو في الأساس ملوث والمياه ملوثة، ويقطعون عنك الكهرباءَ ويفرضون الضرائبَ ويطلبون منك في النهايةِ بكل صفاقةٍ ووقاحة أن تدفع مقابل كل هذا بابتسامةٍ وصدر رحب وتقول في سرك الحمد للّه.. غيرك مش لاقي

أنا لا أنظر إلى نصف الكوب الفارغ... فالكوب بأكمله أصبح فارغا.. بل ومحطما أيضا.. أنا أريد إيقاظ وعيك النائم منذ سنين.. ألم

يحِن موعد إيقاظه بعد؟؟.. ربما تتساءل ما الحل إذاً؟.. إنك فهمتَ واستوعبتَ.. لكن ما الحل؟.. الحل يا سادة وبكل بساطة يوجد بين حرفين، حرفان فقط هما الحل لكل مشاكلنا وحياتنا ألا وهما كلمة لا، ما السر الذي وضعه الله في تلك الكلمة؟ كلمة من حرفين تحمل ثورة داخلها.. أنا أعشق الرفضَ أكثر من الإيجاب.. فالإيجاب خنوع بكل صوره وأسبابه... لا. . لكل ما يقدَّم لنا وعلينا أن نقبله مجبرين... لا... لكل مَن حاول أن يضلل فكري ويغتصب وعيي... لا... للتقاليد والعادات المجتمعية البالية.. تبًّا للمجتمع.. تبًّا مرة أخرى للمجتمع.. الذي يرى في صوتي طيشًا وفى فكرى كفرًا.. فنحن في مجتمع لا يُسمح بالتفكير فيه... التفكير في الدين يقابله موجة هجوم بالكفر والإلحاد.. تبًّا ألف مرة لهذا المجتمع.. الذي يرى أننا أخطأْنا بثورتنا على النظام.. أعترف بأننا أخطأنا.. أخطأنا لأننا لم نقُم بثورة عليكم أولاً.. لم نقُم بثورة على فكر وتقاليد المجتمع... ما نحن في حاجة إليه حقًّا ليست ثورة بشرية على النظام... نحن بحاجة لثورة فكرية على الجهل..

ثوروا على كل فكرة حية تقتل أفكارنا الصغيرة..

ثوروا على كل قيد تم ربطه بنا صغارا..

ثوروا على كل إجابة سؤال غير مقنعة.. سألتموه قديمًا

ثوروا حتى لا يبقى أحدٌ في هذه الدنيا.. يجهل مَن هو أمل دنقل

ثوروا حتى لا أقف... وحيدًا في ميدان المعركة

ثوروا... يرحمكم اللّه

×××

لم تعُد سارةُ كما كانت من قبل.. هكذا أكدَ كل أصدقائها وعائلتها... منذ ما حدث لها وهى لم تعُد كما عهِدوها.. أصبحت دائمةَ الشرود.. كثيرةَ النسيان.. لا تتحرك من أمام شاشة حاسوبها الآلي.. تذهب إلى الجامعة وتعود سريعا إلى الشاشة.. تراها سعيدة أحيانا وتبكي أحيانا أخرى.. حاولت والدتها أن تسافر بها إلى شرم لتعدل من مزاجها ولكنها رفضت بشدة.. وأشارت أنها لن تتحرك من مكانها حتى يخرج يوسف... تفهمت والدتها أنها بطبيعتها الثورية ستدافع عمن أنقذها.. وأنها تشعر بالذنب تجاهه.. لكن بإحساس الأم.. شعرت بأن الموضوع يتعدى ذلك.. شعرت أن ما يعذب ابنتَها هكذا ويؤرق نومها ما هو إلا الحب.. لم تدرِ أتشعر بشفقةٍ تجاهها وتواسيها أم تنصحها.. على كلٍ هي تعلم جيدا شخصية ابنتِها.. وأنها لن تقبل بكلام إلا الذي في رأسها... فقررت مواساتها بكلام حنون لعله يخفف عنها. أمّا سارة فكانت تجلس ساعاتٍ طويلةً تبكي يوسف.. وأوقاتا أخرى تغمرها السعادة عند رؤيتها الصفحةَ التي أنشأتها تزداد كل يوم وأصبح لها الكثير من مؤيدي القضية.. ونجاح وقفتها في حشد عدد كبير من الناس أعطى لها بريقا من الأمل.. فتزداد قوة من بعد

يأس.. تأتيها مئات الرسائل المؤيدة لها فتتيقن من النصر.. وأن الكل بجانبها وبجانب يوسف... لم تشعر بالسعادة في حياتها كمثل تلك اللحظة عندما كلَّمتها صديقتها نور تخبرها بالأخبار الجديدة.. فتحت محادثتها على الفيس لتجد نور تقول:

- شفتى آخر الاخبار؟

- لا ايه اللى حصل؟

- فاكرة الصحفى اللى اسمه ثائر مراد اللى قولتلك عليه؟ اللى كان بيهاجم يوسف والمقال بتاعه انتشر

- آه فاكراه الكلب ده ماله؟

- لا لا حرام متظلمهوش... ده نزّل اعتذار رسمى انه هاجم يوسف وكاتب شوية كلام جامد اوى.. استنى هبعتلك اللينك

أرسلتِ لها اللينك سريعا.. فتحته سارة في لهفة.. التهمت الكلماتِ كنمرٍ جائع ينقض على فريسته.. تساقطت دموعُها دون أن تدري أهِي دموع فرحٍ أم دموع حزن زادته الكلمات التي تقرؤها.. وكأنه يقرأ أفكارها.. وكأنًه يدري ما تريد أن تقول... وكأنه غاص في أعماقها ليَخرج بكل تلك الكلمات القوية.. أخذت تردد معه الكلماتِ بصوت عالٍ.. نعم يجب أن نثور... حقًا يجب أن نثور.. اندفعت خارج غرفتها تنادى على والدتها.. أجبرتها على الجلوس أمام الشاشة لتقرأ وهى تقول: اقري يا

ماما الكلام ده.. اقري عشان تعرفي إن كلامي كان صح.. اقري وقولي الكلام ده لكل اللي تعرفيه... بعد أن أنهت والدتها القراءةَ.. تركتها لتفكر فيما قرأته وفتحت الصفحة التي أنشأتها ليوسف ووضعت كلماتِ ثائر بها.. ودعت الجميعَ حتى ينشروا هذا الكلام... وسرعان ما وصل عدد مشاركات هذا الكلام إلى ما يزيد عن ٤٠٠٠ مشاركة، وتلقى ثائر المئات من طلبات الصداقة مِن بينها سارة بالطبع.. ومع كل ساعة تمر كانت تزيد عدد المشاركات.. آلاف التعليقات.. الغالبية مؤيدة لهذ الكلمات.. الكل يدعو إلى ثورة فكرية... صفحات كثيرة أنشئت بناءا على كلمات ثائر مثل " دعونا نحطم التماثيل التي بداخلنا" و"لكم دينكم ولهم دينهم ولي ديني"، أصبح ثائر في غضون يومين حديثَ الفيس بوك كله.. أصبحت كلماته هي عناوين صفحات الكثيرين.. وأصبح يوسف هو البطل المنتظَر خروجه والإفراج عنه.. الكل يتحدث عن قصة يوسف وسارة.. ومع ذلك.. وبالرغم من كل هذه الضجة.. إلا أن الإعلام كان يتجاهل الموضوع برُمَّتِه.. وكأن شيئا لم يكن.. أصبح مطلب الإفراج عن يوسف مطلبا الكثير من الشباب.. في حين أصر الإعلام على تلقيبه بالعميل أو الجاسوس.. واصلت سارة ورفاقها التشهيرَ بهم على الإنترنت.. فلم تكن تملك الكثير لتفعله.. نعم هي سعيدة بما حققته من إثارةٍ للرأي العام.. وحشدِ عددٍ غير قليل نحو قضيتها.. إلا أن قلبها يتمزق حزنا وأسفا على يوسف.. رغم قِصَر

الفترة التي عرفته بها.. رغم أنها لا تعترف بوجود مثل هذا الحب.. بالرغم من كل هذا.. إلا أنها لا تملك سيطرة على قلبها.. لا تعرف سر دموعها عند ذِكر اسمِه فقط... لم تكن تدرى بأنه سيأتي يوم وتحب هكذا.. لم تكن تدرى أن الحب لا قواعد له ولا وقت.. لم تكن تدرى.. حتى وإن درت.. لم يكن بمقدورها فعل شيء.. متى سيترك العالمُ المحبين يعيشون في سلام.. ؟ متى سيترك القدر الأحباء وحدهم.. متى؟

١٨ أكتوبر ٢٠١٦

الغرفة رقم ٤٠٧

في الغرفةِ ٤٠٧ تُغتَصب العقولُ وتُنتهَك الإنسانية... التفَّ الرجالُ الثلاثة حول المنضدة ذاتِ الثلاثة أطراف وكلٌّ منهم ينظر للآخر في صمت.. واحدٌ منهم فقط هو مَن كانت تتطاير نظراتُ الغضبِ مِن عينيه لتحرق أعصابَ كلَّ مَن بالغرفة.. وكأنهم يخشون أن يبدؤوا الحديثَ احترامًا لصمتِه.. إنه سامِح نصار المعلّم.. وجَّهَ سامح نظراتِه وتركيزَه كله للشخص الجالس أمامه من الجهة اليمنى وهو يسأله بهدوءِ ما قبل العاصفة:

- ايه رأيك في اللى بيحصل يا أستاذ إبراهيم شاكر؟

ردَّ إبراهيم شاكر بنبرةٍ حاول أن يحمِّلَها هدوءًا وثقةً:

- قصدك موضوع الواد اللى اسمه يوسف؟.. ما تقلقش منه ده عيل هلفوت.. وانا مش مخلّى حد يجيب سيرته خالص في أي قناة

انطلقت العاصفةُ أخيرا من بين شفتَي سامح لتحمل معها رذاذ كلماته العصبية في وجه إبراهيم شاكر وهو يقول:

- ما هو ده غباء يا أستاذ.. انك تكتِّم على الموضوع وكأن مفيش حاجه حصلت وسايب النت كله شغال على الموضوع ده، يبقى ده غباء منك...

الواد اللى اسمه يوسف ده بقى بطل شعبي والكل بيطالب بالافراج عنه.. وحضرتك قاعد نايملي في العسل

هنا خرج مدحت السمان عن صمتِه ليلتحم بالنقاش قائلا:

- صح يا ابراهيم.. مينفعش الواد ده يبقى بطل والكل يلتف حواليه ويطالب بخروجه.. مينفعش الناس اساسا تجتمع على طلب واحد.. كدا فيها ثورة تانية لو الوضع استمر على كدا.. أنا شايف الرأى العام كله بقى معاه على الرغم انك اعلامك مش جايب سيرة... بس انت نسيت ان في اعلام مضاد انت ملكش سيطرة عليه.. اسمه الإنترنت

هنا أكمل سامح الصياحَ بعصبيته وهو يشير بإصبعه لإبراهيم شاكر الذي انكمش في كرسيه كطفلٍ يتلقى العقابَ من والده:

- قوله... قول للأستاذ.. واحد تحت ايده اعلام بلد بحالها وقاعد يولول ويقولى منا مش جايب سيره... بيقولك الرأى العام بقى معاه... والرأى العام ده المفروض انه لعبتنا احنا... احنا اللى بنحدد الناس تبقى مع مين و ضد مين.. احنا اللى بنقومه ونطفيه في وقت واحد... احنا اللى بنعمل كل ده... احنا لو عاوزين نقول للناس ان مصر دخلت في حرب دلوقتى وكسبتها.. المفروض اننا نكون قادرين يخليهم يصدقوا.. افهم كدا... عشان منروحش كلنا في داهية

تنحنح إبراهيم قبل أن يقول:

- ماشى فهمت.. بس ايه المطلوب منى بالظبط... ؟ أخلّي الاعلام كله يقول انه مموّل أو ارهابى؟

ردَّ سامح في عصبية:

- انت بتسالنا احنا نعمل ايه؟؟!.. هو ده مش شغلك انت؟؟.. وعموما أنا هقولك تعمل ايه... من اول الثانية اللى بعد الاجتماع ده... اعلامك كله هيكون موجه انه الواد ده ممول من برا، وان قريب هيذيعوه اعترافه وانا هخلى الراجل بتاعى يصور اعتراف ليه بالقوة وهتذيعوه ليل نهار... تاني حاجة هتجيب كام شيخ من بتوعنا يقولوا ان دعم الواد ده ولا الوقوف معاه حرام شرعا.. هتجيب كام واحد من المثقفين اللى بيثق فيهم الشعب وتعمل معاهم حوارات على الموضوع ده وانهم ضده.. وانا الراجل عندى قالى انهم لقيوا مكالمات جنسية مع واحدة روسيه.. عاوزك تذيع الكلام ده كله.. عاوز الناس كلها تبقى مؤمنه بكدا.. اظن دى حاجة سهله.. ولا ايه؟

ردَّ إبراهيم:

- اطمن.. كل ده هيحصل

تدخل مدحت السمان مرة أخرى في النقاش وهو يقول:

- فيه حاجه تانيه انتوا مش واخدين بالكوا منها

ردَّ سامح:

- ايه؟. . حاجة ايه دي؟

رد مدحت:

- فيه صحفي شاب اسمه ثائر مراد.. عامل دوشة على النت وشغال يكتب في كلام بيهيّج بيه الناس

ابتسم سامح في خبث وهو يقول:

- لا ما تقلقش.. أنا عارف ده هعمل معاه ايه

ردَّ إبراهيم:

- طيب ما تفهمّنا هتعمل ايه؟

تابع سامح:

- لا مش مشكلة تفهموا.. ده شغلى أنا بقى.. المهم دلوقتي الأيام اللى جاية.. تمشى زى ما احنا عاوزبن... مش عاوزين وجع دماغ كل شوية... في حد عاوز يقول حاجة تانية؟

ردَّ كلٌّ منهم بالنفى.. فأنهَى سامح الاجتماعَ قبل أن ينصرف كلٌّ منهم على حِدة... وكلٌّ لديه خطة عملٍ للأيام القادمة..

ويلٌ لأُمةٍ تتحكم بمصائرها فئةٌ قليلة من البشر

ويلٌ لأُمةٍ يتحكم بعقولها بشرٌ لا يعرفون سوى المالِ والسلطة لغة

االويلُ كل الويل... لنا

×××

" أبانا الذي في المباحثِ.. نحن رعاياك

باقٍ لك الجبروت

وباقٍ لنا السكوت

وباقٍ لمَن تحرسُ الرهبوت

تَفَرَّدتَ وحدَكَ باليُسرِ.. إن اليمينَ لَفي الخُسر

أمَّا اليسارُ ففي العُسر "

سوداءُ... سوداءُ الرؤيةُ كما هي لم يتغير لونُها بعد.. هكذا أَدركَ يوسف وهو يستعيد وعيَه في بطء... هل ما يزال حيًّا؟؟.. لم يعد يسمع صوتَ الفئران.. حتمًا فقدَ الكثير من الدماء.. الدوار الذي يعصف به، والصداع الشديد يخبرانه بذلك.. على الأرجح سيفقِد وعيَه مرة أخرى أو يموت.. هل تركه هؤلاء الكلاب للفئران تلتهمه وتركوه يموت في بطء؟؟.. لماذا كل هذا التعذيب.. ؟ لقد أخطأ حين رفض الاعترافَ.. هكذا حدَّث نفسَه يوسف وهو يجاهد في البقاء مستيقظا.. عاوَده الدوارُ الشديد ليهاجمه فهَمَّ بتحريك يده للإمساك برأسه..

ولكنها لم تتحرك قيْدَ أُنملةٍ بسبب القيود.. تذكَّر أنه ما يزال مقيدا إلى تلك الطاولة اللعينة.. لم يعد يدري كم مَر عليه من الوقت وهو هكذا.. حاول تذكَّرَ أي يومٍ قبضوا عليه فيه.. لم يعد يذكر.. تفاجَأ يوسف بأن ذاكرتَه مشوشةً... حاول تذكّر ماذا كان يرتدى في آخر مرة... لم يفلِح أيضا.. ازداد الصداع برأسه وهو يحاول أن يتذكر تلك التفاصيل.. ماذا فعل به هؤلاء الكلاب؟؟.. أسئلةٌ كثيرة عصفت برأسه حاول الإجابةَ عنها... ما الوقت الذي تم القبض عليه فيه؟؟.. كم المبلغ الذي أرسَلَته له لارا؟؟.. ما اسم صديقِه في المطعم؟؟.. لم يعد يذكر.. لم يعد يذكر أي شيء من تلك التفاصيل.. صرخة مكتومة أطلقها يوسف ليُخرِج معها كل غضبه وحنقه وعذابه.... ألا توجد طريقة أرحم من تلك للموت؟؟.. لا يعلم كم لترا فقَدَ من الدماء.. لكن حتمًا كان كثيرا.. لماذا لم يمُت بعد؟؟ هل تم إسعافه لإعادة تعذيبه مرة أخرى؟؟.. لم يتوقف عقله عن السؤال.. ولم ينجح في العثور على إجابةٍ أيضا.. أراد أن يصرخ.. أن ينادي عليهم.. أن يأتوا له لينهوا هذا العذابَ ويقتلوه أو ليعترف بما يريدون.. سيفعل كل ما يريدون... كم كان أحمقَ حين ظن نفسه بطلا؟؟.. لم يكن بطلا يوما ولن يكون.. اخذ يردد لنفه، قفزت إلى ذهنه فجأة صورة سارة.. الحب الذي لم يرَ النور.. محبوبتَه التي هي سبب كل هذا العذاب الذي به.. لا يعرف هل مِن المفترَض أن يكرهها الآن.. ويكره كل ما يتعلق بها.. اسمَها.. صورتَها.. صوتَها... ؟

ولكن كيف؟.. هل سيكرهها لأنه سيموت بسببها؟؟.. إنه أسمى درجات الموت.. حياته لم تكن ذاتَ قيمة على كل الأحوال.. ستصبح ذات قيمةٍ عندما يقدمها فداءً لسارة... أَسَرَته هذه الفكرة كثيرا.. لم يعد يهمه أنه سيموت.. فقط أراد أن ينهيَ هذا سريعا دون المزيد من العذاب... لبَّى القدر طلبَه سريعا... فتناهت إلى مسامعه وقْعُ أقدام كثيرة تقترب في خُطَى ثابتةٍ من الباب.. حتى وقفوا أمام باب زنزانته.. فسمع صوت الباب الحديدي يُفتَح والكثير من الأقدام تدلف إلى زنزانته وسمع صوتا قويا يأمر:

- فُكّوه

فانطلقت أيادٍ تفك قيود قدميه ويديه، وأحدهم ينزع الطوق الحديدي من فوق رأسه وينزع كمامته من على فمه ويفك الرباط من حول عينيه... وساعده على أن ينهض من رقدته... فتح يوسف عينيه بصعوبة مع ذلك الضوء القوى الذي غمر الزنزانة.. توقَّع أن يرى نهرا من الدماء أسفل قدميه، وأن يرى جروحا بكل أنحاء جسمِه... مد يدَه ليتحسس جروحَ وجهِه.. كانت بشرته كما هي لا يوجد خدشٌ واحد.. تحسس باقي أنحاء جسده العاري.. لم يجد به خدشًا واحدا أو جرحا تم إسعافه.. فتح يوسف عينيه بقوةٍ ليرى جسده بوضوح وليتأكد.. كان جسده كما هو ربما هزلَ قليلا من عدم الأكل.. لكن كما هو دون أي جروح أو خدوش.. اعتلت الدهشة وجهَه.. وأخذ ينظر يمينًا ويسارًا

فاصطدم نظره بثلاثة رجالٍ ضِخام الجثة يقفون في ثباتٍ وينظرون له بصرامة يقشعر لها بدنُه.. يتوسطهم الضابط حسام الذي كان السببَ في كل هذا.. ينظر له وبعينيه نظرةُ ظفرٍ وانتصار قبل أن يقول:

- مالك.. ؟ مندهش كدا ليه وعمال تفتّش في جسمك؟؟

ردّ يوسف في دهشة وصوته خرج متحشرجا:

- از.. اى.. إزاي.. إزاي ده حصل؟؟.. أنا كنت بحلم؟؟.. ازداد الصداع برأسه وهو يحاول أن يتذكر ما حدث.. مد يده للإمساك برأسه بصعوبة، بعد أن ظل مدة طويلة مقيدا.. فلم يستجِب الجسم للأوامر الجديدة سريعا

لم يتركه الضابط كثيرا يتساءل في دهشة.. فقال في برود:

- هنفهمك كل حاجة بعدين.. دلوقتى عاوزينك تعترف بكل حاجة عملتها زى ما هنقولك.. هيلبسوك دلوقتى وهتاكل وتشرب كويس وبعدين تعترف بكل حاجة، وزى ما بنقولك بالظبط عشان الكلام ده كله هيتصور.. ولا انت لسّه مُصِر على موقفك؟؟ قولى لو لسّه مُصِر عندى طرق تانية بتجيب من الآخر

ردّ يوسف في سرعة:

- لا لا. . هعترف.. هقول اللى انتوا عاوزينوه.. بس ارجوكم ترحمونى من العذاب ده

ردَّ الظابط في لهجة انتصار:

– جدع يا يوسف.. انت كدا عِقلت.. بس كنت مفكرك هتستحمل اكتر من كدا

ردّ يوسف في ضعف:

– لا.. مش قادر استحمل.. بس أنا عاوز افهم ايه اللى حصلى

– ما أنا قولتلك هفهمك على كل حاجة بعد ما تعترف... يلا جَهزوه

أسرعَ الجنودُ بإحضار الطعام والشراب والملابس... كنمِرٍ جائعٍ انقضّ يوسف على الطعام بنهَم شديد.. ثم أغرق جوفَه بما يزيد عن ثلاثة لتر من الماء.. قبل أن يقدَّم له العصير والشاى.. بعد أنِ التهَمَ ما يأكله فيلٌ بالغ في يومه كله.. وبعد أن غرِق من شرب العصائر والشاي.. اقتادوه إلى غرفة في آخر ممر زنزانتِه.. ليسجّل اعترافَه.. أجلسوه أمام كاميرا وخلفَها لوحة كبيرة مكتوب عليها كلمات معينة، طلبوا منه أن يقرأ الكلماتِ بالنص وألا ينقص منها أو يزيد.. بعد أن أدلى يوسف باعترافه.. سحبه الجنودُ مرة أخرى إلى زنزانته، وحضر جندى آخر يرتدى معطفًا أبيضَ ممسكًا بحقنة.. قيدَه جنديانِ آخران بقوةٍ وأحدهما يسحب يدَه بقوة.. صرخ فيهم يوسف:

– انتوا بتعملوا ايه؟؟ ايه اللى بتحقوننى بيه ده.. ؟ ما أنا اعترفت خلاص.. عاوزين ايه تاني منّي؟

حاول التخلصَ من الرجُلين الذين يمسكانه بقوة بعد أن استرد جزءًا من صحته.. لكن دون جدوى.. تابع الجندى الطبيب عملَه في صمتٍ وهو يغرس الحقنة بذراع يوسف الذي تابع صارخا :

- سيبونى.. انتوا بتعملوا ايه فيا؟.. حرام عليكو

جاءه صوت الضابط حسام مِن على باب الزنزانة يقول:

- اعقل بقى يا يوسف.. متتعبش الناس

فرغَ الطبيب من عمله ورحل في صمت في حين صاح يوسف:

- انتوا عاوزين مني ايه تانى؟؟.. مش اعترفت باللى انتوا عاوزينه؟؟.. وايه اللى بتحقنونى به ده كل يوم؟؟!!

سار الضابط نحوه في بطء وهو يقول:

- المادة اللى بنحقنك بيها دى كل يوم اسمها (LSD) أو ايثيل اميد حمض الليسرجيك.. وده بقى من اقوى المهلوسات المؤثرة على العقل.. مخلوط معاه شوية مهلوسات تانية.. هتساعدك انك تفقد ذاكرتك بسرعة.. ويحصلك اضطرابات في الرؤيه والفكر... هتشوف حاجات مبتحصلش.. هتسمع اصوات مش موجوده.. اكبر كوابيسك هتلقيها بتتحقق قدامك.. هتعيش العذاب الف مرة... مع استمرار حقنك به هتفقد ذاكرتك تماما في النهاية وربما تجنن وتفقد عقلك أو يحصلك شلل.. أنا بقولك الكلام ده كله عشان عارف قريب أوي مش

هتبقى فاكر أي حاجه من دى.. مش هتبقى عارف أنا مين اساسا

صاح يوسف بضعف وقد بدأ تأثير المادة يظهر عليه:

- ليه.. ليه كل ده.. ؟ ما أنا اعترفت خلاص

ردَّ الضابط في بطء وهو يقترب أكثر من وجهه، وكلماتُه تكاد تنزل كالسوط على وجه يوسف:

- ليه؟؟.. عشان حظك الاسود وقع معايا أنا بالذات.. ممكن لو كان أي ظابط تاني كنت تدخل السجن وخلاص... انا اللى بيقع معايا.. ما بيقُمش تانى، دى حاجه. .. تاني حاجة انت بقيت بطل برا... ومتوصى عليك جامد اوى.. فخلاص كدا.. مصيرك مقرر

ردّ يوسف في ضعف:

- يا ولاد.. االـ.. كلب

تابع حسام: أنا دلوقتى هسيبك مع رحلة تانية.. انت فيها البطل والخصم والضحية.. احنا علينا بس الموسيقى التصويرية.. اخر مرة كنا مشغلينلك اصوات فيران وسِبناك انت تتخيل اللى انت عاوزه

ثم أشار بإصبعه إلى رأس يوسف قائلا:

- افكارك هي واحلامك هي عذابك.. فحاوِل تسيطر عليها

ثم أمر جنودَه بإعادة تقييده إلى الطاولة المعدنية.. بعيون شاردة

وضعف تركهم يوسف يفعلون به ما يريدون.. فجرَّداه من ملابسه بأكملها وفَرَدوه على الطاولة.. أعادوا تقييد قدميه ورأسه ويديه.. ولكن هذه المرة تم وضع ما يشبه الملقاط الحديدى على عينيه إجبارا أن تكون مفتوحة طوال الوقت.. فلا يستطيع غلقهما.. ثم تركوه وانصرفوا قبل أن يغلقوا البابَ الحديدى

" أبانا الذي في المباحث.. نحن رعاياك

تعاليتَ.. ماذا يهمك ممن يزمك؟ اليوم يومك

يرقى السجينُ إلى سُدّة العرش..

والعرشُ يصبِح سجنًا جديدًا.. وأنت مكانك "

أخذ يوسف ينظر لسقف زنزانته مجبَرا.. لا يستطيع غلق عينيه مع ذلك اللاقط الحديدي.. سالت الدموعُ بغزارة وهو يحاول غلقهما... انتبه إلى ذلك الشيء الذي يتحرك من الأعلى متجها إليه.. تابع ذلك الشيء نزوله ببطء حتى أصبح لا يفصِله عن وجهه سوى نصف متر تقريبا.. تعرَّف على ذلك الجسم الغريب على الفور.. إنه كشَّاف ضخم مطفأ.. توقّع يوسف ما سيحدث.. سيضاء الكشاف بضوء قوي في وجهه وعينيه ولن يستطيع غلقَ عينيه... انطفأ نور الزنزانة فجأة.. فعاد للظلام مرة أخرى.. تناهى إلى مسامعه صوت يشبِه الطنينَ الذي يصيب الأُذُنَ أحيانا.. أخذ الصوت يزداد تدريجيا.. عاد الصداع يفتك برأس يوسف

مع ذلك الطنين المستمر.. ازداد الطنين أكثر وأكثر.. صرخت طبلة أُذُن يوسف من الصوت الذي يفوق احتمالَها.. تألم يوسف من الطنين العالي المستمر.. صرخ بأعلى صوته وهو يقول:

- كفاااايه.. حرام عليكوا

وما إن أنهَى كلمتَه حتى سطع الكشّاف بضوء قوي ليغمر عينيه.. مع استمرار الطنين حاول يوسف لا إراديًا أن يغلق عينيه نتيجة الضوء القوي الذي غمر عينيه.. لم يحصل سوى على دموعٍ غزيرة وآلامٍ شديدة بالعينين.. آلام لا يحتملها بَشر.. تابع يوسف صارخًا:

- كفااااااااااااااايه... أبوس ايديكوا

انطفأ ضوء الكشاف واختفى صوت الطنين فجأة، ليعود مرة أخرى الظلامُ والهدوء.. أخذ يتنفس بسرعة كمنْ خرج توًا من سباق عدْوٍ... بدأ جسمه يهدأ قليلا بعد تشنجات الأعصاب الكثيرة التي قام بها أثناء تعذيبه... كم تمنى يوسف أن يتم جَلده بالسوط أو قتله بالرصاص لكان أرحم من تلك الطريقة.. عاد الضوء يسطع بقوة مرة أخرى وعاد الطنين معه في نفس الوقت ليأخذ يوسف في رحلة عذاب جديدة.. دقائق معدودة هي زمن كل تلك الرحلة.. لكن شَعرَ بها يوسف وكأنها ساعات لن تنتهي... تكرر الأمر عدة مرات وفى كل مرة يصرخ يوسف:

- كفاااايه... اقتلونى.. أنا عاوز اموت... عاوز امووووت

فقدَ يوسف كل قوته بعد تلك عمليات التعذيب المتكررة.. اختفى الضوء والصوت معًا لمدة طويلة.. ولم يعودا مرة أخرى.. وتم إضاءة الزنزانة بضوء بنفسجي باهت.. زاد الدوار برأس يوسف.. أراد النوم بشدة ولكنّ عينيه المفتوحتين تجبرانه على البقاء يقِظًا...

يوسف!!... سمِع صوتا يناديه.. لكن لا يرى شيئا.. فقط فراغ... يوسف!!.. عاد الصوت يناديه من جديد.. حاول النظر خلف ذلك الضباب الذي يراه.. رآها قادمة إليه.. سارة.. رآها تتقدم إليه ببطءٍ مبتسمة.. حاول يوسف الابتسامَ.. نطق باسمها.. سارة.. مدت سارة يدَها إليه.. حاول مد يدِه. . لم تساعده قيوده.. اقتربت سارة منه أكثر، تحسست رأسه.. انحنت تطبع قُبلةً رقيقة على جبينه وهى تقول له:

- اسفه إني كنت السبب في انك تتعذب كدا

ردَّ يوسف بابتسامة واهنة:

- ولا يهمك.. المهم ان إنتي بخير دلوقتى

- أنا جيت عشان أخرّجك.. خلاص هتخرج ومحدش هيقدر يفرقنا ابدا

وما إن أنهت جملتَها حتى اقتحم ثلاثة رجالٍ الزنزانة.. أمسكوا بسارة بقوة وهى تصرخ باسم يوسف.. صرخ يوسف بهم:

- سيبوها... سيبوها يا ولاد الـ....

أمسكها رجُلانِ بقوة، وقام بنزع حجابها الرجلُ الثالث.. وصرخات سارة تنزع قلب يوسف من مكانه.. حاول نزع قيوده.. حاول تحطيم المائدة بالغضب الخارج من أعماقه.. لم ينجح.. قاموا بتجريد سارة من ملابسها.. ويوسف يصرخ بهم بقوة:

- سيبوها يا ولاد الـ... عذبونى أنا وسيبوها هيا... محدش يقربلها

لم تنجح صرخاتُ يوسفَ ولا سارة عن إثناء الرجال عن هدفهم.. قاموا باغتصاب سارة بقوة أمام عينَي يوسف.. بعد أن فرغوا منها الثلاثة.. قاموا بإيقافها وتم إحضار سوط وجلدوها أمام يوسف.. لم يحتمل يوسف كل تلك المناظر.. دارت رأسه بشدة.. وسقط مغشيًا عليه.

" أبانا الذي في المباحثِ. .. كيف تموت

وأغنيةُ الثورةِ الأبدية. .

ليست تموت!!؟

الفصل التاسع

شعورٌ بالسعادةِ والفرح أصاب ثائر بعد النجاح الذي حققه في مدةٍ قصيرة جدا من خلال كتابته على الإنترنت.. لم تكن تلك السعادة بسبب الشهرة التي وصل إليها.. لكن كانت بسبب الانتشار الذي حققته كتاباته وبسبب عدد الذين وصلت إليهم كلماته وأيدوها واقتنعوا بها.. فهو يرى في ذلك النجاح كنزَه الحقيقي.. فهذا الهدف من كتابته أن تصل إلى كل الناس.. أن يفهم الحقيقةَ كل الناس... عشرات الاتصالات والعروض للعمل في عدة مجلات وصحف قُدمت إليه.. لكنه رفضها جميعهم لأنه ببساطة لم يرَ في تلك الصحف والمجلات إلا أنها مجرد أبواق تردد ما يُملَى عليها وتنافق فئاتٍ معينة.. إذا وافق على العمل بإحداها سيكون بذلك كمنْ يرجع إلى نقطة الصفر.. وسينتهِك مبادئه.. حتى جاءه اتصال أخيرا من شخصٍ معين.. شخص كان يرى فيه المعارِضَ الحقيقي في هذه البلد.. شخص لا يعرف سوى للحق طريقا ولو كان الحق مُرا.. شخص طالما تمنى العمل معه.. إنه هاشم

الشرقاوي.. كان ثائر قد أصابه الملل من كثرة الاتصالات.. فعندما جاءه اتصال هاشم ردَّ في فتور:

- آلو

جاءه صوتٌ هادئًا رصينًا على الجانب الآخر:

- آلو.. السلام عليكم.. حضرتك ثائر مراد؟

- ايوه. . أنا ثائر مين حضرتك؟

- أنا هاشم الشرقاوي.. أكيد طبعا عارفنى

قفز ثائر من المفاجأة.. واعتلت الابتسامةُ وجهَه وهو يقول:

- أستاذ هاشم؟؟ معقول؟؟.. أهلا يا افندم

- ازيك يا ثائر عامل ايه؟؟

- أنا كلُه تمام يا أستاذ هاشم.. أنا سعيد جدا بالاتصال ده

- أنا اكتر يا ابنى.. ايه رأيك يا ثائر تشتغل معانا في جريدة الخان

- معقول يا افندم.. ده حلم بالنسبه ليا.. ده انت بمثابة والدى والله.. أنا واخد حضرتك مَثَل اعلى ليا بعد والدى

- ده كلام يفرحنى يا ابنى... انا تابعت كتاباتك على النت.. وعجبتنى آراءك اوى.. الشباب اللى زيك همّا اللى محتاجينهم فعلا يبقوا معانا

- ربنا يخليك يا افندم... انا هجى ايه جنب حضرتك

- أنا معملتش حاجه.. غير اللى ضميرى بيقولى عليه.. البلد دى محتاجه شباب في نفس تفكيرك وعزيمتك.. احنا خلاص كبرنا

- ربنا يديك الصحه.. وتفضل كلمتك شوكه في حلقهم

- بُص يا ثائر.. أنا ان شاء اللّه هكون عندكم في الإسكندرية كمان يومين.. فيه ندوة عندكم من فعاليات حملة اهمية دور الاعلام في مصر والوطن العربى.. هنلِف المحافظات كلها وعاوزك تكون معايا.. وحضَّر كلمة عشان هتتكلم فيها هنقعد في الموضوع ده بتاع شهر... بعديها هترجع معايا مصر عشان تكمل شغل في الجريدة

ردّ ثائر بسعادة:

- ماشى يا افندم.. متقلقش هكون جاهز

- ماشى اسيبك أنا بقى دلوقتى.. عشان عندى شغل في ايدى

- ربنا يقويك.. مع السلامة يا أستاذ هاشم

- مع السلامة

ازدادت سعادةُ ثائر أضعافًا بعد تلقيه هذه المكالمة... أخيرا سيصل إلى ما يرنو له.. أخيرا سيعمل في أكبر صحف المعارضة.. كان يرى في هاشم الشرقاوي نسخة من والده.. نفس الفكر.. نفس النضال.. مرات

كثيرة ينجو من محاولات اغتيال.. يريدون تصفيتَه وإخراسه للأبد.. هُم لديهم كل أسلحة الدولة وهو لا يملك سوى صوته وقلمه.. ومع ذلك يرهبونه..

أراد مشاركة سعادته تلك مع حبِّه كارمن.. التقط الهاتفَ سريعا ليتصل بها.. وما إن تلقَّى إجابة حتى أخبرها بكل ما حدث.. شعر بالفرحة تغمر صوتَها لأنه حقق جزءًا من حلمه.. وفى نهاية المكالمة.. هدأت نبرة صوتِه قبل أن يأخذ نَفَسا عميقا وهو يقول:

- على فكرة يا كارمن.... أنا بحبك... بحبك أوي

أجابته بصمتٍ ثقيل.. مَر عليه كدهر كامل قبل أن يسمع صوتها يقول في رقة:

- على فكرة.. وانا كمان بحبك. . وبالرغم إني كنت فاكرة إني لما هحِب حد هقوله بحبك في وشّه.. الا إني معرفتش اعمل كدا.. اكتفيت بأنى اناديك يا حبيبى وانت بتكلمنى... اه مكنتش بتاخد بالك منها.. بس كنت حاسة إني محتاجة اقولها اوى

ردَّ ثائر مازحا:

- لا اخدت بالى على فكرة.. بس كنت عامل عبيط

- ايه ده؟؟يعنى أنا بعد كل دا.. حبيبى يطلع عبيط؟؟!!

ردّ ثائر ضاحكا:

- لا بقولك عامل فيها... يعنى مش عبيط فعلا... وبعدين لمِّي نفسك احسن لك

ردّت كارمن:

- خلاص ماشى.. بالراحة بس علينا... ايه رأيك نخرج بُكرَه؟

- ماشى خلاص.. هشوف فاضى امتى وهكلمك

استمرت المكالمة عدة دقائقَ أخرى.. فتح المحبِّانِ فيهما قلبيهما ليتشاطرا جرعاتٍ من كاس الحب.. كلٌّ منهما وجد ضالتَه في الآخر.. كاد قلب ثائر يطير من الفرح بعد هذا اليوم المثمِر.. سيعتبره من أجمل أيام حياته.. إذا لم يكن الأجمل على الإطلاق.. حياته العملية أصبحت أقرب إلى تحقيق حلمه بها.. حياته العاطفية اكتملت اليوم.. تُوِّجت بحب حقيقي لم يشعر بمثله في عمره كله.. ، بقى جزء واحد فقط من حياته هو ما يؤرقه ولن تكتمل سعادته إلا به.. جزء صغير الحجم ولكنه كبير المعنى والقيمة بالنسبه له.. جزء يتمثل في ورقه.. ورقة تركها له والده.. اللغز

يقولون إن الحبَّ يسبب في إفراز هرمون يسمى بـ الأوكسيتوسين. . وهذا الهرمون يسبب السعادةَ عند رؤية الحبيب أو عند سماع صوته.. وما نراه هنا.. أن الحب سبَّب لكارمن المزيدَ والمزيد من ذلك

الهرمون.. لأنه منذ إغلاقها الخط مع ثائر والسعادةُ لا تفارق وجهَها.. تسير بين أرجاء المنزل تمازح والدها ووالدتها... ترقص في جنون على أنغام موسيقى صاخبةٍ... ملأت المنزلَ كله بأجواء الفرح... حتى والدتها أقسمت أنها لم ترَها بمثل هذه السعادة من قبل... ظلت هكذا حتى جاءها اتصال من صديقتها يارا تخبرها بصوت حزين باكٍ بأنهم وجدوا أحمدَ صديقَهم مقتولاً في شقته.. وتقول الشرطة إنها محاولة سرقة.. انهارت كارمن فور سماعها الخبر.. ودخلت في وصلة بكاءٍ مستمرة.. قبل أن تتصل بثائر لتخبره.. وما إن ردّ ثائر حتى انفجرت صارخة:

- قتلوه يا ثائر.. قتلوا أحمد.. قتلوه ولاد الـ... عشان عرض الحقيقة ومفضِلش ساكت

تحولت كل سعادةِ ثائر إلى غضب.. وكأن القدرَ يرفض أن يتِم إنهاء تلك اللوحة التي رسمت لهذا اليوم بسعادة.. شعر دائما بأن القدر في صراعٍ دائم مع السعادة.. كلٌّ منهما يحاول فرض سيطرته على الآخر إلا أن القدر ينتصر دائما وأبدا..

حاول السيطرةَ على غضبه لتهدئتها.. كلمات كثيرة انهالت عليه عبر الهاتف وسط بكاءٍ وصمت متقطع.. كل ما استطاع فهمَه منها هو قولها:

- قتلوووه.. حـرام.. حـرام.. ليه يحصل كل ده.. الشرطه بتقولك سرقة؟؟ انت مصدق كدا؟

- اهدي يا كارمن.. لا طبعا مش مصدق.. الموضوع مش هيعدى كدا.. هما عاوزين يخلوها سرقة.. احنا معانا دلوقتى الرأى العام كله.. القضية كدا بقى فيها دم.. ومحدش هيسكت على الكلام ده.. وهنطلّع يوسف ان شاء اللّه ونجيب حق أحمد.. أنا هكلم دلوقتى أستاذ هاشم وهحاول اخلّيه يفتح تحقيق صحفى في الموضوع ده.. وان شاء اللّه دمه مش هيروح هدر:

- معلش يا ثائر أنا هقفل.. مش قادرة اتكلم دلوقتى.. معلش مع السلامة

قالتها وأغلقت الخط دون أن تنتظر ردًا... ألقت بهاتفها بعيدا وارتمت على السرير.. دفنت رأسها وسط وسادتها... أخذت تتذكر أحمد... كان من أقرب الأصدقاء لها... كان يعرفها أكثر من نفسه.. تذكرت جلساتِهما معًا.. ضحكته.. نصيحته لها دائما.. حتى جاء اليوم الذي صارحها بحبه لها وقامت هي بتحطيم قلبه.. إنها اتخذته صديقًا، أراد ما هو أبعد من ذلك.. ولكن لم تكن تملك سيطرة على قلبها.. ما ذنبها؟؟.. لماذا تشعر بجزءٍ من الذنب... فلولا ما حدث ما كان رجع للتصوير مرة أخرى.. هي مشتركة بطريقة ما إذاً... صرخت في عنف.. ما ذنبي؟؟ ما ذنبي؟؟

" أيها الأغبياءُ..

قلتُ لكم مِرارا..

إن الرصاصةَ التي ندفعُ فيها..

ثمنَ الكسرةِ والدواء..

لا تقتلُ الأعداء...

لكنها تقتلُنا.. إذا رفعنا صوتَنا جهارا..

تقتلُنا، وتقتل الصغارا [(١)]"

لم تكن سارةُ تعلم بالتطورات الجديدة التي انشغل بها الإعلام، كانت تتوقع أن تسمع خبر الإفراج عن يوسف في أي لحظة.. خصوصًا بعد الفيديو الذي ظهر والذي يوضح الحقيقة كاملة.. كان الأمل قد اتسع وأخذ مكانا واسعا في صدرها.. كانت على يقين بسماع خبر الإفراج عنه.. فتحت الشاشةَ الجميلة وعلى شفتيها طرف ابتسامة تستعد للاتساع.. جولة سريعة بين القنوات كانت كافيةً ليتبدد معها أيٍّ أمل. . كانت كافية لتجعلها تقذف بالريموت بعرض الحائط وتكسر أول كوبٍ وقع تحت يدها.. كانت كافية لأن تؤمن بأن في هذه الدنيا.. في هذه البلد.. ماتت منذ قرون ما تسمّى الحقيقة.. وذلك قبل أن تواري جثمانَ زوجِها المسمّى بالعدل.. فبدلاً مِن أن ترى الفيديو الحقيقي المنتشر على الإنترنت رأت فيديو هزيلا يعرض اعتراف يوسف الذي مِن الواضح جدا أنه تم تحت التهديد.. نظرا لمنظر يوسف الذي ظهر به... رأت سفلةً ومخنثين يتغنون بحكمة وفراسة رجال الشرطة الذين أثبتوا للعالم كله أنه جاسوسٌ وعميل.. عكس ما يقوله الشارع... رأت

(١) **المقطوعة للراحل أمل دنقل**

النفاقَ بعينه يتمثل أمامها بكل صوره وقبحِه.. هربت من الواقع وذهبت إلى عالمها الافتراضى.. إلى الإنترنت.. ذلك الذي ترى فيه بشرا مثلها.. تشعر بأنها ليست وحدَها في هذا العالم، مؤمن بفكرة معينة.. فتحت حسابها على الفيس وكتبت " شوفتوا ولاد الو.... . بيقولوا ايه؟ عالم مـ..... بجد" . .. لم تكن أبدا تلك الفتاة التي تطلق ألفاظًا مثل هذه.. لم تكن تحب السبابَ.. لكنهم السبب... أجبروها على إطلاق كل أنواع السباب حتى تلك التي كان من الممكن ألا تعرف معناها... إنهم يُخرِجون أقبحَ ما بداخلنا... يجبروننا على أن نمشى في الشوارع لا نطلق سوى السباب... سيأتى يومٌ يسألنى فيه ابني.. ويقول لى: "أبي ما معنى تلك الشتيمة؟" . وستكون إجابتى . شاهِدِ التلفزيون وأنت تعرف... ثم يعاود ويسألنى عن سبابٍ آخر.. فأجيبه نفس الإجابة.. ببساطة. جولة صغيرة على صفحات الفيس أعطت لها ابتسامة استحت أن تخرج... فقدْ رأت حدثا لندوة تقام بالإسكندرية غدا عن أهمية الإعلام في مصر والعالم العربي ويقدمها الصحفي الشاب ثائر مراد.. وتحت إشراف الأستاذ الكبير هاشم الشرقاوي... سعدتْ قليلا بهذا الخبر.. ستقابل أستاذَها الكبير والبطل الصغير التي تولَّى الدفاعَ عن يوسف حبيبِها... أخبرت صديقتَها نور أن تستعد للذهاب معها.. بعد عدة محاولات لإقناعها.. نجحت في ذلك.

اليوم التالي..

كانت سارة ونور أولَ الحاضرين في الندوة.. جلستا في أول صف.. دقائق معدودة حتى ازدحم المكان.. تعرفت على ثائر من خلال صوره على الإنترنت.. رأته يتقدم الكثير من الناس ليعتلي المنصة، وخلفَه هاشم الشرقاوي.. وخلفَهما رجُلٌ ثالث لم تتعرف عليه.. جلسوا ثلاثتهم أمامهم وبدأت الندوة بعد مقدمةٍ رائعة قدمها هاشم الشرقاوي ليعطى الكلمةَ بعد ذلك لثائر.. الذي قال نصا:

" بسم الله..

قبل أي شيء.. أود أن أشكر أستاذ هاشم الذي تشرفت بالعمل معه.. وهذا لمن لا يعرف هو أول لقاءٍ بينى وبينه... حقيقة.. لا أدري.. لا أدري كيف أبدأ حديثي اليوم... هل أبدأ حديثي بكاءً على إعلاميين ماتت ضمائرهم وباعوا وطنهم وشرَفهم مقابل المال أو الشهرة... ؟ أم أبدأ حديثي بتذكيري وبتذكيركم بصديقنا يوسف.. ؟ الذي لا نعلم منذ أن تم اعتقاله.. أين هو.. والذي أرى حملةً إعلامية مُعَدّة ومنسقة لتشويه صورته... لا أدري.. ولكن ما أعلمه.. بأننا إن ظللنا على هذا المنوال.. فلا قيام لهذه البلد مرة أخرى

لقد تبين لى حقيقة.. حقيقة يجهلها معظمنا.. لقد تبين لى... أن

إعلامنا.. الجميل الراقي.. يتبنى نظرية موجهة يعمل بها منذ عشرات السنين.. ألا وهى.. نظرية (إنبات الاثنين)... ما معنى تلك النظرية؟؟

نظرية إنبات الاثنين تعنى.. أن إعلامنا يزرع برأسك منذ صغرك بذرتيّن... ويتركك أنت تحدد بنفسك إمّا أن تُنمّي وتكبر تلك البذرتين.. أو تستأصلهما من البداية... فإذا قررتَ أن تنميهما وترعاهما ففي النهاية ستحصل على(قرنين) أو (أُذُنَيّ حمار).. فإذا كنتَ تشاهد ما يحدث وأنت تعلم أنه ليس الحقيقة ومع ذلك تصمت بل وتصفق لهم.. فبذلك أنت حصلتَ بكل جدارة على(القرنيّن)... وإذا كنتَ تشاهد ما يحدث وتصدق حقا أن هذا ما يحدث وتصدق كل ما يقال لك.. فأنت بذلك حصلتَ وبكل جدارة أيضا على (أُذُنَيّ الحمار)... وأمّا إذا كنتَ مِن ضمن تلك الفئة القليلة التي استأصلتِ البذرتيّن من البداية... فالمجد كل المجد لك...

إخواني.. أخواتي.. تحسّسوا رؤوسكم، تحسسوا... هل لامست أيديكم نتوءً صغيرًا؟؟؟.. لا داعٍ للحرج.. فكلنا كنا كذلك... سارعوا إلى استئصاله قبل أن يكبر.. مجيئكم هنا اليوم دليل على رغبتكم في عدم الانقياد والانسياق.. اذهبوا إلى البيت... تحسّسوا رؤوس أهلكم... ساعدوهم في استئصال ما نما لديهم.. فهُم يستحقون ذلك. .. كثير منا يعتقد أن منهج السيطرة على العقول وتغيير المفاهيم وعمليات غسيل المخ تتم فقط عبّر تلك الشاشة الموجودة في كل منزل.. أو

عبر تلك الجريدة التي نقرؤها يوميا... لا.. غير حقيقي.. إن تلك العمليةَ تمارَس منذ أن كنتَ طفلا صغيرا... كلنا ذهبنا إلى المدارس.. أليس كذلك؟؟.. أنا أحد تلك الفئةِ التي عشقتْ مادة التاريخ وتأثرتْ بشخصياتهم... إننى ما زلتُ أذكر..

ما زلتُ أذكر حديثَ كتابِ التاريخ عن ثورة ٥٢... أهدافَها ومبادئَها... فرحتُ كثيرا بجلاء المَلِك العميل كما قالوا لنا.. فرحتُ أكثر بالإنجازات التي تم تحقيقها... نحتفل كل عام بـ ٢٣ يوليو.. كبرتُ.. وقرأتُ كثيرا.. قرأتُ خارج الكتب الدراسية.. وفهمت... إنها لم تكن أبدا ثورة... حتى أن لفظ ثورة... يُعَد تزييفا مُهينا للتاريخ... إنه وبكل بساطة.. (انقلاب).. انقلاب عسكري قام به الجيش على المَلك لإنهاء الملكية وإعلان الجمهورية... ربما أيده الشعب.. أو لم يؤيده.. لم تكن بيده حيلةٌ على كل الأحوال... إذاً أين الثورة؟؟... وهل تظنون حقا أنه تم إلغاء المِلكية؟؟.. مَن يظن ذلك فهو واهِم أيها السادة... لم تُلغَ المِلكية قط... فقط انتقلت المِلكية من فئة إلى فئة أخرى.. من حديث جَدي وجَدتي وكُتبِ الدراسة.. عشقتُ عبد الناصر منذ أن كنتُ صغيرا... كبرتُ.. وقرأتُ.. وعرفتُ أني كنتُ عاشقًا لديكتاتور.. لا مجال للحرية أو أن يكون لك صوت

ما زلتُ أذكر.. منذ أن كنتُ صغيرا.. حديثَ كُتُبِ الدراسة.. عن حرب ٧٣... عن انتصارنا العظيم... عن خطتنا العبقرية ودهاء قائدنا

وشجاعة صاحب الضربة الجوية... ما زلتُ أذكر... شعوري بالفخر بانتمائي لهذه البلد.. حلمتُ كثيرًا بأنني في ميدان المعركة.. قد نفد رصاصي ولا أملك سوى يدى فأخنق بها هذا الإسرائيلي حتى يموت.. حتى أتلقى رصاصةً غادرة من الخلف.. وأموت مبتسما كالأبطال.. تمنيتُ كثيرا إني لو كنتُ معهم.. شاهدتُ (الرصاصة لا تزال في جيبي) و(أبناء الصمت).. وعشتُ معهم بكل مشاعري.. غنيتُ مع الأغاني.. سينا رجعت لينا... كبرتُ... وحقا كنتُ أتمنى أن أظل صغيرا حتى لا أعي هذه الحقائق... كبرتُ وتفاجأتُ بأن صديقي الذي كان يجلس بجانبي في المدرسة ونحن صغار.. الذي عاش معي أحلامي.. يعمل الآن في فنادق طابا وسيناء ليخدم الإسرائيليين بها.. بل وبأن عدد الإسرائيليين السياحِ يفوق المصريين هناك... بل وبأن الإسرائيليين مسموحٌ لهم بالتواجد كما يشاءون، والمصريون ممنوعون من ذلك... بل وأن حتى هؤلاء المصريين الذين يعملون بتلك الأماكن مطلوب منهم تجديد أوراقهم كل ستة شهور... أُسَر الشهداء الذين دَفعوا دماءهم ثمنا لتحرير تلك الأرض... لا يستطيعون لمس تلك الأرض... عرفتُ أن إسرائيل تحصل على الغاز بأقل من المصريين.. عرفت بأن إسرائيل حصلت على كل ما كانت تريده دون أن تريق نقطةَ دم واحدة من جنودها.. عرفتُ أن ضمن اتفاقية كامب ديفيد.. شرطا يلزٍم مصرَ بتحديد عدد الجنود في سيناء... النصر الذي يصاحبه

شروط... ليس نصرا أيها السادة.

إنهم يزيفون التاريخَ كما يحلو لهم.. إننا نربّي أولادنا وأحفادنا على تاريخٍ مزيف بعيد كل البعد عن الحقيقة.. ومَن ليس له تاريخ لن يكون له مستقبل.. لا ترسلوا أولادكم إلى المدارس... إنهم يقتلون الإبداعَ ويمحون الحقيقة من رؤوسهم.. لا ترسلوهم إلى المدارس... إنهم يمارسون الديكتاتوريةَ بكل أنواعها عليهم... إنهم حتى لا يدعونهم يختاروا لون أغلفةِ كراريسهم بأنفسهم... لا ترسلوهم إلى المدارس.. سيفرِّغون عقولهم ويحولونهم إلى مجرد ببغاوات تحفظ لا أن تفهم.. تردد ما يقال لها دون أن تعي..

أخيرا...

كل ما أريد قولَه.. إن التغييرَ لن يتم إلا بعقولنا، على هذه الأرض أجيال لا تدري شيئا... تطوير عقول كل مَن حولنا هو الحل الوحيد.. ولا يوجد حل سواه.. لا بالعنف.. ولا بالثورة.. سيتم التغيير.. طالما توجد عقليات في هذه البلد كالتى نشاهدها يوميا... وشكرًا لكم "

تصفيقٌ حاد انتاب القاعةَ.. الكثيرون توافدوا ليصافحوا ثائر.. وقفت سارة بعيدا تنتظر أن يفرغ ثائر ممن حوله... بعد أن هدأ الموقف اقتربت سارة من ثائر الذي كان يقف وإلى جواره فتاةٌ جميلة، وعلى

الجانب الآخر هاشم الشرقاوي.. اقتربت حتى أصبحت وسطهم فبدأت حديثَها إلى هاشم قائلة:

- ازيك يا أستاذ هاشم... انا مبسوطه أوي إني شفت حضرتك النهاردة.. انت بجد مَثَل أعلى ليا

قاطعها ثائر قائلا:

- أستاذ هاشم مَثَل أعلى لينا كلنا

صافحَها هاشم في ودٍ حقيقي وهو يُعرِب عن سعادته بلقائها قبل أن تقول سارة:

- أنا سارة.. صاحبة الفيديو اللى منتشر على النت.. واللى يوسف فيه كان بيدافع عنى

هنا تحول اهتمام ثائر والفتاة التي بجانبه كله إليها قبل أن يمد ثائر يدَه مصافحا لها في حرارة قائلا:

- ازيك يا سارة؟؟.. معلش ماخدتش بالى منك.. عاملة ايه؟؟

ردّت سارة في ابتسامةٍ حاولت أن تُخفي بها أسىً واضحًا:

- الحمد للّه.. على فكرة أنا متابعة كل اللى بتكتبه.. مع إني كنت بَشتِم فيك في الاول لما هاجمت يوسف

وهنا تدخلت الفتاةُ التي تقف بجانب ثائر في الحوار ومدت يدَها

تصافح سارة قائلة:

- مكنش لسه عرف الحقيقة.. ازيك يا سارة.. أنا كارمن صديقة ثائر.. على فكرة اللى صور الفيديو بتاعك ده كله كان مِن أعز أصحابي... واتقتل امبارح عشان عرض الفيديو كله.. وطبعا احنا مش هنسكت.. ولا هنسيب حق أحمد يروح كدا ولا هنسيب يوسف يفضل في السجن

ردّ ثائر في سرعة:

- ما تقلقيش يا سارة... ان شاء اللّه يوسف هيطلع... أستاذ هاشم أهو.. لسّه قايلى ان حملته الصحفية بدأت عشان نطالب بالإفراج عنه.. ما تقلقيش

وجهت سارة حديثها إلى هاشم:

- مش عارفة اشكرك إزاي يا أستاذ هاشم.. انت بجد أب لينا كلنا

ثم وجهت حديثها إلى الباقى تشكرهم على مجهودهم... ثم ودَّعت إياهم بعد أن وعدوها بفعل كل ما يمكن لإخراجه.. كانت صديقتها نور بعد الندوة فضَّلت انتظارَها بالخارج... تأبطت ذراعَها وسارا معا.. ولسان حالها يقول.. متى سأراك يا يوسف؟؟!!

الخندق

بعد ١٥ يوم

بعد خمسة عشرَ يوما من الحقن بمادة الـ (lsd).. بعد خمسة عشرَ يوما من التعذيب النفسي المستمر.. أصبح على يوسف مِن العسير أن يتذكر حتى عنوان منزله.. عقله أصبح مشوّشًا.. مُحيت الكثير من الذكريات من ذاكرته.. تاريخ ميلاده.. أسماء أصحابه في العمل.. أسماء أقاربه.. كل يوم جزء من ذاكرته يُمحَى.. في البداية أدرك تلك الحقيقة.. أنه يفقد هويتَه وذاته.. حاول إبقاء تلك التفاصيل حيةً.. بحث عن أي شيء يمكن الكتابة به.. لم يجد سوى حَجرٍ صغير ملقًى في آخر الزنزانة.. أخذه وكتَبَ على الحائط.. كتَب اسمَه.. عنوانه.. لماذا هو محبوس.. وأنه يجب عليه دائما أن يكتب ليذكّر نفسه.. كتَبَ عن سارة، هو لا يهمه أن ينسى كل تفاصيل حياته بقدر ما يهمه ألا ينسى سارة، فهي الشيء الوحيد الجيد في حياته.. حاول جاهدا أن يبقي صورتَها حية في ذهنه.. كتَبَ تفاصيل ملامحها على الحائط.. حتى يتذكرها دائما.. كل ذلك كان يفعله بعد وصلات عديدة من التعذيب النفسي.. أكثرها من خياله وهو مقيد.. وبعد تلك الوصلات.. يتم فك قيودِه ليدعوه يمرح قليلا في الزنزانة... بعد أن فطِنوا إلى حيلته...

بعد أن أدركوا ما يفعله ليذكّر نفسه دائما... أَمرَهم الضابط حسام أثناء تعذيبه أن يزيلوا كل ما كَتَب.. وليكتبوا تفاصيل جديدة.. لا تمُت بِصلةٍ إليه.. مثل.. (أنا اسمي عماد).. (أنا سُجنت لأني خُنت بلدي).. (عنواني هو.. ويضعون عنوانًا وهميا).. الكثير من التفاصيل التي لا تمُت له بِصلة.. والتي مِن المؤكد أنها ستُربِك عقله أكثر وتقوده إلى الجنون.. وفعلا هذا ما حدث... عندما رجع يوسف يقرأ ما هو مكتوب.. ارتبك عقلُه بشدة.. حاول تذكّر ذلك الاسمَ وتلك الشخصياتِ.. حاول أن يستخرج من عقله الباطن ما يدل على ذلك... حاول استحقار نفسه لخيانته لبلده.. حاول إثارة أي مشاعر داخله تربطه بكل ما هو مكتوب... أصبح لا يذكر اسمَه.. ولا أيًا من تفاصيل حياته.. أصبح فاقدًا لهويته.

بعد مرور ٢٠ يوما

بعد مرور عشرين يومًا من الحقن... بدأ عقل يوسف يقوده إلى الجنون... إذا تُرِكَ وحيدا دون تعذيب يفعل حركاتٍ غيرَ مفهومة بيديه وقدميه.. يضحك كثيرا وحدَه.. ثم يبكى أكثر أحيانا أخرى.. يخبط رأسه في جدار الزنزانة حتى ينزف ويسقط من الإعياء... ينطق بكلمات غير مفهومة.. تَلعثَم لسانُه.. وأصبح ينطق الكلمات بطريقة خاطئة..

لقد حققوا ما أرادوا... لقد فقدَ عقلَه وذاته

لقد قادوه إلى الجنون

لقد كان لحسام... ما أراد

الفصل العاشر

نوفمبر ٢٠١٦

لو سألوني برأيك مَن هو أعظم رسامي العالَم؟ وما ميزة كل منهم؟ لأنكرتُ عبقريةَ دافنشي وشغفَ بيكاسو وسرياليةَ سلفادور دالي، ولقلتُ بكل بساطة إن الشتاءَ هو أعظم رسام في العالم.. فتلك اللوحات التي يرسمها لنا تبقى محفورةً في أذهاننا طويلاً.. فبلوحاته تصنع الذكريات.. بأمطاره وغيوم سمائه.. والوجوه التي تجرى لتختبئ.. والأيادي المتعانقة التي تتحدى البرد وتسير جنبا إلى جنب.. والناس حالمة تقف تنظر إلى الفراغ تسترجع ذكرياتٍ مرت عليها بذلك المكان.. جميل هو الشتاء بكل صوره.

كل تلك اللوحات أجبرت ثائر على الاستيقاظ باكرًا.. ليكون جزءً من تلك اللوحة.. ذهب إلى مقهى على طريق البحر يمنِّي نفسَه بفنجان من

القهوة.. اختار طاولةً تسمح له الرؤية منها بأن يرى الطريقَ والبحر.. أخرج الورقة التي تلازم جيبَه دائما.. لغز والده.. فردها أمامه على المنضدة.. نظر لأمواج البحر الثائرة مفكرا في حل اللغز.. لحظات معدودة قبل أن يقطع عليه أفكارَه ذلك النادلُ حاملا صينية بها فنجان القهوة وكوب من الماء.. وضع النادل فنجانَ القهوة في هدوء على المنضدة.. ثم هَمّ بوضع كوب الماء بجواره قبل أن تفلِتَ يدُه ويسقط كوب الماء على المنضدة مغرِقًا إياها وكل ما عليها... قفز ثائر بقوةٍ لينقذ ورقةَ والدِه ولكنها كانت قد ابتلت تمام.. بدأ النادل وصلةً طويلة في الاعتذار قبل أن يطمئنه ثائر بأنه لا توجد مشكلة، أمسك ثائر الورقةَ المبتلة بحرص لتجعلها تصفِّي الماءَ الذي بها.. نظر بها تأكد أن الكلام ما يزال موجودا.. هَمّ بوضعها بجوار مكان جاف لتجف لكن أثارَ فضولَه شيء ما بالورقة.. رفعَ مرة أخرى الورقةَ إلى وجهه يدقق بها.. وجد خلف كلماتِ الرسالة يظهر لونٌ بُني غير واضح.. وكأن شيئا مكتوبًا بلونٍ آخر... دقق ثائر النظرَ مرة أخرى.. تأكد مما رأى... أهذا حِبرٌ سري؟؟.. أتوجد كلمات أخرى مكتوبة بحبر سري؟؟.. يبدو أنها كذلك.. هكذا قال لنفسه.

رجعَ إلى البيت مسرعا.. فتح اللاب توب الخاص به.. بحث في الإنترنت عن كيفية إظهار الكلام المكتوب بالحبر السري.. وجد أن معظم الكتابات التي تُكتَب بالحبر السري.. يمكن إظهارها عن طريق

قطنةٍ مبللة بمحلول الأمونيا والذي يتواجد في الأسواق في منتجاتٍ كمحاليل تنظيف زجاج السيارات... أسرع ثائر إلى شراء زجاجة من المشار إليه.. كانت الورقة قد جفت واختفى الكلام المكتوب باللون البني.. فرَدَ ثائر الورقةَ أمامه على سطح المكتب.. بلل قطنة في محلول الأمونيا... مسحَ برفقٍ بالقطنة على سطح الورقة، تحولت ملامح ثائر إلى ذهول عندما سطر وسط الورقه يتحول إلى اللون البني.. لتظهر تلك الكلمات:

سترابو.. كتاب جيوجرافيكا.. الجزء الأول.. ص ٢٣٧

تحوَّلَ الذهولُ في ملامح ثائر إلى ابتسامةٍ عريضة وهو يكرر الكلماتِ في فرح... لقد نجح أخيرا في التوصل إلى خيطٍ آخر يقوده إلى الحل النهائي للغز.. ذهب مسرعا إلى مكتبة والده.. يبحث بين مئات الكتب الضخمة عن اسم هذا الكتاب.. سترابو.. سترابو.. أخذ يكرر الاسمَ في نفسه وهو يبحث بين كل تلك الكتب... حتى عثر على قسمٍ صغير يضم أجزاء هذا الكتابِ كلِّها.. بحث بعينيه عن جزءٍ يحمل الرقمَ واحد حتى وجده مدفونًا للداخل.. أزال الغبارَ بطرف كُمِّه من عليه وهو يفتحه على الصفحة المذكورة في الورقة.. صفحة ٢٣٧.. قلبَ بين الصفحات سريعا حتى عثر عليها... ليُفاجأ بظرف موضوعٍ بين صفحتَي الكتاب.. التقطه ثائر في لهفةٍ واضحة.. فتحه في سرعة ليجد ورقةً صفراءَ بالية مطوية بعناية.. أخرجها بحرص شديد.. فتحها في بطء.. ليجدها

عبارة عن خريطة قديمة تبدو وكأنها مقتطعةٌ من كتاب أثري.. عليها بعض الكتابات باللغة الرومانية.. ويجد دائرة محددة بقلمٍ حول مكانٍ معين بالخريطة.. اخذ ثائر كل الكلمات المكتوبة بالرومانيةً وتَرجَمها عن طريق الإنترنت.. لتظهر نتائج البحث الآتي:

" عنوان الخريطة... قبر الإسكندر الأكبر.. الإسكندرية

الشارع الذي تقع به النقطة المحددة هو: الكاردو دى كومانوس.

الجملة المكتوبة بأسفل الخريطة تقول: إن قبر الإسكندر يقع في هذا الشارع. والشارع المقصود هنا هو شارع الكاردو دى كومانوس

وكانت النقطة المرسومة بالقلم تقع على طرف ذلك الشارع.. في حين أن القبر يقع بالقرب منه بقليل... عاوَدَ ثائر البحثَ عن اسم ذلك الشارع.. وكانت نتائج البحث مذهلة... بكل المقاييس

لم تجِد كارمن أمام ذلك الرنين المتواصل لهاتفِها سبيلا إلا الاستيقاظَ للرد عليه.. التقطت هاتفَها في تكاسُلٍ وهى تعد نفسها لسب مَن يتصل بها في هذا الوقت إذا لم يكن الأمر مهما.. نظرت في الشاشة لتجد اسم (حبيبى ثائر).. ردت في سرعة:

- ايه يا حبيبى.. فيه حاجة حصلت؟

جاءها صوت ثائر على الجانب الآخر يقول في سعادة:

- اه قومى يلا. . البسى بسرعة.. هعدى عليكى دلوقتى بالعربية

- ايه خير. . ايه اللى حصل؟

تابع ثائر بسعادة.. مفيش وصلت لحل اللغز.. قومى يلا البسى

هتفت كارمن في فرح:

- بجد طيب ايه هو؟؟

- هفهمك كل حاجة في العربيه.. يلا قومى بسرعه

- طيب طيب

فى غضونِ دقائقَ كانت كارمن تقف في الشارع منتظرةً ثائر.. وسرعان ما وصل.. فتح لها باب السيارة في سرعة فقفزت إلى جانبه وهى تقول:

- آدينى نزلت بسرعة اهو.. قول بقى يلا.. ايه اللى حصل؟

ابتسم ثائر ابتسامةَ نصرٍ وهو يقول:

- عرفت حل اللغز فين خلاص.. وجبتك معايا دلوقتى عشان تشهدى اللحظة دى

- يا بارد قول بقى.. متجننيش

قالتها ثم قامت بلكمِه في كتفه.. قبل أن يقول:

- خلاص خلاص.. هقولك

ثم قصَّ لها كل ما حدث معه حتى اللحظة التي بحث فيها عن اسم شارع (الكاردو دى كومانوس).. فتابع قائلا:

- الاقيلك بقى يا ستى الشارع ده ما هو إلا عبارة عن شارع (النبى دانيال).. والمكان اللى متحدد في الخريطه ده يبقى بيت جدتى.. بيت والدى اللّه يرحمه القديم.. اكيد هلاقى الحاجة اللى شايلها هناك

- طيب انت عارف هتدور فين؟؟هتقلب البيت كله؟ ولا هتعمل ايه؟؟

- لا أنا عارف هدور فين.. زى ما والدى ربط اللغز كله بأمل دنقل.. يبقى أمل دنقل اللى هناك في البيت هو اللى هيوصلنا

- مش فاهمة

- اصبرى بس وانتى هتفهمى كل حاجة

سرعان ما وصلا إلى منزل جدته.. كان الوقت ما يزال مبكرا لإيقاظ جدته في هذا الوقت.. عدة طرقات ثقيلة ولحظات مرت كالدهر عليهما قبل أن تفتح جدته البابَ لتفاجأ بهما:

-ايه ده؟؟ ثائر؟ خير يا ابنى فيه حاجه؟؟.. ايه اللى جايبك بدرى كدا؟

دلفَ ثائر وكارمن إلى الداخل وهو يقبِّل جدتَه قائلا:

- أنا اسف يا ماما.. بس في كتاب كنت بدوّر عليه ضرورى ومش هلاقيه غير في المكتبة بتاعت بابا هنا

- ماشى يا حبيبى ده بيتك.. شوف اللى انت عاوزه

قبَّلتها كارمن على خديها قبل أن تلحق بثائر إلى غرفة مكتب والده... وقف ثائر في منتصف الغرفة ينظر لصورة أمل دنقل في منتصف الجدار.. وقف قليلا قبل أن تسأله كارمن:

- هنفضل واقفين كدا؟

لم تتلقَّ ردا.. تقدَّمَ ثائر ببطء وسَحبَ أحد كراسي المكتب.. أزاح المنضدةَ من أسفل الصورة ووضع مكانها الكرسي.. ليصعد فوقه.. قبل أن ينتزع صورة أمل دنقل في بطء ويسلمها لكارمن.. أخذت كارمن الصورةَ ووضعتها بحرص جانبا.. كان الجدار خلف الصور عبارة عن ورق حائط قديم.. تحسس ثائر الورقَ بيده قبل أن يطبِق أصابعه ويطرق بها على الورق خلف مكان الصورة.. شَعرَ بالفراغ خلف الصورة، أحكمَ قبضتَه وطرَق بقوة على الورق، اخترقت قبضتُه الورقَ لتجد فراغًا وراءه.. تابع ثائر في تقطيع باقي الورق حتى ظهر له مربع يمتد إلى الداخل.. مد يدَه بأكملها لكنه لم يصل للنهاية.. توجَّه إلى كارمن برأسه وهو يقول:

- ناوليني بطارية

- وانا أجبلك بطارية منين يعنى؟

رد ثائر في تهكم:

- أُمّال مُخرِجة إزاي.. ؟ أنا بشوفهم بيعملوا كدا في الأفلام كلها.. لازم تبقى عاملة حسابك

- واللهِ مكنتش اعرف إني همثل مشهد tomb raider ده

- طيب خلاص.. شوفى كدا الكشّاف في موبايلك

ناولته هاتفَها وهى تفتح الكشّاف به.. قبل أن يمد ثائر يده إلى الفتحة.. ليرى صندوقًا صغيرا يرقد في نهاية الممر الصغير

فتابع كلامه لكارمن:

- ناولينى المكنسه اللى هناك دى

أسرعت كارمن تناوله المكنسة الخشبية.. فمد طرفها المشعر ليسحب به الصندوق من النهاية.. مثيرا عاصفةً من التراب التي تسببت في ان يكح كلٌّ منهما.. قبل أن يضع الصندوق على سطح المكتب ويزيل ما عليه من تراب وغبار.. حاول فتحَه لم يستطع.. تذكّر المفتاحَ الذهبي.. أخرجه من جيبه.. بحث عن مكان فتحةٍ يمكن أن يدخل منها المفتاح.. حتى وجد فتحةً في منتصف الصندوق... أدخَل المفتاحَ بيدٍ مرتعشة.. وقلبٍ يدق بعنف.. انتظر طويلا من أجل هذه اللحظة.. تعلقت عينا كارمن بلهفة على يد ثائر.. التي أدارت المفتاح بباطن الصندوق.. فأصدر تكةً صغيرة تدل على أنه تم فتحه... نظرَ ثائر لكارمن بعيون تحمل الكثير من المشاعر.. توتر.. سعادة.. قلق.. لهفة.. قبل أن يفتح

الصندوق ببطء ليجد أمامه كتابًا ذا غلافٍ أحمر بدون عنوان.. سحبه ثائر من مكانه ليجد تحته المئات من الأوراق ترقد.. ركز أكثر على الكتاب.. فتحه ليجد أول صفحة مكتوب بها:

" هذا قبري... وأنت بذلك أحييتَني

أنا لم أستطع أن أحيا في زمني

يا مُحبيني.. أيًا ما كان اسمُك أو زمنُك

أطلب منك.. أن تنشر هذا الكتاب

التوقيع

مراد صبحي "

قلَّبَ ثائر في الأوراق.. وجد وثائقَ تثبت تورطَ شخصياتٍ كبيرةٍ في مقتل د. نشأت معروف.. رئيس مجلس الشعب السابق.. وبعضها ما يزال حيًا يُرزَق.. ووثائقَ أخرى تثبت تورط الحكومة في صفقاتٍ مشبوهة.. ومستنداتٍ تثبت تورط رجالِ أعمالٍ في قضايا اغتيالات وتصفية أشخاص.. والعشرات والعشرات من الوثائق التي لم يتسنَّ له الوقت لتفحصها بدقة.. أخذ هو وكارمن الكتابَ والأوراقَ كلها وأسرعا إلى الخارج هو وكارمن.. فحَص بعض الأوراق هو وكارمن في السيارة قبل أن تقول هي:

- الأوراق دى ممكن تودى ناس موجوده لحد دلوقتى في داهية لو الملفات بتاعتهم اتفتحت تانى

رد ثائر في حيرة:

- مش عارف.. بس بيتهيألى دى مواضيع قديمة ومحدش هيبصلها وفى قضايا اتحكم فيها اساسا، واقصى حاجة ممكن تعملها هي فضايح للناس دى

- طيب ما هو ده مش شوية... انت مش عاوز تنشر الكلام ده ولا ايه؟

- لا طبعا هنشره.. اطلعي بينا على مصر.. هنروح للأستاذ هاشم عشان ينشره بُكرَه

ثم قام من خلف مقعد قيادته ليتبادل هو وكارمن قبْلَ أن يقول:

- سوقي انتي.. عشان أنا عاوز اقرا الكتاب بتاع والدي

استجابت كارمن لطلبِه.. وقفزت خلف مقعد القيادة.. أخبرها أن تتصل بهاشم الشرقاوي وتقص له ما حدث وأنهما في الطريق إليه الآن. .. قبل أن يسند هو رأسَه للوراء ويقرأ:

الباب الأول

مفاهيم.. خاطئة

الديمقراطية

لا يوجد في هذا العالم ما يسمى ب (الديمقراطية).. في كل شعوب الدنيا.. الديمقراطية مجرد مصطلح خاوٍ لا يمارس.. مصطلح تم خلقه فقط ليمارس السياسيين ألاعيبهم القذرة تحت غطاءه.. وعليك أن تفهم أن لمصطلح (الديمقراطية) تعريفان:

التعريف الأول:

هو أن المجتمع الديموقراطى هو المجتمع الذي يملك فيه الشعب الوسائل اللازمة للمشاركة في شئون بلادهم.. وان تكون وسائل الإعلام حرة

المفهوم الآخر:

وهو المفهوم الذي لا تعرف حكامنا سواه هو : أن يمتنع أي من الشعب في المشاركة الفعالة في إدارة شئون البلاد وأن تكون وسائل الإعلام جميعها تحت سيطرة الحكومة القائمة

وهذا ما يطبق في مصر وسائر دول العالم..

سراب الخطر

لن يتحقق الأمان أبدا، يجب أن تعلم ذلك جيدا، سيظل الخطر قائم وحولك، تراه تارة في البطالة، وتارة في غياب الأمن و البلطجة، له عده صور وأشكال، اذا انتهى بشكل، سيبدأ بشكل آخر

الشعوب بطبعها جبناء، يجب أن تشعرهم بأنهم في خطر دائما، يجب أن تقول لهم بأن الخطر يحدق بهم من كل جانب، حتى يأتوا إليك مسرعين، أنقذنا من فضلك.. سنموت.. أنقذنا من ذلك الجحيم، فتقوم انت بفرض القوانين وفعل كل ما يحلو لك وتمرير كل ما ممكن إن يعترض عليه الشعب بحجة انك بذلك تحميهم من ذلك الخطر، لا تظن ابدا ان ذلك الخطر سينتهى يوما، انت واهم اذا ظننت ذلك، و تظل لا تعرف انت لماذا لم ينتهى بعد، واذا ضاق بك الصبر وثورت.. يوهمونك بانه تم القضاء عليه وبأن كل شيء أصبح على ما يرام، وقبل ان تطالب بحريتك.. قبل ان تطالب بحقوقك.. ستجد خطر جديد ظهر... ستركض اليهم كالعادة.. أنقذونا مرة أخرى.. لتستمر دورانك في دائرة مغلقة.. لن تخرج منها إلا بكسر الدائرة ككل..

الديون

برأيك كيفَ تسيطر الولاياتُ المتحدة على حكوماتِ الدول الأخرى؟؟ كيف تُملي شروطَها وتفرض سيطرتَها على الدول الأُخرى؟ إنه بالدين

هناك مقولةٌ لجون آدامز تقول " هناك طريقتان لقهر واستعباد أي أمة، الأولى هي بحد السيف.. والأخرى هي الديون".. إنهم يبحثون عن أي بلدٍ لديها موارد.. ثم يرتبون لهذه البلد قرضًا ضخمًا من بنك النقد الدولي أو أيٍّ من المنظمات المشابهة.. ويكون سبب القرض مثلا إعادة بناء البِنية التحتية للبلد.. محطات توليد كهرباء... الخ.. أمور

لا تفيد الغالبيةَ العظمى من الناس.. ويظل البلد حاملا دَيْنًا ضخمًا.. من المستحيل سداده.. وذلك هو المطلوب ألا يسددوا.. ليأتوا بعد فترة بعد ازدياد الديون ليقولوا لك إنك مَدينٌ لهم بالكثير من المال.. إذا لم تستطع السداد فعليك دفع شيء مقابل مثل بيع مواردك.. أو إنشاء قواعدَ عسكريةٍ لديك.. أو أرسِلوا قواتِكم لدعمنا في مكان ما.. والمزيد من تلك الأمثلة

وعلى سبيل المثال.. انتخاب (مصدّق) في إيران عام ١٩٥٣ كان يؤمن بالديموقراطية الحقيقية.. كان بدأ في تنفيذ فكرته وهى أن على شركات البترول الأجنبية أن تدفع أكثر ثمنًا للبترول الإيراني.. وطبعا تلك السياسة لم تعجب الولاياتِ المتحدةَ التي أرسلت عميلا من مخابراتها مع بضعة ملايين كان لها بريقها.. وبعد فترة تم الإطاحة بحُكم مصدّق وجلبِ شاه إيران.

الإكوادور سنة ١٩٨١ بعد عدة حكام ديكتاتوريين موالين للولايات المتحدة.. تم إجراء انتخابات ديموقراطية حقيقية.. وتم ترشيح خايمر الدوس للرئاسة.. وكانت إستراتجيته تتمثل في تسخير كل موارد الإكوادور ليكون المستفيد الوحيد منها هو الشعب.. وبعد أن بدأ تطبيقَ تلك السياسات.. لم يعجب ذلك البيتَ الأبيض.. فتم اغتيالُه

خلاصةُ القولِ.. إن الولاياتِ المتحدةَ لا تدع حاكمًا في أي من الدول النامية لا تكون غيرَ راضيةٍ عنه... مهما ظهَرَ لكم غير ذلك.. فإن

حكامكم الحاليين والآتين خاضعون للبيت الأبيض.. وإذا أفلت منه أحدُهم فلن تطول به مدة الحُكم

تابَع ثائر القراءةَ طوال مدةِ رحلتهم إلى القاهرة.. قبل أن يغلق الكتابَ ويقول لكارمن:

– الكتاب ده فيه بلاوى.. عرفت دلوقتى والدى معرفش ينشره ليه

ردت كارمن:

– انا لقيتك منهمك فيه فمردتش اقاطعك... احنا خلاص فاضلنا عشر دقايق ونوصل

هز ثائر رأسه متفهما.. قبل أن يسند رأسه إلى الخلف وينظر للطريق من النافذة مفكرا.. إنه قابَ قوسيْن أو أدنى من تحقيق حلم والده.. بعد أن قرأ كتاب والده تأكد أن فِكر والدِه تخطى حدودَ زمنِه الذي عاش به والزمن الذي يعيش به ثائر الآن.. عرَف لماذا قتلوه... أقسَم في سره بأنه سينشر كل هذا ليعرف العالم أكثر عن ذلك البطل وليفضح هؤلاء الجبناءَ.. تنبَّه على صوت كارمن وهى تخبره بأنهم قد وصلوا للعنوان الذي أخبرها به هاشم الشرقاوي في الهاتف.. ترجَّلا من السيارة وصعدا إلى مكتب هاشم بسرعة.. كان منتظرا إياهما.. سلمه ثائر الأوراقَ والكتاب الذي ألقى نظرةً سريعة عليه قبل أن يقول:

– ده ورق مهم جدا يا ثائر... انت عاوز تنشره كله صح؟

رد ثائر في حزم:

- عاوز انشر كل كلمة مكتوبة هنا

- طيب يلا بينا على مقر الجريدة

قالها ثم سلمه الكتابَ والأوراق وهو يقول:

- خليهم معاك يا ثائر.. دول مسؤولية

أخذ ثائر وكارمن الأوراق قبل أن يهم ثلاثتهم بالخروج.. فتح هاشم بابَ المكتب ولحق به ثائر وكارمن في سرعة و. .

- رايحين فين.. ؟ ما لسّه بدرى

اصطدم نظرهم بخمسة رجال ملثمين يقفون أمام المكتب معترضين أي طريق للخروج.. صاح بهم هاشم الشرقاوي:

- اهرب يا ثائر.. اهربوا...

لم يكمل جملتَه فقدِ انقض عليه أحد الملثمين يلكمه بقوة مما أدى إلى سقوطه أرضا.. فانحنى يغرس حقنةً في رقبتِه.. وفى نفس الوقت انقض الأربعة الآخرون على ثائر وكارمن.. أمسك أحدهم بثائر من الخلف قبل أن ينقض الثاني يغرس سن الحقنة في رقبته.. وبالمثل حدث مع كارمن.. قبل أن يسقط ثلاثتهم فاقدي الوعي..

×××

استيقظتْ سارة في ذلك اليوم على خبرٍ، خبر هو الأسعد في حياتها، ألا وهو الإفراج عن يوسف هارون اليوم.. كان نَصُّ الخبرِ يقول " بعد التحقيق مع المدعو يوسف هارون، سيتم الإفراج عنه اليوم من خلال مديرية الإسكندرية وذلك لاتضاح عدم سلامة قواه العقلية"... لم تفهم سارة الخبرَ بأكملِه، ولم يكن يهمها.. الأهم عندها أنه سيخرج اليوم.. ولكن ذلك لم يمنع نفسَها من التساؤل ماذا تعنى جملة "عدم سلامة قواه العقلية"... ؟ هل مثَّلَ يوسف عليهم الجنونَ بالداخل؟ أم أن ذلك سببٌ واهٍ حتى لا يعترفوا أنه تم الإفراج عنه بضغطٍ من الشعب.. ؟ ارتاحت للاستنتاج الثاني أكثر؛ لأنها لم تكن تظن أن يوسف بمثل هذه البراعة كي يخدعَ كل هؤلاء... طردت كل الأفكار من رأسها، ارتدت أفضل ما لديها، اتصلت بثائر لتخبره وليكونَ معها في انتظاره اليوم، سعِدَ جدا بسماع هذا الخبر ولكنه أخبرها أنه في طريقه إلى القاهرة لأمر مهم جدا.. وأوصاها أن تبلغ يوسف تحياتِه... حشدتْ عددا لا بأس به من مؤيدي القضية، كتبوا اللوحاتِ وطبعوا صورَه حتى يكون هناك استقبالٌ يليق ببطلٍ عند خروجه. وفي الموعد المحدد كانوا هناك تتقدمهم سارة، تنظر بشغفٍ وشوق إلى مدخل المديرية، وكأن العالَمَ كله توقف عند ذلك المكان.. تُرَى ماذا تفعل حينما تراه؟ هل ستجري لترتمي في حضنه وتعبِّر له عن اشتياقها له؟؟ خجلُها وطبعها يمنعانها من ذلك... تُرَى ماذا سيفعل هو حين يراها مرة أخرى؟؟ رسمت

أحلامًا وتوقعاتٍ بخيالها، مشاعرُ كثيرةٌ انتابتها في تلك اللحظة، شعورٌ بالنصر، بأنها كانت سببًا في تحريك الرأي العام والضغطِ على أجهزة الدولة، وشعورٌ بالحب اللا منتهى... حتى أنها تريد أن تترك كل ما حولها، أن تتخلى عن خجلِها وطباعِها وتجري ترتمي في حضنه فور رؤيته. أخرَجَها مِن أحلامها وخيالها ذلك الشخصُ الذي يقترب من المدخل في بطء، شخصٌ يشبِه يوسفَ كثيرا.. ولكنه ليس هو، شَعرُه أشعث، وذقنه طويلة، وملابسه شِبه مقطّعة... مهلا... إنه يوسف... كيف أخطأتُه في البداية؟؟ صَدَمها ذلك المنظر للحظات... خرَج ذلك الشخصُ وانحنى يسارا مكمِلا طريقَه وكأنه لم يرَ العشراتِ الواقفين في انتظاره منادينَ باسمِه.. لم يرَ صورَه المرفوعةَ.. نادت الجموعُ عليه... يوسف... يوسف... لم يلتفتْ ذلك الرجُلُ وتابَعَ سيرَه... جرت سارة وحولَها الكثير من الشباب نحوَه... لتقِفَ أمامَه مباشرة، صدَمَها منظرُه أكثر، صدمتها نظراتُه الشاردة الناظرة للفراغ، أمسكت بكتفيه وهزَّتهما كمحاولةٍ يائسةٍ منها لإيقاظِه قائلة:

- يوسف !! يوسف!! عملوا فيك إيه؟؟!!

تابعَ يوسفُ النظرَ لها بشرودٍ ودهشة كمَنْ يريد أن يفهم ماذا تريد منه تلك الفتاة، انهارت سارة من رؤيتِها ذلك المنظر.. ودخلت في وصلةٍ حادة من البكاء وهي ما تزال تقف أمامه قائلة:

- عملوا فيك ايه يا حبيبى... ؟ اهىء اهىء... بص لى يا يوسف... مش

فاكرنى؟؟.. أنا سارة

نظر يوسف لأعلى.. مد يدَه ممسكا برأسه كمنْ يحاول أن يتذكر.. قبل أن يرجع مرة أخرى للنظر للفراغ ويتابع سيرَه... جرت وراءه سارة وهي تبكي.. وتصرخ به:

- افتكر يا يوسف.. متخلهمش ينتصروا عليك.. أنا سارة.. بُص لى.. مش فاكر الكُلية؟؟.. مش فاكر الحفلة؟؟.. بُص لى يا يوسف وافتكر

أزاحها يوسف بيده جانبًا وتابع سيره.. لم تحتمل سارة ذلك المنظرَ أكثر من ذلك.. ارتمت على الأرض وجلست تبكي بشدة... في حين جرى بعض الشباب على يوسفَ وأركبوه سيارةً معهم لإيصاله للمنزل.. جلست سارة على الرصيف تبكي كثيرا.. دافنةً وجهَها بين رِجليها.. تبكي على كل ما ذهب.. تبكي على وطنٍ عشقته فألقاها بإهمال على جانبَي الطرق.. تبكي حُبًا صادفته فلم يترك بها سوى الوجع والألم.. تبكي يوسفَ كما بكى يعقوب. . يوسف.. ولكن هذه المرةَ لا عودةَ ليوسف، فقد ذهبَ للأبد.

× × ×

ساحةٌ واسعةٌ تبدو وكأنها مهجورةٌ منذ زمن، تتوسطها أعمدةٌ ضخمة مَن يراها أولَ مرةٍ يعتقد أن هذا المكانَ كان جراجَ سياراتٍ قديما وتم هجرُه، اصطفَّ عددٌ من الرجال الملثمين حاملي الأسلحة في شبهِ

دائرةٍ حول المكان، وكان في المنتصف ثلاثة مقاعدَ متحركةٍ يجلس عليها ثلاثة أشخاصٍ مقيدين بأغلالٍ معدنية من ذراعَي الكُرسي، يبدو وكأنهم فاقدوا الوعي، وتلك الكراسي تم إيصالُها بما يشبِه المحاليلَ الطبيةَ في المستشفيات، فوق كل كرسي محلول لونه أخضر، وفى نهاية كل طرف ما يشبه الكانيولا الطبية تم وضعُها في يد الأشخاص الجالسين، وقف أمامهم ضابط ببدلتِه الرسمية ينظر بظفرٍ وخلفَه اثنانِ من الرجال لا يشبهانِ العساكر، قبل أن يشير إلى ذلك الشاب فاقد الوعي ويقول:

- فوِّقوه

أسرع أحدُهم بإحضار دلوِ ماءٍ مثلّج وسَكَبه فوق رأسه قبل أن يقوم بلطمِه بقوةٍ على وجهه مرتين. انتفضَ جسدُ الشابِ بقوة وشهق قبل أن يقول له الضابط بشماتة:

- حمد اللّه على السلامة يا ثائر

نظرَ ثائر حوله ليجد نفسَه مقيدًا إلى كرسي وأمامه بعدة أمتار تجلس كارمن على كرسي آخرَ فاقدةَ الوعي، وعلى جانبه الأيسر بعدة أمتار يجلس أيضا هاشم الشرقاوي على كرسي متحرك فاقدَ الوعي، قبل أن يرجع بنظره مرة أخرى إلى الضابط ويسأله:

- انت مين؟ وايه اللى جبنا هنا؟؟

ابتسم حسام ابتسامةً باهتة قبل أن يقول:

- انا الظابط حسام... اللى كنت مسئول على عملية يوسف.. واللى ظهرت في الفيديو.. وعلى فكرة صاحبكو يوسف ده انسوه.. بقى حد تاني خالص.. بقى أي حد تاني غير يوسف

رد ثائر:

- عملتوا فيه ايه يا ولاد الكلب؟

تجاهَل حسام ثائر وهو يأمر الرجليْن خلفَه بإيقاظ كارمن، أسرع أحدُهم بسكب الدلو المثلج ولطَمَها على خدِّها بقوة مما سبَّبَ في إسالةِ خيطٍ رفيع من الدماء على طرف شفتيها

فصرخ ثائر فيه:

- سيبها يا جبان. . ملكش دعوه بيها... اضربنى انا

ابتسم الظابط وهو يغمض عينيه ويرفع يدَه قائلا:

- يااه على الرومانسية.. تصدق قشعرت... مش المفروض برضو نفوّق المُزّة عشان تعيش معانا اللحظة الحلوة دى؟

أفاقت كارمن وهي تنظر حولها بذهول قبل أن تقول لثائر في خوف:

- ايه ده يا ثائر احنا فين.. ؟ ومربوطين ليه كدا؟

اندفع حسام قائلا:

- انتى هنا في (الخندق).. أنا بعتبر المكان ده بيتى.. حريتى كلها بتبقى هنا

ثم نظر لهم بصرامة قبل أن يتابع:

- وحريتكم كلها برضو.. بتضيع هنا

نظر ثائر له في شرود وهو يقول:

- بس إزاي؟؟.. عرفت إزاي مكاننا.. مين اللى قالكوا؟

- انا اللى قلتلهم يا ثائر

نظرَ ثائر وكارمن إلى جانبهما وارتفع حاجباهما في ذهول... حين اصطدم نظرهما بـ هاشم الشرقاوى الذي كان مقيدا معهما منذ لحظات.. يقف منتصبا وينظر لهما بهدوء.. شهقت كارمن من المفاجأة في حين اتسعت عينا ثائر من الذهول قبل أن يتمتم:

- طيب إزاي؟!! وليه؟!!... إزاي ده حصل؟

سار هاشم الشرقاوى بهدوء وبطء بينهما وهو يقول:

-ليه ده حصل؟.. عشان أنا بَكرَه الغباء يا ثائر... وانت أغبى واحد شفته في حياتى.. انت لو كنت بصيت في الورق اللى معاك كويس.. كنت لقيت الورقة دى. ثم أخرج من جيبه ورقة... الورقة دى تثبت ان الحكومة أنشأت سجن سرى لتعذيب المعتقلين السياسيين

في التسعينات اسمه الخندق وده كان فكرة وتحت اشراف ظابط المخابرات هاشم الشرقاوى.. كنت لسه شاب ساعتها.. واصغر واحد في المخابرات وقدرت اقنعهم بانشاء المكان ده واشرفت عليه... ابوك حصل على ورق يثبت كدا.. وانت لو كنت بصيت بس فيها كنت فهمت كل حاجه.. المكان ده بعد كدا الحكومه هدته وباعت الارض، عارف مين اشترى الارض دى؟.. أنا اللى اشتريتها، وبنيت المكان من جديد وبنستضيف فيه كل حبايبنا، عدد اللى يعرف بوجود المكان ده يتعد على الصوابع في البلد، وعلى فكرة شايف الظابط اللى واقف ده.. اسمه بالكامل حسام هاشم الشرقاوى.. ابني

ازداد الذهول على وجه ثائر وهو يقول:

- طيب إزاي... ؟ ومعارضتك.. ومواقفك.. وكل ده ايه؟!!!

أطلق هاشم ضحكةً كبيرة قبل أن يقول:

فيه مقولة للعبقرى شكسبير بتقول "وما الدنيا إلا مسرحٌ كبير".. الناس لحد دلوقتى مش فاهمة الجملة دى... الدنيا مسرح فعلا.. والشعب هو الجمهور... واحنا الابطال.. كل واحد فينا قايم بدوره صح... انا دورى في المسرح ده... إني اكون المعارض.. وشكلى عرفت أؤديه صح

كانت الكلمات تنزل على رأس ثائر كالصخر.. يصعب استيعابُها فأخذ يردد نفس الكلمات:

– طب ليه؟؟.. وإزاي.. إزاي الدولة هيخلى ليها معارضة؟؟.. ومحاولات اغتيالك؟؟

تابع هاشم كلامَه وهو يسير بنفس الهدوء بينهما قائلا:

-لازم يبقى في معارضه طبعا... لازم الشعب يحس بأن في حد بيقول اللى هو عاوز يقوله... لازم يبقى فيه مكان الشعب يتنفس منه عشان مينفجرش... وانا كنت المكان ده... لما تكون انت الخصم والحكم... لما تكون المعارضة تحت ايدك.. تعرف تشغلها امتى وتعرف توقفها امتى.. لما تكون معارضة صورية عشان الشارع ميحصلوش تعبئة.. يبقى كدا مفيش حد هيوقفك، البلد دى ليها اصحاب واسياد، ومش هنسمح لشويه رعاع انهم ياخدوا مكان غير مكانهم، صدقنى احنا بنطبق العدل المجتمعى فوق ما تتصور، بنحط كل واحد في مكانه، المشكله يا ثائر ان في ناس مجانين احلامها بتوديها انها ممكن تاخد مكان مش مكانها وبتبص لفوق، مع ان ربنا بيقولك اقتنع باللى قسمهولك، احنا بقى بنحاول نطبق العدل ده عشان مصلحتنا وعشان مصلحة كله، لازم كل واحد يفضل في مكانه، فهمت؟

تابعت كارمن كل ذلك بذهول وان عقدت المفاجأة لسانها.. فحين تمتم ثائر في حنق:

-يا ولاد الكلب.. يا ولاد الكلب

تابع هاشم الكلام:

-دلوقتى خلونى اشرحلكوا الموقف... الكراسى اللى انتوا قاعدين عليها دى متوصلة بمحلول سام.. والكانيولا اللى في ايديكو دى معدلة بحيث انها تشتغل بريموت.. المحلول ده بمجرد ميوصل لدمك هتموت في خلال تلات ثوانى

رد ثائر:

- موّتنى مستنى ايه.. أنا مش خايف من الموت.. على الاقل هموت وانا رافع راسى زى والدي

رد هاشم في سرعة:

-يا ثائر يا حبيبى.. أنا اسهل حاجة عندى.. رصاصة لكل واحد فيكوا في دماغه.. مش هتاخد في ايدى ثوانى.. بس انت مش عارفنى... انا عاشق للأدب والروايات... بعشق النهايات الدرامية... مبحبش قفلات الافلام العربى دى.. لو عملت كدا هتبقى نهاية سطحية تافهة... مفيهاش أي متعة.. عشان كدا أنا محضرلكوا مفاجأة

ثم أشار إلى ابنِه قائلا:

- دخَّل المفاجأة يا حسام

ذهب حسام إلى الخارج ورجع بكرسي متحرك آخر يجلس عليه رَجلٌ

كبير مقيد.. وما إن رآه كلٌّ من كارمن وثائر حتى اتسعت أعينهم بشدة قبل أن تشهق كارمن وتصرخ:

- بابا !!؟؟

ارتفعت ضحكة هاشم وهو يقول:

- د. وحيييييد... انا بَعَت جبتُه مخصوص مستعجل عشان يحضر معانا اللقاء الجميل ده

تم إيصال كرسي د. وحيد بنفس المحلول الأخضر.. وتم وضع كانيولا في يده هو الآخر.. قبل أن يحرِّك هاشم الشرقاوي ذراعيه في الهواء كعارضٍ مسرحي وهو يقول:

- تان.. تاتا.. طاطا... ايه رأيكو؟؟ ايه رأيك يا كارمن؟؟.. مش أنفع مُخرِج؟؟

صرخت كارمن في وجهِه:

- انت تنفع تكون أحقر وأزبل إنسان في العالم.. هو ده آخرك

وقال ثائر في حنق:

- انتوا جبتوا د. وحيد ليه... ؟ أنا المطلوب.. اقتلونى أنا وملكوش دعوه بيهم

اقترب هاشم من وجهِه وقال في هدوءٍ مستفزِ:

- للأسف.. مش أنا اللى هحدد... صاحبة السعاده هي اللى هتحدد

ثم أَخرَج مِن جيبه ريموت عليه زرانِ فقط.. أحدهما أحمر والآخر أخضر.. وذهب إلى كرسي كارمن.. فكَّ قيودَ يدِها اليمنى وناولَها الريموت قائلا:

- انتى اللى هتحددى يا كارمن.. إنتي اللى هتحددى مين هيموت.. باباكي ولا حبيبك... اللون الاحمر ده كرسى باباكى زى ما إنتي شايفاه هناك اهو.. واللون الاخضر ده كرسى حبيبك ثائر... اختارى مين يموت ومين يعيش... مين اهم بالنسبة ليكي..؟ مين اللى عاوزاه يفضل معاكى.. واوعدك اللى هتختاريه يعيش... مش هاجى جنبه

صرخت كارمن وانخرطت في بكاءٍ حارٍ قبل أن تلقي الريموت بعنف بعيدًا قائلة:

- انا استحالة اعمل كدا... استحالة.. اهىء اهىء اهىء

سار هاشم الشرقاوي في بطء حتى الريموت الملقَى على الأرض والتقطه ورجع به لكارمن:

- يظهر انك مش فاهمه... ما هو إنتي لو معملتيش كدا.. أنا هدوس على الزرارين.. والمحلول هيمشى في الاتنين.. وفى تلات ثوانى مش هتلاقى ولا باباكى ولا حبيبك.. وهتفضلى عايشة طول عمرك حاسة بالذنب.. بأنه كان في ايدك تنقذى واحد ومعملتيش كدا.. امسكى

وفكرى كويس

تابعت كارمن الصراخَ والبكاءَ وهي تقول:

- حرام عليك.. حرام عليك

صرخ بها هاشم بقوة:

- انا معنديش وقت لدلع البنات ده.. امسكى والا هموتهم الاتنين قدامك.. امسكى

أمسكت كارمن الريموت بأيدٍ مرتعشة وسط بكاءٍ ونحيب شديدين.. فهتف بها ثائر:

- كارمن.. موّتينى انا.. اللى زيّ كدا كدا ميت في البلد دى.. دوسى على الاخضر

نظرت له كارمن بأعينٍ باكية.. قبل أن يهتف بها د. وحيد:

- كارمن متسمعيش كلامه.. دوسى على الاحمر.. أنا عشت بما فيه الكفاية يا بنتى.. حرام تموّتى ثائر.. ده لسه الحياه قدامه.. اسمعى كلامى أنا اللى بطلب منك

نظرتْ لهما كارمن والدموع تغرق عينيها ووجهَها وملابسها قبل أن تقول بصوت متقطع:

- مش قادره... مش قادره

انفعلَ هاشم بشدةٍ وصاحَ في غضب:

-بقولك ايه.. مش هنقعد اليوم كله هنا.. قدامك دقيقة واحدة لو ما اختارتيش حد.. هموت أنا الاتنين

تسارعت الأفكارُ في رأسِ كارمن، الاختيارُ صعبٌ، بل إنه مستحيل، صاحَ بها ثائر يطالِبُها بأنْ تختارَ لونَه، وصاحَ بها والدُها يطالِبُها بأنْ تختارَ لونَه... زادَ بكاؤها بشدةٍ، وارتفَع صوتُ نحيبِها، رفعتْ رأسَها للأعلى، أغمضتْ عينيها بقوةٍ وضغطت. . ضغطتْ على الزر. ..

×××

أيها السادة. .

لا تحلُموا بعالَمٍ سعيد. .

فخلْفَ كلِّ قيصرٍ يموت: قيصرٌ جديد

وخلْف كلِّ ثائرٍ يموت. . أحزانٌ بِلا جدوى. .

ودمعةٌ سُدَى!

ودمعةٌ سُدىَ!

ودمعةٌ سُدَى!

تمت

شكر خاص

أود أن أشكر ناس ساعدتني كثيرا وسيكون من الجفاء والجحود إنكار هذا

شكرا صديقي العزيز إسلام فوزي لجهدك واقتراحاتك التي ساهمت في خروج هذا العمل بهذا الشكل، أشاركك اليوم نتاج جلساتنا الطويلة على المقاهي.

شكرا صديقي العزيز محمد صادق زكي على مجهودك المضني معي الذي لم تبخل أبدا به علي، شكرا لكل شيء فعلته من أجلي، حقا أنت نعم الصديق

شكرا للكاتبة العزيزة روان أحمد، رأيك كان من أهم الآراء التي انتظرتها، فرأى كاتبة مثلك كان شهادة اعتز بها، وفى انتظار خروج أول أعمالك إلى النور قريبا

شكرا لأختي وصديقتي تغريد احمد، من اكثر الناس التي أرهقتها بسؤالها عن رأيها في الرواية، شكرا لمجهودك الغالي

شكرا لأمي الثانية هويدا، تشجيعك وكلماتك كانا يدفعانني دفعا للأمام، شكرا لكِ.

شكرا

صفحة زايتجايست بالعربية لإلهامها لى في الكثير من المواقف بالرواية،

محمد حسن، احمد إسماعيل، احمد السيد.

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com